الضمان الاجتماعي في الاسلام او التنظيم العمري في الخراج

ناجي معروف

١ - الفيء

لقد اعتمدت الدولة الاسلامية في خلافة الراشدين والامويين والعباسيين على المال الذي يطلق عليه اسم الفيء ، وهو المال الذي كانت الدولة تجبيه من أموال أهل الذمة من جزيةوخراج .

أما الجزية : فهي الضريبة التي وضعت على رؤوسهم ، وبها حقنت دماؤهم ، وحرمت اموالهم فلا تغتصب ولا تصادر وهي بمثابة الزكاة على المسلمين وهي تسقط عن المكلف اذا اسلم وكان مقدارها طفيفا جدا اذا قيست بالضرائب التي كان يؤديها الفرد للدولة الساسانية أو البيزنطية فقد كانت في زمن الرسول (ص) وابي بكر دينارا واحدا في السنة . وفي خلافة عمر بن الخطاب نظمت الجزية تنظيما متقنا تبناه الخلفاء من بعده فاتبعه عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب وخلفاء الامويين والعباسيين . وقد جعلها عمر على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ، ولا اضرار بفيء المسلمين . وزاد عليهم بقدر يسارهم ، وطاقتهم فوضع على أهل الشام مثلا اكثر مما وضع على أهل اليمن بسبب يسار الاولين وجعلها على ثلاث درجات سنذكرها في بحث قادم .

أما الخراج : فهو ضريبة الارض وقد وضعت على اسس ثابتة وكانت تؤخذ بمقادير مختلفة مما يلي :

١ ـ من الارض التي فتحها المسلمون عنوة وأصبحت ملكا لهم ولم يقتسموها بل اقروها بأيدي اهلها يعملون فيها مقابل خراج يؤدونه الى خزينة الدولة مالا وغلة ، أي نقدا وعينا تتراوح كميته بين درهمين وعشرة دراهم عن الجريب الواحد في السنة . ويخفف في حالة ضعف الارض عن الدفع ولا يزاد في حالة استطاعة الارض على الدفع أكثر مما حملت . ولا يكلف اهلها فوق طاقتهم . ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ، ولا لاسلام من اسلم منهم . لان كمية الارض بقيت أ ـ كما هي دون ان تنقص . وانما تسقط الجزية عمن اسلم وبقي عليه الخراج . وقبل له الخيار في ارضه ؟ ـ ان شاء اقام فيها يؤدى عنها ما كانت تؤدى ب ـ وان شاء تركها . وفي هذه

الحالة يجعلها الامام للمسلمين مع ما في يده ان شاء اقام من يعمرها ويؤدي الى خزينة الدولة عنها شيئا ، وله الباقي • ج ـ ان شاء انفق عليها من بيت المال واستأجر من يقوم فيها فتكون الفضلة لبيت المال د ـ وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء من المسلمين •

واذا اشترى مسلم أو ذمي ارض الخراج فانما يشترى المنفعة فقط لان الارض ملك الدولة وعلى المشترى ان يدفع عنها الخراج الذي كان يؤديه المتصرف السابق فيها فقد اشترى عتبة بن فرقد أرض خراج ، فقال له عمر (ر) : « اد عنها ما كانت تؤدي » •

٢ ـ من الارض التي فتحها المسلمون صلحا وأصبحت ملكا لاهلها فيكون للدولة عليها خراج معين اتفق على مقداره الطرفان • فاذا اسلم من اهل الصلح احد رفعت الجزية عن رأسه ، والخراج عن ارضه ، وأصبحت ارضه ارض عشر •

٣ ـ العشر الذي يأخذه العاشر على تجارة أهل الذمة أو ممن أسلم من ارض الصلح ، أو ممن اسلم من بني تغلب •

٤ ـ ما يؤخذ من اهل الحرب اذا دخلوا بلاد الاسلام للتجارة فقد ذكروا ان من أقام منهم ستة أشهر أخذ منه العشر • ومن اقام سنة اخذ منه نصف العشر • ومن كل ما لا يصل اليه ماء الانهار ، وكل ارض كانت للعرب الذين لا تقبل منهم الجزية ولا يقبل منهم الا الاسلام أو القتل فان ارضهم ارض عشر • وكذلك كل ارض تغلب عليها الرسول (ص) من أرض العرب •

وهذا الفيء هو الذي كان يوزع على المسلمين كافة غنيهم وفقيرهم للمقاتلة والذرية والنساء والاطفال ، واللقطاء والموالى ، والصرحاء بحسب نظام عمر بن الخطاب (ر) الذي شرحناه في بحث سابق •

ومن هذا الفيء أيضا كان الانفاق على الامور العامة كتجهيز الجيوش ، وشراء المعدات ، وحماية الثغور ، وبناء المدن والجوامع ••• وكري الانهار ••• الخ •

ويظهر ان ما كان يصل الى بيت المال كان يقسم بين المسلمين حالا فاذا زاد على الاعطيات وفضل منه شيء وزع على المسلمين أيضا • فكان الرسول (ص) لا يقبل مالا عنده ولا يبيته • قال ابن سلام : يعني اذا جاء غدوة لم ينتصف في النهار حتى يقسمه • وان جاء عشية لم يبيته حتى يقسمه وروى البخاري ان الرسول (ص) كان يقول : (لو كان عندي أحد ذهبا لسرني أن لا تمر بي ثالثة وعندي منه شيء الا شيئا ارصده لدين يكون علي •

وكان الرسول (ص) يعطي الآهل حظين والاعزب حظا واحدا • وقسم عمر بن الخطاب (ر) بين الناس فأصاب كل رجل نصف دينار اذا كان وحده فان كانت معه امرأته اعطاه دينارا •

ومما يدل على ان الخلفاء كانوا يعجلون في قسمة المال قول ابن عباس :

« دعاني عمر فاذا حصير بين يديه عليه الذهب منثورا نثر الحثا (أي التبن) فقال : هلم فاقسم بين قومك فالله أعلم حيث حبس هذا عن نبيه (ص) وعن ابي بكر فاعطانيه الخير اراد بذلك ام الشر · قال : فاكببت اقسم فسمعت البكاء فاذا هو عمر يبكي ويقول في بكائه : كلا والذي بعثه بالحق ما حبس هذا عن نبيه وعن ابي بكر ارادة الشر بهما وأعطاه عمر ارادة الخير به ·

وروى ان عبدالرحمن بن عوف قال :

(بعث الي عمر فأتيته فلما دخلت الدار اذا نحيب شديد فقلت :

انا لله وانا اليه راجعون · اعتري والله امير المؤمنين اعتري · أي ان شيئا عظيما اعتراه حتى بكى وانتحب قال :

فدخلت فقلت :

لا بأس يا امير المؤمنين ، انه لا بأس · قال :

فكان اول ما كلمني به ان قال :

ما اعجبك ؟ بلائي شديد · ثم اخذ بيدي فأدخلني بيتا فاذا حقيبات بعضها على بعض فقال :

ها هنا هان آل الخطاب على الله · والله لو كرمنا عليه لكان الى صاحبي ما بين يدي فلاقا مالي فيه أمرا اقتدي به ·

قال : فلما رأيت ما جاء به قلت :

اقعد بنا يا امير المؤمنين نتفكر ·

قال : فقعدنا فكتبنا اهل المدينة ، وكتبنا المخفين في سبيل الله · وكتبنا ازواج النبي (ص) وكتبنا من دون ذلك · فأصاب المخفين اربعة اربعة يعني ـ واصاب ازواج النبي (ص) اربعة اربعة · واصاب من دون ذلك اثنان اثنان · والاعراب اثنان حتى وزعنا ذلك المال ·

وقد فرض عمر (رض) لكل مسلم نصيبا من الطعام في كل شهر وذلك ان عمر لما قدم الشام واجتمع عنده امراء الأجناد جاء اليه « بلال » فقال : يا عمر يا عمر:فقال‌عمر : هذا عمر فقال : انك بين هؤلاء وبين الله وليس بينك وبين الله احد فانظر من بين يديك ، ومن عن يمينك ومن عن شمالك فان هؤلاء الذين جاؤوك والله ان يأكلون الا لحوم الطير · فقال عمر : ـ صدقت ، لا اقوم من مجلسي هذا حتى تكفلوا لي لكل رجل من المسلمين مدي بر ـ وحظهما من الخل والزيت · فقالوا : نكفل لك يا أمير المؤمنين هو علينا · قد أكثر الله من الخير ، وأوسع · قال : فنعم اذن · ثم أعلن للجمهور ذلك وقد اخذ المدي بيد والقسط بيد وقال : اني فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مدي حنطة ، وقسطي خل ، وقسطي زيت · فقال رجل : والعبيد ! فقال عمر : نعم ·· والعبيد ·

وسوى ابو بكر وعمر (رض) في العطاء بين القرشيين ، ومواليهم ، والانصار ومواليهم · قال ابو قرة : قسم لي أبو بكر من الفيء مثلما قسم لسيدي · وروي ان ثلاثة مملوكين لبني غفار شهدوا بدرا فكان عمر يعطي

كل انسان منهم في كل سنة ثلاثة آلاف درهم • وروي عن عائشة الصديقة (ر) أن عمر (ر) كان يرسل الى نساء النبي (ص) نصيبهن من الفيء حتى من الورس والزعفران •

فلما كانت خلافة الامام علي بن ابي طالب (ر) سلك سبيل صاحبيه ابي بكر وعمر ولم يغير شيئا مما صنع عمر • وجاء عنه في نهج البلاغة انه قال لما قدم الكوفة : « ما قدمت ها هنا لاحل عقدة شدها عمر » •

ويظهر ان الامويين أيضا اتبعوا سيرة الخلفاء الراشدين في تقسيم الاموال على المسلمين ، وفي الاستفادة منها في الاغراض العامة كالضمان الاجتماعي للامة فقد كانوا يوزعون العطاء من هذا الفيء في سبيل الله للمقاتلة والذرية ، وللشؤون المختلفة • كما كانوا يقسمون ما زاد على ذلك بين الناس • فقد روي أن معاوية بن ابي سفيان خطب مرة فقال : (ان في بيت مالكم فضلا عن عطيتكم ، وانا قاسم بينكم ذلك فان كان فيه في قابل فضل قسمناه بينكم والا فلا عتيبة علينا فيــه فانه ليس بمالنا • انما هو فيء الله الذي افاءه عليكم) •

وأراد الامويون ان يرفهوا عليهم ، ويحلوا مشاكلهم فكانوا يوفون ديون الناس الذين أصبحوا مدينين في اشغالهم ، او اصابتهم آفة ، ولم يسرفوا في انفاق اموالهم • كما انهم كانوا يزوجون من بيت المال كل انسان يرغب في الزواج ولا يملك ما يتزوج به • وساعدوا اهل الذمة الذين ضعفوا عن استثمار أراضيهم فكانوا يسلفونهم من أموال الفيء ، ليستعينوا بها على عمل ارضهم ، وليتمكنوا من دفع الجزية والخراج بانتظام الى بيت المال •

فقد روى ان عمر بن عبدالعزيز كتب الى عبدالحميد بن عبدالرحمن عامله على العراق : « أن اخرج للناس أعطياتهم » فكتب اليه عبدالحميد : « اني قد اخرجت للناس اعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال » • فكتب اليه : « أن انظر كل من ادان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه » • فكتب اليه : «اني قد قضيت عنهم ، وبقي في بيت المسلمين مال» • فكتب اليه : « أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء ان تزوجه فزوجه وأصدق عنه » • فكتب اليه : « اني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال » • فكتب اليه بعد مخرج هذا : « ان انظر من كانت عليه جزية فضعف عن ارضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فانا لا نريدهم لعام او لعامين » •

٢ ـ أسس الخراج :

لقد عرف العلماء الفيء بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج • والجزية كما اسلفنا هي ضريبة الرؤوس أو الجماجم • وهي على أهل الكتاب بمثابة الزكاة على المسلمين • والخراج : هو ضريبة الارض • وأرض الخراج : كل ارض مسحت وقدر عليها الخراج ، وكل شيء سقته انهار الخراج ، او سيق اليه منها • وكل ارض كانت لعبدة الاوثان من

العجم ، او لاهل الكتاب من العجم والعرب ممن يقبل منهم الجزية على رؤوسهم ، والخراج على ارضهم .

ويظهر ان بعض الباحثين قديماً وحديثا يخلطون احيانا بين الجزية والخراج ولا يفرقون بينهما ، او يغلبون احد اللفظين على الآخر . فقد قالوا مثلا :

من أسلم من اهل الصلح رفع الخراج عن رأسه ، وتصير ارضه ارض عشر وهم يقصدون بذلك رفع الجزية عن رأسه .

وقالوا : ارض الجزية وهم يريدون : ارض الخراج اذ لا جزية على الارض .

وقالوا : لا يجرى فيها ماء الجزية . ويريدون بذلك : ماء الخراج .

وقالوا : زكاة الارض التي عليها الجزية . ويريدون بذلك : زكاة الارض التي عليها الخراج .

وقالوا : أن يرفع الامام عنها الجزية ، ويضع عليها الصدقة ويريدون بذلك : أن يرفع عنها الخراج .

وقال عمر بن عبدالعزيز : ولا خراج على من أسلم من أهل الارض . ويريد بذلك : ولا جزية على من أسلم منهم . بدليل ان عمر جعل الخراج بمثابة اجار للارض ، واسقط الجزية عمن اسلم .

وقالوا أيضا : ولا دراهم النكاح وهي الخراج الذي كان يؤخذ من البغايا ويريدون بذلك : الجزية التي تؤخذ من البغايا اللائي كن من غير المسلمين فيما يظهر .

وقالوا : لا يترك ذمي في دار الاسلام بغير خراج رأسه . ويريدون بذلك : جزية رأسه .

ومع ذلك كله فأن بحوث العلماء ، والفقهاء ، وآراءهم ، وأقوالهم كلها تدل بوضوح تام على انهم كانوا يريدون بالجزية : ما وضع على رؤوس اهل الذمة من ضرائب معينة يدفعونها سنويا الى بيت المال . ويريدون بالخراج ما كان يؤخذ من ضرائب على الارض بنسب تختلف باختلاف نوع الارض اذا كانت ارض صلح أو أرض عنوة . كما تختلف باختلاف نوع المزروعات . غير اننا نلمح بين ثنايا هذه العبارات شيئا من الخضوع والصغار في الخراج فهو بذلك عقوبة كالجزية يعطيها الذميون عن يد وهم صاغرون . وهذا ما جعل المسلمين اول الامر يبتعدون عن شراء أرض الخراج .

قال عمر : « لا ينبغي لمسلم ان يقر بالصغار في عنقه » .

وروي عن ابن عمر انه قال : ما يسرني ان الارض لي كلها بجزية خمسة دراهم اقر فيها بالصغار على نفسي .

وقال : « من أقر بالطسق فقد اقر بالصغار » ـ بعكس ما نجده في الزكاة يدفعها المسلم عن طيب نفس وارتياح لتطهير ماله وتنميته ، ولرفع

مستوى الفقراء ، والمساكين وابناء السبيل وبذلك فالزكاة عبادة يرجو المسلم فيها المثوبة اما الجزية فهي اشبه بالعقوبة ٠

وعلى الرغم من هذا الخضوع والصغار اللذين نحسهما عند دافعي الجزية والخراج من اهل الذمة فاننا نجد ان الاسلام قد حماهم وساواهم بالمسلمين في الدية ، والخراج ، والقصاص ٠٠٠ فمن قتل منهم وكان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم ٠ وقال الرسول (ص) : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » وروى ان رجلا من المسلمين قتل رجلا من اهل الكتاب فرفع امره الى النبي (ص) فقال : « انا احق من وفى بذمته » ثم امر به فقتل ٠ وروي عن عمر بن الخطاب انه قال : « اوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله (ص) خيرا ان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من وراءهم ٠ وان لا يكلفوا فوق طاقتهم » ٠

ويمكننا ان نقسم الفيء الى قسمين :

١ـ ما صالح عليه المسلمون بغير قتال وليس فيه خمس ٠ وهو الجزية التي توضع على الرجال القادرين على حمل السلاح ٠ والخراج الذي يوضع على ارض الصلح وهي البلاد التي فتحها المسلمون صلحا ٠

٢ ـ الفيء الذي يؤخذ من ارض العنوة وهي البلاد التي فتحها المسلمون حربا فتكون الجزية على الرؤوس ٠ والخراج على الأرض ٠

وتختلف اسس الخراج في ارض الصلح عنها في ارض العنوة ٠ اما الجزية فلا تختلف ٠ جاء في كتاب الخراج ليحي بن آدم القرشي : ان من « كان منهم صلحا فعليهم الذي صولحوا عليه فيخلى بينهم وبين ارضيهم ٠ ولا يوضع عليها شيء ما اقاموا بصلحهم يؤدونه الى المسلمين » وان عجزوا عن ذلك « يخفف عنهم ، وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزاد عليهم ، وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ٠ ووضع ذلك الصلح عليهم جميعا بقدر ما يطيقون في اموالهم وارضيهم ٠ ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ، ولا لاسلام من اسلم منهم ٠ ويؤخذ بذلك كله من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه ٠

وكانت كمية الخراج الذي يوضع على أرض الصلح تحدد بالاتفاق بين الفاتحين من المسلمين ، وبين أهل البلاد المفتوحة صلحا فاذا اسلم رجل من أهل الصلح رفعت الجزية عن رأسه ، وصيرت ارضه عشرية باعتبار انها ملك له وليست ملكا للدولة ٠ اما اذا اسلم رجل من اهل العنوة فترفع الجزية عن راسه ، اما الخراج فيبقى على ارضه على حاله باعتبار ان الارض ملك الدولة ، وليست ملكا له فكأنه يستأجرها منها ٠ ولذلك وضعوا القاعدة التالية :

« اذا اسلم احد من أهل الذمة فهو حر مسلم ، وتطرح الجزية عن

رأسه وله الخيار في أرضه ان شاء أقام فيها يؤدي عنها ما كانت تؤدى وان شاء تركها » . ولا يمكن طرح الخراج عنها بحجة اسلام اهلها فقد رووا ان رجلا جاء الى عمر بن الخطاب وقال له : اني اسلمت فضع عن ارضي الخراج فقال له عمر : ان ارضك اخذت عنوة . واسلمت امرأة من نهر « الملك » في العراق فطلبت رفع الخراج عن ارضها فكتب عمر لعامله : ان ادت ما على ارضها والا فخلوا بين المسلمين وبين ارضهم » .

وروي ان الامام علي ابن ابي طالب قال فيمن اسلم من اهل السواد : « ان اقمت بارضك تؤدي عنها ما كانت تؤدي والا قبضناها منك » . ولما اسلم الرفيل في العراق اعطاه عمر بن الخطاب ارضه بخراجها .

وفي حالة ترك الارض كان امام المسلمين يقبضها ، ويضيفها الى ما في يديه مما كان في ايدي اهل فارس او من قتل منهم في الحرب . ومن هرب وترك ارضه . وكل ارض لم يكن فيها احد يمسح عليه ، ولم يوضع عليها الخراج . ويكون كل ذلك للامام ان شاء اقام فيها من يعمرها ويؤدي الى بيت المال عنها شيئا وتكون الفضلة لمن يعمرها . وان شاء انفق عليها من بيت مال المسلمين . واستأجر من يقوم فيها . ويكون فضلها للمسلمين . وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين .

٣ ـ قواعد التصرف بالارض الخراجية :

وقد بحث الفقهاء في كيفية التصرف بالارض الخراجية ، ووضعوا لنا فيها القواعد الدقيقة والاحكام المضبوطة التي تعين حقوق الدولة ، وواجبات المسلمين ، واهل الذمة عند بيع الارض ، او شرائها ، او استئجارها منها :

١ ـ اذا اشترى مسلم ارضا خراجية من ذمي فانه يشتري حق التصرف في الارض فقط . اما الارض فهي ملك الدولة . ولذلك يتحتم على المسلم الذي اشتراها ان يؤدي عنها الضريبة التي كان يؤديها عنها صاحبها الاول .

٢ ـ ان استأجر مسلم أرضا من ارض الخراج فالخراج على صاحب الارض . وعلى المسلم أن يزكي زرعه العشر ، او نصف العشر . وذلك لان عمر بن الخطاب مسح عليهم كل عامر أو غامر يقدر على زرعه ، عمله صاحبه أو تركه فعليه خراجه . على ان البعض قال : لا يجتمع العشر والخراج يؤيد القول الاول قول عمر بن عبدالعزيز لميمون بن مهران : « خذ من الذمي ما عليه أو قال : ما على ارضه . وخذ من المسلم مما حصل في يديه العشر » .

٣ ـ اذا اشترى الارض الخراجية شخص غير مسلم فيكون الخراج عليها ، ايضا فان باعها الى مسلم فالخراج يبقى على حاله لا يتحول عنها ابدا

ويؤدي المسلم فوق ذلك الزكاة عن زرعه بمقدار العشر أو نصف العشر وذلك ان عمر بن عبدالعزيز كان يفعل هذا وقد أثر عنه قال : « الخراج على الارض وفي الحب الزكاة » .

٤ ـ يرى الكثيرون ان لا يؤخذ من ارض الخراج الا الخراج فقط وليس في زرعها أو ثمارها شيء سواء كان لمسلم أو لغيره مستندين في ذلك الى ما عمله عمر بن الخطاب مع من اسلم من اهل الذمة حين ترك اراضيهم بايديهم مكتفيا بوضع الخراج عليها فقط .

٥ ـ لقد استثنى عمر بن الخطاب أرض بني تغلب من الخراج . كما استثنى نصارى بني تغلب من الجزية فلم يضع الجزية على رؤسهم ولا الخراج على ارضهم مخافة ان يلحقوا باعداء المسلمين من الروم . واعتبرت ارضهم أرض صلح ، ولم تعتبر أرض خراج . وفرض عليها العشر ، ووضعت لها احكام خاصة . والسبب في ذلك ان بني تغلب كانوا من العرب الذين يسكنون في شمال العراق ، ويدينون بالديانة المسيحية وقد اعانوا العرب المسلمين على الفرس وأبلوا معهم بلاء حسنا . فلما فتح العرب العراق جاء عبادة بن النعمان التغلبي الى عمر وقال له : « يا أمير المؤمنين ان بني تغلب من قد علمت شوكتهم ، وأنهم بازاء العدو فان ظاهروا عليك العدو ، اشتدت مؤنتهم فان رأيت ان تعطيهم شيئا فافعل » وكان عمر قد هم ان يأخذ منهم الجزية فتفرقوا في البلاد ، وقطعوا الفرات وارادوا اللحوق بالروم . فقيل له : ان بني تغلب قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وليست لهم أموال انما هم اصحاب حروث ومواشي ولهم نكاية في العدو فلا تعن عدوك عليك بهم .

عند ذلك وقف عمر بن الخطاب موقفا وسطا فلم يفرط في ابناء قومه من العرب من ناحية ولم يحرم الاسلام من نصرتهم ، وأموالهم من ناحية أخرى فعقد معهم صلحا يختلف عما كان يعقده مع الفرس أو الروم وغيرهم .

ويمكن ان نلخص ذلك الصلح فيما يلي

١ ـ ان يسقط الجزية عن رؤوسهم .

٢ ـ ان لا يضع الخراج على ارضهم .

٣ ـ ان يضاعف عليهم الصدقة عوضا عن الجزية والخراج فهم كالمسلمين غير أنهم يدفعون الزكاة مضاعفة .

٤ ـ ان لا يغمسوا اولادهم في النصرانية أي لا ينصروهم ولا يصبغونهم في دينهم .

٥ ـ ان لا يمنعوا أحدا منهم أن يسلم .

وكانت المرأة والرجل من بني تغلب في هذا الصلح سواء لانه ليس على رؤوسهم انما هو على أرضيهم • وكذلك من كان عليه دين أو من لم يكن عليه دين فهم سواء يؤخذ منهم جميعاً • واختلفوا في الصبيان من بني تغلب قال بعضهم : يؤخذ منهم العشر جميعا فهذا الصلح بمنزلة الخراج على غيرهم • بينما يرى الامام أبو يوسف : انه ليس على الصبيان شيء •• وتؤخذ الضريبة من اراضيهم التي كانت بأيديهم يوم صولحوا فيؤخذ منهم العشر ضعف ما يؤخذ من المسلم أي يؤخذ منه الخمس • واما الصبي والمعتوه فأهل العراق كانوا يرون ان يؤخذ ضعف الصدقة من رضه أي ٥٪ ولا يؤخذ من ماشيته • وأهل الحجاز كانوا يقولون : يؤخذ ذلك من ماشيته • وسبيل وسبيل ذلك سبيل الخراج لانه بدل من الجزية • ولا شيء عليهم في بقية أموالهم ورقيقهم •

وكانت الصدقة المضاعفة تؤخذ من كل شيء على المسلمين فيه الزكاة من الابل والبقر ، والغنم ، والزرع والثمار • ولا يؤخذ من أقل مما تجب فيه الزكاة على المسلمين • في خمس من الابل شاتان • وفي أربعين من الغنم شاتان • وفي ثلاثين من البقر تبيعان • وفي خمسة أوساق (٣٠٠ صاع) ان كان مما يسقي فتحا أو سيحا أو يسقيه السماء فالخمس أي عشران • وان كان مما يسقي بالسوالي فالعشر • ولا يؤخذ في أقل من ذلك • وما زاد فعلى هذا الحساب وذلك مرة واحدة في السنة •

ويظهر انهم كانوا يضاعفون عليهم في الخمر • وفي رواية ان العاشر كان يقوم عليهم الخمر ، والخنازير اذا كانوا يتاجرون فيها ويأخذ عشورها من القيمة •

ويظهر انهم نقضوا العهد وتصروا اولادهم • ولذلك قال الامام علي بن ابي طالب (ر) : لئن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي لأقتلن مقاتلتهم ، ولأسبين ذراريهم ، فقد نقضوا العهد ، وبرئت منهم الذمة حين نصروا اولادهم •

واليك بعض الاحكام التي وضعت بوجه عام لاراضي بني تغلب في خلافة الراشدين والامويين وظلت نافذة في خلافة العباسيين :

١ ـ اذا اسلم تغلبي فأرضه أرض عشر لانها لم تكن ارض خراج ، ولم يكن على اهليها جزية • وقيل : تضاعف عليها الصدقة وذلك عوضا عن الخراج • ومعنى ذلك ان هذه الارض عوملت معاملة ارض العرب الذين لم يقبل منهم الجزية ولا يقبل منهم الا الاسلام أو القتل • ووضع عليها العشر • وكان اذا نقض ذمي العهد وقاتل المسلمين مع المشركين ثم اسره المسلمون فانه لا يقبل منه الا الاسلام أو القتل لان القاعدة هي ان يقاتل اهل الاوثان على الاسلام ، ويقاتل اهل الكتاب على الجزية ويعتبر المرتدون منهم بمنزلة مشركي العرب •

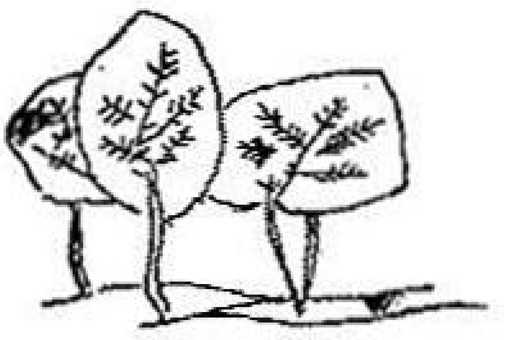
وقد وضع الرسول (ص) العشر على كل ارض ظهر عليها من ارض العرب • ولم يضع عليها الخراج وهي تختلف عن بعض القرى العربية التي وضع عليها الرسول (ص) ضريبة مقدارها الثلث أو الربع وسماها « حظ العرب » • اما أرض العشر في اصطلاح الفقهاء فهي

ما كان لا يصل اليها ماء الانهار فاستخرجت فيها العيون •

٢ ـ اذا اشترى مسلم أرضا من بني تغلب فهي : ارض عشر وقال بعضهم: تضاعف عليها الصدقة •

٣ ـ اذا اشترى مشرك أرض العشر من المسلم فانه يوضع عليه الخمس أي تضاعف الصدقة فأن اسلم صارت أرض عشر

٤ ـ كل ارض من ارض العشر اشتراها نصراني تغلبي فان العشر يضاعف عليه كما يضاعف عليهم في أموالهم التي يختلفون بها في التجارات • وكل شيء يجب على المسلم فيه واحد فعلى النصراني التغلبي اثنان • وان اشترى هذه الارض ذمي من غير بني تغلب فان أبا حنيفة كان يرى ان يوضع عليها الخراج ولا تحول عنه فان اشتراها مسلم بعد ذلك فان الخراج يبقى عليها • اما الامام يوسف فلم ير رأي الامام ابي حنيفة بل كان يرى ان يوضع عليها العشر مضاعفاً ، فهو خراجها فاذا رجعت الى مسلم أو أسلم النصراني اعيدت الى العشر الذي كان عليها في الاصل • ويعلل الامام أبو يوسف ذلك بقوله : الا ترى ان المال يكون للمسلم للتجارة فيمر به على العاشر فيجعل عليه ربع العشر (١/٤٠) فاذا اشتراه ذمي فمر به على العاشر لتجارة جعل عليه نصف العشر أي ضعف ما على المسلم (١/٢٠) فان عاد الى مسلم جعلت فيه ربع العشر فهذا مال واحد يختلف الحكم فيه على من يملكه فكذلك الارض من ارض العشر الا ترى لو ان ذمياً اشترى ارضا من ارض العرب حيث لم يقع خراج قط بمكة أو المدينة او ما اشبهها لم اضع عليها خراجا • وهل يكون خراج في الحرم ؟ ولكنه تضاعف عليه الصدقة كما تضاعف في أموالهم التي يختلفون بها في التجارات • ومن اسلم منهم فأرضه ارض عشر لانه لم يوضع عليها الخراج •



تقييم موسيقانا العربية

الدكتور محمود أحمد الحفني
خبير شؤون الموسيقى بجامعة الدول العربية

من الطبيعي ومن الضروري في وقت واحد ان يعرف المرء قيمة ما يمتلك ومقدار ما يكون في حوزته اذ يتوقف على هذه المعرفة احتفاظه بذلك الذي يمتلك واعتزازه به . وكلما علت قيمته زاد به استمساكا وحرص على تنميته وبقائه . وعلى العكس يتهاون في امره اذا كان تافه القيمة رخيص الغـــاية .

اضواء على التاريخ :

ان موسيقانا العربية في علو قيمتها عريقة المحتد تمتد جذورها الاصيلة الى ابعد القرون وآلاف السنين التي تقدمت الميلاد . وحين يرفع ستار التاريخ العام عن وجه الدنيا نجد على صفاف النيل شعبا يتمتع بمدنية موسيقية ناضجة وآلات جاوزت دور النشوء وبدت تامة كاملة سواء في ذلك المصفقات (clappers) وأنواع الطبول (drums) المختلفة ام آلات النفخ (wind instruments) ام الآلات الوترية (string instruments) فنرى الناي (nay-flute) ثم المزمار المزدوج (double pipes) وآلة الصنج الوتري (harp) التي سرعان ما تتعدد أنواعها ويكبر حجمها وتكتمل صناعتها . ويظهر العود (Lute) والطنبور (tambourious) والـكنارة (lyre) وتكثر الطبول (drums) وتتنوع الدفوف (tambourines) والصنـوج (metal clacks) والصاجـات (bones) .

هذا بينما كان ذلك الشعب يرسل اغنياته سحرا آخاذا على شاطىء نيله السعيد في تعبير صادق عن حياته الزوجية وعن مشاعره نحو المجهول . ها هو ذا يغوص في أعماق وجدانه فيترع العبرة من غموض الحياة وسر الكون المطوي والاعتبار بمصير الراحلين فيقول في اغانيه :

« أين من شيدوا القصور وعمروا المدن ؟ كيف كانت عاقبتهم »
« وماذا كان مصير مدينتهم ؟ لقد انهار البناء وعفت المدنية »
« وانقطع ما بين اهل الدنيا وبني الآخرة فلم يرجع منهم احد »
« ينبئنا بما هم فيه وماذا يصنعون فتطمئن قلوبنا »
« تزود بالعزم · ولا تبت على غيظ او حفيظة · اطع قلبك »
« ومسراتك ما دمت حيا · لا تعذب قلبك حتى يحين »
« حينك وتأسى نواديك والندب والولولة لا يسمعهما »
« اوزيريس وما بعثت احدا من قبره · فاحتفل بيومك »
« السعيد دون كلل · فلن يأخذ احد معه من متاع الدنيا »
« شيئا · ومستحيل ان يعود من مات · »

ويترنم بأغنية اخرى فيقول :

« كل حطام الدنيا انت تاركه خلفك وكل حي مصيره للزوال »
« كل متاع الى فناء · وليس لك الا مسراتك التي تتمتع بها »
« فهي ملكك الحقيقي · »

ومن اغانيه في الحض على عمل الخير والبر ووجوب تقديم العون من الغني الى الفقير قوله :

« اعط الخبز لمن لا حقل له · وقدم لنفسك من العمل الصالح »
« ما يكفل لك سعادة الاخرى · »

ثم تجتذبه مباهج الدنيا ونشوتها فينادى نديمته قائلا في اغاني الخمريات :

« ناوليني ثمانية عشر قدحا من النبيذ · انني اريد ان اشرب »
« حتى أرتوي ان جوفي حطب جاف · »

ثم هو لا ينسى ان يرفه عن حياة العامل المجهد طيلة نهاره تحت وهج الشمس بما يخفف عنه العناء ويجفف من عرق الكفاح حين يتمثل ثيرانه وكانما هي كائن مدرك تسمع له وتستجيب فيخاطبها مترنما :

« ادرسى لنفسك ادرسى لنفسك ايتها الثيران · ادرسى لنفسك »
« فهذا القش علفك والقمح قوت سيدك لا تكلى ولا تعرقي »
« فى العمل هواده فجو هذا اليوم معتدل · »

وهكذا كانت الاغاني المصرية القديمة تبرهن على ان اهلها كانوا شعب عمل لا ينسى حظه من المسرات · شأن كل شعب سليم التفكير ·

فاذا تجاوزنا ابعاد السنين الغارقة في القدم حتى نصل الى الاسرة الثامنة عشرة التي بدأ حكمها حوالي عام ١٦٠٠ ق·م بملوك اقوياء زادوا رقعة أملاكهم اتساعا واتصلت مصر بالمدنية الاسيوية اتصالا وثيقا نرى اثر هذا الاتصال واضحا في الموسيقى وآلاتها واساليب ايقاعاتها والوان اغانيها ·

وأصبح من العرف ان يكون في بلاط الملك فرقتان موسيقيتان احداهما مصرية والاخرى اسيوية • ومنذ ذلك الحين نرى التجاوب وثيقا في نواحي الموسيقى المختلفة حيث يقع المزج والتبادل بين هذه الشعوب المتجاورة تماما كتبادل سلع التجارة والهدايا الى غير ذلك مما يقوى العلاقات ويزيد التقارب الفني بينهم •

وفي هذا الوقت نلاحظ ان مدينة بابل وآشور التي شملت شعوب الكنعانيين والفينيقيين والحيثيين كانت مدنية عالية فياضة امتدت ظلالها الوارفة على شعوب غرب آسيا وامتازت بظهور آلات القانون (psalterium) والسنتور (santir) في بداية نشأتها وفي ظهورها الاول ذلك فضلا عن الآلات التي سبق ذكرها في المدنية المصرية • وتلاقت المدنيتان وظلت هذه الشعوب على اتصال وثيق دائم بعضها ببعض مما جعل التاريخ الموسيقي يسجل لها حضارة موسيقية موحدة الطابع وان تنوعت الصور وتعددت اللهجات •

ثم تمتد الاضواء وتتسع الرقعة واذا بنا نطالع من الشرق مدنية فارسية ونستقبل من الغرب مدنية اغريقية • وما هو الا ان تتفاعل موسيقات جميع هذه المدنيات وتترابط بحكم الجوار والتجارة تبعا لما تستهدف له من ظروف وما تتحكم فيها من أحوال • وتنتقل الآلات بينها فتشكل من الجميع وحدة فنية • وكما هو مقرر في علم الآلات من ان أية آلة لا تنتقل من بلد الى بلد الا ومعها موسيقاها • ويسجل التاريخ هذه الحقيقة فيقول هيرودت الفيلسوف الاغريقي انه سمع من اغاني مصر اغنيات صارت فيما بعد اغاني شعبية في بلاد اليونان • وها هو صولون عندما حضر الى مصر في القرن الخامس قبل الميلاد اختار من بين قوانينها كثيرا مما يختص بشئون الموسيقى لتطبيقه والعمل بمقتضاه في بلاده • وكذلك فعل افلاطون •

وقد حاول اليونان تدوين الالحان الموسيقية بطريق الرموز والحروف فكان ما وضعوه من ذلك يشكل في الكثير منه حروفا شرقية مما ينهض دليلا على ان كلا من التدوين والموسيقى شرقي المعدن والاصل •

ثم نرى مثل هذا الاثر ينتقل من اليونان ومن الفرس الى العرب فنقرأ في اخبار الجاهلية تأثر العرب بتيارات هذه المدنيات ولاسيما سكان الحضر الذين كانوا يسكنون المدن ويمارسون الزراعة والتجارة كالغساسنة في الشام واللخميين في العراق • فهذا حسان بن ثابت يصف ليالي الجاهلية عند جبلة بن الايهم فيقول :

« لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط (lute instruments) وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة •• الخ •• »

وهكذا تمتزج هذه المدنيات الشرقية القديمة لتشكل الجذور الاصيلة لدوحة الموسيقى ومن هذه الجذور القوية نجد الفروع التي تؤلف نسيج الموسيقى العربية التي ستنمو وتزدهر مع صور المدنيات العربية المتعاقبة

والتي ستظل طوال العصور الوسطى المنبع الذي يفيض باضواء هذا الفن والهاماته في الشرق والغرب .

واخذت شعلة الموسيقى العربية ترسل انوارها من أراضي الحجاز وتنطلق من افواه اعلام المغنين والمغنيات من امثال طويس وابن مسجح وعزة الميلاء وجميلة حتى يبلغ صداها قصر الخلافة في دمشق وتلقى الموسيقى من الدولة الاموية التشجيع والترحيب غير مقتصرة على مجالس الخلفاء بل تعم منازل الاشراف والنبلاء والسراة . وأصبح الغناء العربي مرتكزا على أساس صحيح من العلم والفن وقواعد تميز اسلوبه في الاداء ومقاييس يعرف بها الغث والسمين وتفرق بين المصيب والمخطىء وذلك بفضل من ظهر من عمالقة الغناء في تلك الدولة من امثال معبد وابن سريج والغريض وابن محرز . وقد بدىء في هذا العصر بتأليف اول تصانيف عربية في اخبار الموسيقى والغناء .

ثم تألق نجم الموسيقى العربية في عصر بني العباس أزهى عصور
ثم تتألق نجم الموسيقى العربية في عصر بني العباس أزهى عصور
العروبة والاسلام فدخلت الموسيقى في عصرها الذهبي وخطت خطوات سريعة نحو الكمال والازدهار وزادت المقامات والايقاعات وتعددت في اللحن الواحد وكثرت الآلات وضربت مائة قينة معا .

حقا لقد بلغت بغداد حاضرة تلك الدولة من التقدم درجة لم تبلغها مدنية غيرها في تلك العصور فكانت زهرة المشرق وجنة الدنيا . ولما كانت الفتوحات الاسلامية متتابعة متلاحقة كان الاقبال عظيما على جلب الارقاء من مختلف الجنسيات والامم ليكونوا بلابل التغريد في قصور الخلفاء والامراء وبيوت الاغنياء والطبقة الوسطى . وشغف الناس جميعا بالغناء حتى بدا وكأنه ضرورة لكل انسان . وكان ذلك من عوامل الاحاسيس الفنية في الشعب مما جعل في قدرته الحكم للانتاج أو عليه بالجودة أو الضعف . وهذا الشغف بالغناء استلزم بطبيعته الملم اهل هذه الصناعة من محترفين وهواة باجادة العزف بالآلات ومعرفة فنون الشعر والادب والرواية والقصص والتندر ليتم الاستمتاع في مجالس الغناء بكل هذه النواحي مجتمعة . ولم يكن الغناء في ذلك الوقت الا بلغة الادب الرصين والشعر العربي الفصيح لعيون القصائد والمقطوعات الغنائية من امثال شعر ابن ابي ربيعة وبشار ومسلم ابن الوليد وابي نواس وغيرهم .

وكان من عناصر الطبقة العليا من دخل في زمرة اهل هذه الصناعة بل لقد زاولها بعض امرائهم كابراهيم بن المهدي الذي كان له فيها مذهبه التقدمي الخاص . واتخذ التصنيف الموسيقي دورا هاما يمارسه اعلام الغناء كاسحاق الموصلي واكبر فلاسفة العرب وفي مقدمتهم الكندي والفارابي وابن سينا . ومن حق الفن علينا ان نسجل هنا للفارابي ما بذل من جهد في مصنفه « كتاب الموسيقى الكبير » الذي يعتبر بحق موسوعة

خالدة في كل ما يتعلق بهذا الفن من قواعد ونظريات وآلات وما يتفرع عن هذه النواحي • واشتهر في الغناء اعلام رسخت اقدامهم في التلحين والعزف والاداء من امثال الموصلي وابنه اسحاق وابن جامع ومخارق وزلزل ومن المغنيات بذل ومقيم ودنانير • وتم في هذا العصر نتيجة لدراسة الالحان اقرار مائة مختارة منها بناء على تكليف من الرشيد لكبار الفنانين بذلك • ثم امرهم ان يختاروا عشرا منها وان يختاروا بعد ذلك ثلاثا من العشر ومما يشهد بجلال نزاهة هؤلاء المحكمين – وهم جميعا من اعلام الغناء في الدولة العباسية – انهم على الرغم من علو كعبهم في هذا الفن واعتزازهم بعصرهم ومعاصريهم فقد كانت الالحان الثلاثة التي انتهى اليها الاختيار كلها من تراث العصر الاموي وهي للاعلام الثلاثة معبد وابن سريج وابن محرز •

وكانت الموسيقى العربية في مصر منذ فتحها العرب في عهد الخلفاء الراشدين حلقة من حلقات المدنيات العربية الزاهرة • وقد بلغت في عصر الفاطميين غاية ازدهارها اذ كانت مصر ملتقى المدنيتين العربيتين الشرقية والغربية وكثيرا ما سكنتها العلماء المشارقة والمغاربة • وكان المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين مشغوفا بالفنون الجميلة وكان للموسيقى في عهده حظ سائر الفنون • كما كان ابنه وخليفته العزيز مولعا بها •

ولقد اتسعت دولة الفاطميين وبلغ خلفاؤها من الثراء درجة بزوا فيها أحيانا من تقدمهم من الخلفاء • وانك حيث ترى الثراء والرفاهية تجد الموسيقى وتقدمها • والواقع ان الموسيقى كانت دائما موضع عناية خلفاء تلك الدولة حتى المتزهدين منهم المكارهين للملاهي • فان الحاكم بامر الله وان حرم على الشعب جميع الملاهي كان يشجع علماء الموسيقى على التأليف في علومها وجمع أغانيها فكانت آداب الموسيقى وعلومها غير معدودة من الملاهي التي يعاقب اهلها والمشتغلون بها • وكان ابن الهيثم من اكبر الفلاسفة الرياضيين الذين عرفتهم مصر في ذلك العهد وقد صنف في الموسيقى « رسالة في تأثير اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية » •

وكان الامير المسبحي احد ولاة الحاكم بامر الله من أكبر المؤرخين وله مجموعة في مختار الاغاني ومعانيها • ومن مشاهير هذا العصر ابو الصلت امية الذي كان من أكبر الفلاسفة واساطين العلماء • وكان واسع الدراية بالعلوم الموسيقية مجيدا للعزف بالعود • وكان من بين مصنفاته رسالة في الموسيقى • وكذلك ابن ابي القاسم في أوائل القرن الثاني عشر وكانت الموسيقى أول ما عنى به • ومن أكبر معاصريه ابن القفطي المؤرخ الكبير الذي يعد مرجعا لحياة كثير من الموسيقيين •

واستمر اهتمام الفاطميين وعنايتهم بالموسيقى حتى نهاية دولتهم •

وانبثقت الشعلة من نور المدنية العربية في بلاد الاندلس عندما فتحها بنو امية في أوائل القرن الثامن الميلادي • وظلت عندئذ تفيض بنورها من

العلوم والفنون على اوربا فكانت قرطبة موطنا لاساطين العلماء كما كانت اشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر ·

ونقل العرب الى الاندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ثم افتنوا فيها وزادوا عليها فأصبح لديهم منها عدد جم اذ استعملت الاندلس من الآلات الوترية العود القديم ذا الاوتار الاربعة والعود الكامل ذا الاوتار الخمسة والشاهرود (shahroud) وهو نوع من العود والطنبور (tanbour) والقيثارة (quitarra) والمزهر (mizhar) وهو نوع من العود أيضا والكنارة (lyre) والقانون (psalterium) والرباب (rebab) والكمنجة (kemange) والشقير (echiquier) أو المشقر الذي يقرر الاوربيون انه بداية حلقات تطور آلة البيانو ·

ومن آلات النفخ (wind instruments) المزمار (single reed pipe) والسرنا (surna) أو السرناي والناي والشبابة واليراع والزمارة (double clarinets) والقصبة والموصول والصفارة ومن الآلات النحاسية البوق (trumpet) ·

ومن آلات النقر (percussion instruments) الدفوف (tambourines) والغربال والبندير والصنوج (sonajas) والكاسات (cym bals) والنقارة (kettle drums) والقصعة والطبل (drum) ·

ولم يكن افتنان العرب في الاندلس مقصورا في الموسيقى على آلاتها بل افتنوا في التآليف الموسيقي وانواعه وسايروا بها ارتقاءهم في مدارج المدنية فاستحدثوا الجديد فيها · من ذلك النوبة (أو المألوف) وهي أهم أنواع الموسيقى والغناء في الاندلس · وكذلك ابتدعوا الزجل والموشحات التي تحلل الفنان فيها من تلك البحور المعدودة والقوافي الضيقة المحدودة التي درج عليها الشعر وظل قرونا واحقابا مقيدا بأوزانها وقوافيها ·

وأهم من اشتهر من الموسيقيين في الاندلس زرياب وهو أبو الحسن علي بن نافع رمز حضارتي المشرق والمغرب وحامل لواء الغناء العربي لدولة بني العباس في بغداد وبني امية في قرطبة · وكان في علوم الموسيقى بحرا لا يدرك ساحله · فلم تقف مواهبه عند اجادة الغناء والمهارة في العزف بل ادخل الكثير من التحسينات على صناعة آلة العود وزاد الوتر الخامس به في بلاد الاندلس واستعمل المضراب من قوادم ريش النسر التي تجمع بين القوة والليونة وكان المضراب لا يزال حتى وقته من الخشب وابتكر زرياب لنفسه في الموسيقى مدرسة خاصة وطريقة مستحدثة في التعليم · ويعد زرياب في نظر المؤرخين رسولا من رسل المدنية والتجديد في عرف اللياقة ومظاهر الجمال والتألق ·

وظلت الاندلس زهرة اوربا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها اريجها من كل علم وفن • وارسلت اوربا الى جامعاتها بالبعوث لارتشاف العلوم والفنون العربية ودراستها على أئمة العرب واساطين علمائها وكانت الموسيقى اول هذه العلوم والفنون التي وفدت البعوث لدراستها وترجمة كتبها فيما بعد •

وبعد سقوط الاندلس ظل ملوكها المسيحيون محتفظين في قصورهم بالموسيقيين من العرب • وانا لنجد في أوائل القرن الرابع عشر ان هؤلاء الملوك شغفوا باستدعاء هؤلاء الموسيقيين كما كانوا يدعونهم مع الراقصات في اعيادهم حتى ان بعض شعراء الاسبان كتب الكثير من الاغاني العربية لهؤلاء الموسيقيين والراقصات العربيات •

وعرفت اوربا عن طريق الاندلس ألوانا جديدة من الغناء الشعبي والاغاني التي عرفت فيها باسم أغاني « التروبادور » • وانتقلت اليهم أيضا الطريقة العربية لضبط الانغام التي بنوا عليها علم « الصو لفيج » • وانتشرت في ممالك اوربا ولاسيما في البلاد الاجنبية منها آلات الموسيقى العربية والكثير من هذه الآلات انتقل اليها بأسماء تنم في اشتقاقها عن اصلها العربي كالعود والقيثارة[١] (qitarra) والجيتار (geuitar) والنقارة (nacaire) أو (naker) والدف (adufe) والصنوج (sonajas) والنفير (anafil) وجمعه انفار (fanfare) والطبل (tabel or taber) والقرون (horn) و (corna) الخ ••

وظلت اوربا تحت غزو الموسيقى العربية آلاتها وفنونها وعلومها عدة قرون حتى بعد عصر الاصلاح بل لقد ظل استعمال العود منتشرا فيها حتى القرن السابع عشر حيث قضى عليه ذيوع آلة البيانو لمناسبتها للموسيقى الاوربية الحديثة بعدما تطور فيها علم « الهارموني » وصار علما على تلك الموسيقى •

اما الرباب فقد انتقلت أيضا من الاندلس الى اوربا وبخاصة الى البلاد الجنوبية منها وكان ذلك اول تعرف اوربا بالآلات الوترية ذات القوس حوالي القرن الحادي عشر الميلادي • وهنا بدأ في اوربا ظهور اسرة الكمان فصنع الفرنسيون آلة تماثل الرباب العربية سموها (rubebe) أو (rubella) كما صنع الطليان نفس هذه الآلة وسموها (rebec) وظاهر في كل هذه المسميات اشتقاقها من كلمة الرباب • ثم انتشرت تلك الآلة فعمت اوربا في القرن الرابع عشر وأخذ التغيير يتناولها شيئا فشيئا حتى صنع منها على مرور الزمن أنواع مختلفة الحجم •

كذلك ظلت اوربا حتى القرن الثامن عشر تستعمل في تدوين الالحان التدوين الآلي على شكل جدول « تابلاتور » يبين مواضع عنق الاصبع على الاوتار أثناء العزف وقد اقتبست هذا النوع من التدوين عن العرب أيضا ٠

وكما اثرت المدنية العربية في الاندلس في اوربا من الغرب الجنوب فان هذه المدنية العربية ذاتها اثرت في اوربا أيضا عن طريق الحروب الصليبية وفتح القسطنطينية من الشرق ٠

هذا وقد بقيت بلاد شمال افريقية قطعة من الدولة العربية منذ ابتداء الدولة الاموية فتعاقبت عليها عصور تلك الحضارات الزاهرة ٠ وحين اضمحلت الاندلس وسقطت اشبيلية في منتصف القرن الثالث عشر هاجر من الاندلس ما يقرب من نصف مليون من اهلها الى شمال افريقية واقاموا بها ٠ ونقلوا اليها من كنوز الموسيقى ما كان بالاندلس وغدت هذه البلاد وارثة تلك الفنون محتفظة بالكثير منها حتى اليوم ٠

من الحاضر الى المستقبل :

كثيرا ما المعنا الى ان للشعوب من الخصائص الذاتية والنفسية ومن الاماني والآمال ومن المحن والآلام ومن الذكريات والامجاد ما للافراد في طبيعة حياتهم ومختلف الشئون في وجودهم ٠ لها ماض تعتز بذكرياته أو تعتبر بها ولها حاضر تتوثب لما بعده ولها مستقبل مرجو تطمع فيه الى تقدم وعزة وسيادة ٠ والمعبر عن هذه الشئون كلها والمترجم عن هذه الاطوار جميعا انما هو الفنون بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى وفي طليعتها الموسيقى ٠ فعندها تلتقي مشاعر الامم وعلى اصدائها تتجاوب أحاسيس الجماعات ومفاهيمها ٠

واذا تجرد أي انتاج فني من علاقته بالمجتمع ومشاعره وتقاليده كان عرضة لاهماله والانصراف عنه وسيظل على الدوام عاجزا عن الاحتفاظ بصفة البقاء في ذلك الشعب لانه لا يعبر عن خصائصه ولا يتحدث عن عواطفه ولا تتمثل فيه آماله وامانيه ٠

واذا كانت عصور المدنيات العربية الزاهرة التي توالت على تلك الاقطار الشاسعة التي امتدت من الخليج الى المحيط قد اعقبها في الموسيقى تخلف وركود فانما كان ذلك نتيجة لتأثر الفن بالحياة السياسية العامة ٠ فلم يكن من المعقول ان يعبر الفن عن حالة غير موجودة أو يهتم بمعان من السعادة لمجتمع غير سعيد ٠ لان الفن هو المرآة الصافية التي تنعكس عليها مظاهر الامة في قوتها وضعفها ٠ ولكن على الرغم من ذلك كله كان لشعوبنا العربية من الطاقات والقوى ما جعلها تحتفظ تلقائيا بهذا التراث الاصيل وتصونه وهو ينتقل عبر القرون عن طريق الرواية والتلقين اللذين استغنى بهما عن التسجيل والتدوين ٠ واذا كان الشعب حتى اليوم يحتفظ بالكثير من تقاليده في ملبسه ومأكله وعاداته وموروثاته ومرافق حياته في الحضر والريف حتى الساقية والشادوف في حقله والعباءة والجلباب في ملبسه ومعالم الابتهاج

والحزن في الافراح والمآتم ٠٠ اذا كان كل هذه واكثر منه ما برح قائما برغم وجود الاستعمار واثره في اضعاف قوميات المجتمع في هذه الشعوب فانه اجدر بتلك الشعوب ان تحتفظ بالتراث الفكري والفني وتعتز به وتحرص عليه ٠ ترددم على مدار فصول العام وينقله الابناء عن الآباء وتتوارثه الاجيال عن الاجيال ٠ وها هي ذي الاهازيج الريفية الموروثة تستوقف بسحرها حتى اولئك الذين ازالوا كل اثر من ازياء الحيـاة الماضية ومظاهرها فانهم لا يستطيعون التخلص من التأثر بموال بسيط يترنم به زارع في حقله أو عامل في مصنعه في نغم حلو وقواف متجانسة ٠

لقد غشيت أرضنا وبلادنا امواج دخيلة من فن أجنبي غريب ٠ وقـد تسللت الى أجوائنا وأوساطنا في أطار جذاب من الالوان المدنية الحديثة في سحرها الذي لا يجحد وتأثيرها الذي لا ينكر ٠ واستطاعت هذه الالوان الموسيقية الغربية عنا ان تجد لها مجالا وميدانا ومستقبلين ٠ ولـكنها لم تستطع ان تنسج ستارا يحجب فننا الاصيل ٠

ومن خداع العناوين التي وجدت انصارا ودعاة ومرددين اطلاق كلمة « الموسيقى العالمية » على نوع واحد من الموسيقى هو الموسيقى الغربية ٠ والذي جعلهم يقبلون هذا الزيف قضية « مسلمة » هو صـدورها في امم قوية بالامكانيات الضخمة وتمتلك من أدوات الاعلام والاغراء والتلوين ما تنشرها به على أوسع نطاق وارفع مستوى ٠

ورأينا ان « العالمية » في هذه الصورة وامام هذا الايضـــاح تحمل في طياتها كثيرا من الزيف فموسيقانا العربية في ماضيهـــا الزاهر وفي كثرة شعوبها وفي قرونها المديدة كانت عالمية اسعدت الملايين من البشر وانتقلت الى غيرهم حتى بآلاتها ومسمياتها وموسيقانا هذه قد جمعت على نحو ماالمعنا اليه جميع موروثات الامم الشرقية في عصورنا القديمة والوسطى ولم تدع من بستانها زهرة الا انتظمتها وقدمت منها لشعوبها اجمل الالوان ٠ فهي عالمية بتاريخها المجيد وبثروتها الضافية وبالملايين التى ماتزال حتى اليوم تستمتع بها في الوطن العربي وفي خارجه ٠

والموسيقى في جملتها تراث الانسانية جمعاء يتمتع بها جميع الناس كل على قدر حظه من الثقافة ونصيبه من الادراك ومن ظروف الحياة ٠

ولا شك ان الفن الغربي قد بلغ في امكانياته ونضجه وتطـوره في اساليب التأليف وطرائق الاداء مبلغ الذروة الفنية بفضل ما اتيح له مـن عبقريات متعاقبة في اقطار عديدة وفي قرن بعد قرن وجيل بعد جيل ٠ فليس ما يمنعنا من ان نتذوق منه كل جيد طريف وان ننتفع به بالقـدر الذى لايفسد علينا طابع فننا العـربي وشـأننا في الموسيقى شـأننا فى الاستمتاع والانتفاع بالادب الغربي وبما فيه من روائع القصص والشـعر وغيرهما ٠

واعتقد ان الاستمتاع والانتفاع بالموسيقى الغربية لايقلل بحال من اقبال الجماهير في وطننا الكبير ومن مختلف شعوب الشرق على موسيقانا العربية التى يحس بها المواطن فى دمه وكيانه وهى الى جانب لغته تشكل عاملا من اكبر عوامل القومية العربية ٠ وهذا يضاعف واجباتنا نحو انهاضها وجمع المشتت من تراثها والمتفرق من ثروتها في مختلف اقطارها ٠ وعلينا اذن بعد ان تجلى لنا بوضوح تقييمموسيقانا ان نضاعف الجهد للبناء لكي نعوض فترات التخلف والضعف او بالاحرى فترات ما خلفهالاستعمار من ركود ٠

من اجل هذا عنيت الجامعة العربية ودولها بعقد المؤتمراتوالندوات للبحث في شؤون الموسيقى العربية ودراسة مشكلاتها واستعراض العلل وعوامل التخلف التى انتابتها في القرون الماضية ٠

وقد عقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ اول مؤتمر للموسيقى العربية اشتركت فيه فرق عربية مصرية وسورية ولبنانية وعراقية وجزائرية ومغربية وتونسية ٠ ودعى اليه طائفة من اعلام الموسيقى واكبر علمائها في الشرق والغرب ٠ وتالفت منهم سبع لجان فنية عالجت كل منها المسائل التي كانت في اختصاصها ٠ وهذه اللجان السبع هي :

(١) لجنة المسائل العامة ٠
(٢) لجنة المقامات والايقاع والتاليف
(٣) لجنة السلم الموسيقي
(٤) لجنة الآلات ٠
(٥) لجنة التسجيل ٠
(٦) لجنة التعليم الموسيقي
(٧) لجنة تاريخ الموسيقى والمخطوطات

واستعرضت هيئة المؤتمر مجتمعة التقارير العامة التي قدمتها كلمن هذه اللجان واتخذت في شأنها قرارات وتوصيات ضمنتها كتابا ضخماباللغة العربية وموجزا له وآخر باللغة الفرنسية وموجزا له ٠ كما تم تسجيل ١٧٥ اسطوانة ذات وجهين من الفرق الموسيقية المختلفة التي اشتركت في المؤتمر والتي سبقت الاشارة اليها ٠

وسارت الاقطار العربية في الطريق الذي رسمه ذلك المؤتمر مترسمة ما اشار به من قرارات وتوصيات ٠ واطرد تقدم الموسيقى العربية في تلك الاقطار عاما بعد عام وان تفاوت في ذلك بعضها عن بعض تبعا لظروف كل قطر وامكانياته ٠

ثم عقدت الجمهورية العربية المتحدة بناء على توصية لجنة الموسيقى بالمجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية عقدت حلقتين اولاهما عام ١٩٥٧ والثانية عام ١٩٦٢ لمتابعة النظر فى شؤون الموسيقى العربية والنهوض بها ربما يتفق والانطلاقة الثورية التى عمت البلاد في جميع مرافق

الحياة • وقد صدر كتاب خاص بقرارات وتوصيات كل من الحلقتين المذكورتين •

ولقد اتجهت الامانة العامة لجامعة الدول العربية الى العناية بالموسيقى منذ عام ١٩٥٥ حين توافر لادارة الشؤون الاجتماعية والعمل بها تدعيم جهازها بانتداب خبير لها في شؤون الموسيقى وقد وضع تقريرا عن الموسيقى والثقافة الفنية في العالم العربي طبعته الادارة المذكورة ووزعته على الدول العربية ليكون اساسا لدراساتها في تلك الناحية • واذ وقع هذا التقرير من تلك الدول العربية موقعا حسنا ولقيت زيارات الخبير لتلك الدول بعد ذلك كل تأييد وتشجيع فقد دفع هذا التشجيع من تلك الدول الى التفكير في عقد مؤتمر ثان للموسيقى العربية تتابع به خطوات المؤتمر الاول •

ودعت الامانة العامة للجامعة الى عقد اجتماع اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر الثاني بالقاهرة اواخر فبراير عام ١٩٦٤ • وقد انتهت في هذه اللجنة الى وضع مشروع مفصل بجدول اعمال هذا المؤتمر • واقترحت اللجنة عقده عام ١٩٦٥ في احدى الدول العربية • وقد ابلغ مشروع الجدول الى الدول الاعضاء بالجامعة ورحبت كل من الجمهوريتين التونسية والعراقية بعقد هذا المؤتمر فيها عام ١٩٦٥ •

واخيرا عقد بمدينة تونس في اغسطس الماضي مؤتمرا لمهرجان الغناء الاندلسي توفر على البحث في التراث الغنائي القديم الذي مايزال باقيا في بلاد المغرب العربي : تونس والجزائر والمملكة المغربية والمملكة الليبية • واشتركت فيه وفود وفرق موسيقية من تلك الاقطار بغية الوصول الى موازنة ومقارنة بين ماهو مستعمل في كل من هذه الاقطار من هذا التراث العربي الاصيل والعمل على ضبط تركيب المقامات وطرائق الايقاع ونصوص تلك الاغاني • وقد رأس هذا المؤتمر خبير الجامعة العربية في شؤون الموسيقى بوصفه مندوبا لها •

وها هي ذي الجمهورية العراقية تقيم ببغداد في اواخر شهر نوفمبر سنة ١٩٦٤ مؤتمرا دوليا للموسيقى اسهاما منها في النهوض بذلك الفن الرفيع في النهضة العربية المعاصرة بعد ان اسهمت في العصور التاريخية السالفة بأوفر نصيب في اعلاء شأن هذا الفن وادراك تأثيره الحضاري في الحياة الانسانية •

---

(١) العود معناه الخشب وقد انتقل اللفظ العربي أو اشتقاقه الى جميع اللغات الاوربية وحسبنا ان نسجل هنا أسماء في اللغات الآتية : الاسبانية (laud) البرتغالية (alaude) الانجليزية (lute) الفرنسية (luth) الايطالية (linto) الالمانية (alauta) الدينماركية (lut) السويدية (luta) الروسية (ljutnja) البولونية (lutnia) الفنلندية (luutu) الصربية (lutnja) المجرية (lant) الرومانية (laute) وهكذا •

الطريقة السهروردية

عباس العزاوي

ظهرت في القرن السادس الهجري مواهب عظيمة متأثرة في الدين الاسلامي وتجلت في مختلف الثقافات المقبولة في الاصلاح ، وأكثر ما امتاز به أرباب هذه المواهب الزهد والتقوى ، فأسسوا طرقا دينية عديدة تهدف الى الخير ، ونالوا مكانة مقبولة بين الأنام ومن أشهر هذه الطرق (الطريقةالسهروردية) • كانت قدوة صالحة وأمثولة مرغوبا فيها ، ومقتدى بها • ظهر فيها أكابر مشاهير ، نالت بهم شهرة ، وذاع صيتها ، وشاعت في الأقطار العربية والاسلامية ، وأول موسس لها :

١ ــ الشيخ أبو النجيب السهروردي :

هو العالم الزاهد نجيب الدين (ضياء الدين) عبدالقاهر بن عبدالله بن محمد بن عمويه من ذرية الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان من أساتذة المدرسة النظامية ، وموسس (المدرسة النجيبية) على نهر دجلة وفيها رباطه أيضا ، فجمعت بين العلم والعبادة والعمل الصالح لخير الناس معا ، فلم ينفك عن هذه بوجه • وتقع اليوم هذه المدرسة وذاك الرباط تجاه النادي العسكري في بغداد بجانب الرصافة المطل على نهر دجلة • ان مدرسة السليمانية ، وجامع النعماني ، وكذا المدرسة الاعدادية المركزية للبنين ، وبناية مديرية أوقاف منطقة بغداد ، ومحل مديريتي الامتحانات والبعثات كل هذه متصلة بها وفي الاصل مأخوذة منها • وكانت مدرسة عظيمة الشأن ، لها مكانتها • ورباطه محل الزهاد والمتعبدين • أخذ عنه التصوف جماعة من أهل الزهد في العراق وخارجه • ولا تزال المدرسة والرباط موجودين • الا أنهما في حالة يرثى لها •

ولد المترجم في صفر سنة ٤٩٠ هـ ــ ١٠٩٧ م بسهرورد بلدة قريبة من زنجان • وتوفي في بغداد يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ ــ ١١٦٨م ودفن في رباطه • وما ذكر في بعض المصادر من أنه دفن في الجانب الغربي فهذا غلط محض •

ومن تآليفه في التصوف :

١ ـ آداب المريدين في التصوف والاخلاق : منه نسخة في استنبول في خزانة السلطان احمد الثالث كتبت بخط نفيس سنة ٨٦٣ هـ . كما توجد نسخة منه كتبت سنة ١١٠٢ هـ في خزانة الاوقاف العامة ببغداد ضمن مجموعة(١).

٢ ـ رسالة عين العلم : في خزانتي مخطوطة منها كما توجد نسخة أخرى ضمن مجموعة عليها تعليقات وهوامش عديدة في خزانتي ايضا .

٣ ـ مجموع في فضائل الامام الشافعي(٢).

ومن اهم المصادر في حياته :

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج٤ ص ٢٥٦ـ٢٥٧ .

(٢) جامع الانوار في مناقب الابرار : تأليف مرتضى آل نظمي البغدادي المتوفى سنة ١١٣٦ هـ ـ ١٧٢٣م نقله الى العربية من التركية الشيخ عيسى صفاء الدين البندنيجي المتوفى ببغداد في ١٧ رجب سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦م ص ٤٨٧ و٤٩٢ وسماه (تراجم الوجوه والاعيان المدفونين في بغداد وما يليها من البلدان) ومخطوطته في خزانتي منها نسختان .

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ج١ ص ٤٢٣ و٤٢٤ طبعة سنة ١٢٧٥ هـ بمصر .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج٩ ص ٩٨ مطبعة الاستقامة بالقاهرة وورد فيه أنه الشهرزوري وهذا غلط طبع .

(٥) العبر في خبر من غبر لمؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي ج٤ ص ١٨١من سلسلة التراث العربي التي تصدرها وزارة الارشاد والانباء في الكويت تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . طبع في الكويت سنة ١٩٦٣م .

(٦) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص ١٨٨ مطبعة العاني بغداد .

(٧) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج٤ ص ٢٠٨ و٢٠٩ .

(٨) هدية العارفين تأليف الاستاذ اسماعيل باشا البغدادي ص ٦٠٦ ٦٠٧ .

(٩) الاعلام للاستاذ خير الدين الزركلي الطبعة الثانية ج٤ ص ١٧٤ .

(١٠) المساجد والمدارس في بغداد لا يزال مخطوطا لصاحب المقال .

٢ ـ الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي :

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي الشافعي

الصوفي • ولد بسهرورد في رجب سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤م • وطالت حياته الطيبة في الزهد والتقوى وحب العلم ومتابعة الشرع الشريف والسنة النبوية وعمل الخير ، والدعوة له ونال مكانة مقبولة من قلوب الناس • صحب عمه الشيخ أبا النجيب وأخذ عنه الوعظ والطريقة في التصوف والحديث والفقه فهو مريده وتلميذه المتخرج عليه ، كما أخذ عن الشيخ عبدالقادر الكيلاني وصحبه مدة • وكان فقيها في مذهب الشافعي ومتكلماً فعدل عن علم الكلام بعد أن نهاه عنه عمه • وأصبح من أكابر العلماء •

اشتهر بالوعظ وأحبه الناس من أجله وكثيرا ما بهرهم بوجدياته ، ويحكون عنه غرائب مما كان يطرأ عليه من أحوال تواجد • وكان قد وعظ بـ (باب بدر) ، وبـ (مدرسة عمه أبي النجيب) وتولى عدة ربط للصوفية منها رباط الزوزني ورباط المأمونية وبنى له الخليفة الناصر لدين الله رباطا بالمرزبانية على نهر عيسى • وتم في ذي القعدة سنة ٥٩٩ هـ - ١٢٠٣م فسكنه جماعة من الصوفية وأجرى لهم ما يحتاجون اليه • وأنفذه الخليفة رسولا الى عدة جهات ، وكان الملوك الذين يرد عليهم يبالغون في اكرامه وتعظيمه واحترامه • اعتقدوا فيه الصلاح وتبركوا فيه • وكان يلقب بـ (شيخ الشيوخ) •

تمكنت هذه الطريقة في بغداد من جهة أنها لم تركن الى الزهد والعبادة وحدهما • وانما مالت الى العمل الصالح لخير الناس ، فولدت نشاطا في اربابها وتشويقا للنفع العام • وانتشرت في العراق وعلى الاخص في ربوع الكرد كما انتشرت في الديار العربية والاسلامية أيام الخليفة الناصر لدين الله حيث نالت رعاية وعناية ، وذاعت في بلاد الترك ، وأرجاء ايران ، وانحاء الهند ، وشاعت شيوعا عاما •

ولا شك في أن الشيخ عمر السهروردي بعد السنين الطوال اختار له (خطوة الفتوة) وتلخص في العمل الصالح بمراعاة النفع العام • و (خير الناس من ينفع الناس) • اتخذ سلوكه طريقة فلقيت القبول الحسن وشاعت في زمانه فعرفت بـ (السهروردية) ، ونالت حرمة في النفوس ، ومكانة مقبولة ، وكتب لها النجاح •

الآخذون عنه :

تخرج على الشيخ عمر السهروردي خلق كثير من الاكابر منهم :

١ - الشيخ كمال الدين أبو بكر مدني بن صديق بن محمود المرجي الفقيه مرتب الشافعية بالمستنصرية(٣) •

٢ - الشيخ حميد الناكوزي •

٣ - الشيخ بهاء الدين زكريا الملطاني •

٤ ـ الشيخ تاج الدين أبو طالب على بن أنجب بن عثمان البغدادى المعروف بـ (ابن الساعى) موءرخ العراق ، ولد سنة ٥٩٣ هـ ـ ١١٩٦م وتوفى سنة ٦٧٤ هـ ـ ١٢٧٤م • وكان قد أخذ عنه الطريقة ولبس الخرقة سنة ٦٠٨ هـ ـ ١٢١١م(٤).

٥ ـ الشيخ رشيد الدين أبو عبدالله محمد ابن الشيخ الزاهد نجيب الدين عبدالله بن عمر بن أبى القاسم البغدادى السلامى الحنبلى •

وهو آخر من أخذ الطريقة عن الشيخ شهاب الدين عمر السهروردى ولبس منه الخرقة • كتب الخط المنسوب ، وتولى مشيخة رباط الارجوانية ، وولى مشيخة المستنصرية • مولده ببغداد فى ليلة الثلاثاء ٢٣ ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ ـ ١٢٢٦م وتوفى بها يوم الاربعاء ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٠٧ هـ ـ ١٣٠٨م(٥).

هذا • وفى كتاب منتخب المختار جملة من العلماء أخذوا عنه • وفيه تراجمهم •

وفاته :

توفى الشيخ شهاب الدين عمر السهروردى فى مستهل المحرم سنة ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٤م ودفن من الغد بالوردية على جادة سور الظفرية حيث شيدت له تربة لاتزال معروفة ويزار مرقده ، ويتبرك به فى أيام مخصوصة ، ولم يخلف شيئا من عروض الدنيا بعد أن حصل له منها الشىء الكثير فاخرجه جميعه ، لانه كان كريم النفس ، مهيب الشكل ، طيب الاخلاق كثير العبادة • وتربته عليها (ميل) غريب البناية أشبه بتربة السيدة زبيدة الجوينية بنت ابن الخليفة الامير أحمد ابن الخليفة المستعصم بالله.

وهذا الميل بناه الوزير غياث الدين محمد بن فضل الله رشيد الدين وزير المغول أيضا سنة ٧٣٥ هـ ـ ١٣٣٤م كما تنطق الكتابات الاثرية بذلك ولا يزال قائما يشهد بالعظمة • وتصوير التربة والميل فى المجلد الثالث من تاريخ العراق بين احتلالين •

موءلفاته :

ان موءلفات الشيخ عمر السهروردى جاءت خير موضح عن طريقته منذ تكوينها وهى كثيرة منها :

١ ـ أدلة العيان والبرهان : رسالة فى التصوف ، أولها : الحمد لله الذى بعث محمدا لاعلاء كلمته ••• منه نسخة ضمن مجموعة فى الحكمة فى خزانة الحميدية من خزائن السليمانية فى استنبول باسم (أدلة الايام والبرهان) وبرقم ١٤٤٧ • وهى من ورقة ١٣١ الى ورقة ١٥٠

٢ ـ ارشاد المريدين واتحاد الطالبين ٠
٣ ـ أسئلة سئل عنها (المترجم) وأجوبته عليها ٠
٤ ـ **الأسماء الأربعون (الأسماء الادريسية في الأوراد)** : منها نسخة في خزانة الأوقاف العامة ببغداد ضمن مجموعة(٦)٠
٥ ـ أعلام الهدى وعقيدة ارباب التقى : منها نسخة ضمن مجموعة في خزانة الاوقاف العامة ببغداد(٧)٠
٦ ـ بهجة الأبرار في المناقب الغوثية ٠
٧ ـ جذب القلوب الى مواصلة المحبوب : طبع بمطبعة البهاء في حلب سنة ١٣٢٨ هـ٠
٨ ـ رسالة السير والطير : منها نسخة ضمن مجموعة في خزانة الاوقاف العامة ببغداد(٨)٠
٩ ـ رسالة في السلوك ٠
١٠ ـ الرسالة العاصمية : ذكر فيها ما شاهده في مسيره الى ما وراء النهر ٠
١١ و١٢ ـ رسالتان باللغة الفارسية : فيهما ما يكشف عن هذه الطريقة والعمل بها والتوجيه للنفع العام والمصلحة العامة ٠ وهذا ما زاد به على طريقة عمه فانكشفت وتوضحت كثيرا ٠ كتبهما برسم خزانة الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٠
١٣ ـ رشف النصائح الايمانية وكشف الفضائح اليونانية : رد به على الفلسفة المادية اليونانية ، نسخة منه في خزانة رئيس الكتاب باستنبول برقم ٤٦٥ كتبت برسم خزانة أبي العباس احمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين ٠٠٠ كما تشير الى ذلك الصفحة الاولى المصورة في اللوح رقم ٤٢ من (الكتاب العربي المخطوط الى القرن العاشر الهجري) من مطبوعات جامعة الدول العربية ٠ القاهرة سنة ١٩٦٠م الجزء الاول ـ النماذج ـ جمعها وعلق عليها الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات العربية سابقا ٠ وقد جاء في الصفحة الاولى (تصنيف الشيخ الاجل العالم الاوحد الفاضل الكامل العارف الزاهد شهاب الدين انموذج السلف الصالحين أبي حفص عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي أبقاه الله تعالى طويلا) ٠ وهو شيخ الطريقة السهروردية في بغداد ٠ وقد التبس الامر على الدكتور الفاضل فجعله للسهروردي المقتول سنة ٦٣٢ هـ والحال ان السهروردي المقتول قتل في حلب سنة ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م ، وهو شهاب الدين يحيى بن محمد ابن حبش بن اميرك(٩) من غلاة التصوف٠ وتوجد نسخة من هذا الكتاب في خزانة مخطوطات المتحف العراقي ببغداد من كتب الاب انستاس ماري الكرملي ٠ وترجمه الى الفارسية معين الدين اليزدي ٠

١٤ـ زاد المسافر وأدب الحاضر : منه نسخة كتبت سنة ٧٣٩ هـ في خزانة كوبريلي باستنبول كما توجد نسخة منه في خزانة السلطان احمد الثالث كتبت سنة ٨٦٢ هـ بخط نسخ نفيس(١٠)

١٥ـ عوارف المعارف : تتجلى بحوثه في شرح الصوفية وماهية التصوف ومكانته ، واخلاق الصوفية ، ورتبة المشيخة ، وآداب المريدين مع الشيخ ، وما يعتمده الشيخ مع الاصحاب والتلاميذ، والصحبة والاخوة في الله الى آخر ما هنالك من مطالب مهمة ومنه نعلم درجة تعلق الرجل بالدين مع زهد وتقوى ، والكتاب من أوائل مدوناته ، ولا تنقطع الطريقة السهروردية مادام هذا الكتاب موجودا ، حيث نال شهرة كبيرة ، واصبح من مراجعها المهمة ٠ طبع بمصر في جزءين سنة ١٣٩٤ هـ كما طبع بهامش احياء علوم الدين للغزالى سنة ١٢٩٦ هـ ٠ ونقله الى الفارسية ظهيرالدين عبدالرحمن الشيرازى المتوفى سنة ٧١٦هـ ـ ١٣١٦م ٠

١٦ـ نغبة البيان في تفسير القرآن : منها نسخة في خزانة بشير أغا باستنبول برقم ٢٤ وعليها اجازة بخط مؤلفها ٠

١٧ـ وصية الشيخ : في خزانتي مجموعة بخط الشيخ عبدالمحسن السهروردي جاء فيها : هذه وصية أحفظها منتخبة من وصية الشيخ شهاب الدين السهروردي وفي المجموعة تعاليم في التصوف وآدابه ، كما توجد نسخة مخطوطة منها ضمن مجموعة في خزانة الاوقاف العامة ببغداد ونسخ في خزانة الازهر(١١) ٠ وفي استنبول منها نسخة في خزانة كوبريلي برقم ١٥٩٨ ضمن مجموعة وقد نقلتها من هذه المجموعة في ٢٤ تموز سنة ١٩٦٤م وقابلتها على نسخة اخرى ضمن مجموعة في الخزانة المذكورة برقم ٣٢٩ وهي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا بني أوصيك بتقوى الله وخشيته ، ولزوم حق الله تعالى ، وحق رسوله صلى الله عليه وسلم وحق والديك وحق المشايخ أجمعين ، فالله تعالى يرضى عنك ، واحفظ الله في السر والعلانية ولا تدع قراءة القرآن ظاهرا وباطنا سرا وعلانية بالفهم والتدبر والحزن والبكاء ، وارجع الى القرآن في جميع الاحكام ، فان القرآن حجة الله على خلقه ، واحفظ حقه ، ولا تعدل عن العلم خطوة ، وتعلم العلم ، ولا تكن من جهال الصوفية ، (وأهل الغواية منهم (١٢)) ٠ وقراء الاسواق فانهم لصوص الدين وقطاع الطرق على المسلمين ٠ وعليك بالسنة ، واعتقاد أهل التوحيد واجتناب المحدثات، فان كل محدثة ضلالة ، ولا تصحب الاحداث والنسوان ، والمبتدعة ، والاغنياء والعوام ، فانه يذهب دينك ، واقنع من الدنيا ببيت ، والزم الخلوة ، وابك

على خطيئتك وكل الحلال فانه مفتاح الخيرات ، ولا تمس الحرام فتمسك النار يوم القيامة ، والبس الحلال تجد حلاوة الايمان والعبادة ، وكن من الله تعالى على وجل ، ولا تنس موقفك بين يدي الله ، واكثر من صلاة الليل وصيام النهار ، ولا تتخلف الجماعة من أن تكون اماما او مؤذنا ولا تطلب الرئاسة لن تفلح ابدا ولا توقع في الضالة شهادة ، ولا تحضر مجالس القضاة والسلاطين ، ولا تدخل في الوصايا ، وفر عن الناس كما تفر من الاسد ، وعليك بالخلوة حتى لايذهب دينك ، وعليك بالسفر لتذل نفسك ، فان النبي عليه الصلاة والسلام قال : (سافروا تغنموا) ، واحفظ قلوب المشايخ ولا تغتر بقول من يمدحك ولا تغتم بقول من يذمك وليكن[١٣] المدح والذم عندك سواء ، وحسن خلق مع الخلق اجمع ، والزم التواضع فان النبي عليه الصلاة والسلام قال : (من تواضع رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله) ،وعليك بالادب في جميع الاحوال مع كل بر وفاجر ، وارحم جميع الخلائق صغيرهم وكبيرهم ، ولا تنظر اليهم الا بعين الرحمة ، ولا تضحك فان الضحك من الغفلة وهو يميت القلب قال : عليه السلام ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا • ولا تأمن مكر الله ولا تقنط من رحمة الله وعش بين الخوف والرجاء •

يا بني اترك الدنيا فان في طلبها ذهاب دينك ، وعليك بالصوم والصلاة وكن في الفقر نظيفا عفيفا ، حنيفا متأدبا متورعا فقيها ، عالما نائيا عن (جهال الصوفية) خادما للمشايخ بالمال والبدن والجاه ، واحفظ قلوبهم وسيرتهم ولا تنكر عليهم شيئا الا ما خالف الجماعة فانك ان أنكرت لن تفلح أبدا ، ولا تسأل الناس شيئا ولا تعارضهم • ولا تدخر شيئا لغد فان الله يأتي برزق مقسوم ، وكن سخي النفس والقلب باذلا ما رزقك الله واياك والبخل والحسد ، والغل ، والغش ، فان البخيل والحسود في النار ، ولا تظهر حالك للخلق في جميع الاحوال ولا تزين الظاهر ، فان تزيين الظاهر من خراب السر ، وثق بمواعد الله في أمر الرزق فان الله تعالى قد تكفل برزق كل حيوان • قال الله تعالى : (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها[١٤]) ، واياس[١٥] من جميع الخلائق ولا تأنس بهم ، وقل الحق ولا تركن الى أحد من المخلوقين ، فان الحق يطردك من بابه ، وعليك بمحاجة نفسك ، فان النبي عليه الصلاة والسلام يقول : (من حسن اسلام المرء تركه ما لايعنيه) ، وكن ناصحا للخلق أجمع بأحوالهم ، وقلل من الطعام والشراب والكلام والنوم ولا تأكل الا عن فاقة ، ولا تتكلم الا عن ضرورة ، ولا تنم الا عن غلبة النوم ، واكثر من صلاة الليل ، وصم النهار ولا تكثر الجلوس في السماع فانه ينبت النفاق ثم يميت القلب ، ولا تنكره فان له أربابا • والسماع لا يصلح الا عن قلب حي ونفس ميتة فمن كان على غير هذه الحالة فاشتغاله بالصوم والصلاة والاوراد أولى ، وليكن قلبك حزينا بذلك عليلا وعينك دامعة ، وعملك خالصا ، ودعاؤك حمدا وثيابك خلقانا ، ورفقاؤك

فقراء ، وبيتك مسجدا ومالك فقها ، وزينتك زهدا ومؤنسك ربا كريما ، ولا تواخ أحدا حتى يتبين لك منه خمس خصال يختار الفقر على الغنى(١٧)، والآخرة على الدنيا ، والذل على العز ، ويكون بصيرا بعمل السر والعلانية ويكون مستعدا للموت ·

يا بني لاتغرك الدنيا وزهراتها ، وان الدنيا خضرة نضرة حلوة ،من تعلق بها تعلقت(١٨) به ، ومن رفضها رفضته وأنه لاسبيل لبقائها ، وكن بالليل والنهار مستعدا للارتحال مائلا الى الآخرة ·

يا بني عليك بالخلوة وكن فريدا وحيدا بتفكر القلب من خوف الله تعالى تغرق في كرامات الله تعالى ، وعش في الدنيا كأنك غريب واخرج(١٩) منها كما دخلتها فانك لاتدري ما اسمك غدا يوم القيامة ، رزقنا الله عافية من الوصية وعصمنا(١٩) عن خلافها · » تمت ·

الخليفة الناصر لدين الله والسهروردية :

ان الخليفة الناصر لدين الله كانت علاقته بالتصوف كبيرة · وهو الذى وجه (الفتوة) توجيها صالحا مستغلا وضعه السياسي ، وميل الناس اليها فأيدها وأكبر شأنها ونظمها ، وكانت تعاليمها تؤخذ عنه وصارت طريقة لها رسومها وظن فيها من القوة والتأثير في اعادة ملك آبائه واسترداده من المتغلبة فلم يفلح · وكثير من العلماء عارضوا أمرها ونقدوا الخليفة على فعلته هذه · قال ابن الاثير :

« وجعل ــ الخليفة الناصر ــ همه رمي البندق ، والطيور المناسيب ، وسراويلات الفتوة ، (فأبطل) الفتوة في البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه (بها) ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ، ومنع الرمي بالبندق الا من ينتمي اليه ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك الا انسانا يقال له ابن السفت(٢٠) من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من أعجب الامور(٢١) · » ١هـ

وقال الصلاح الصفدي ان ابن السفت خالفه سنة ٦٠٤هـ (٢٢) ــ ١٢٠٧ م ·

قال مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي في حوادث سنة ٥٧٨هـ ما نصه :

« وفيها لبس لباس الفتوة الناصرلدين الله من شيخ الفتوة عبدالجبار، ولهج بذلك وبقي يلبس الملوك · وانما كمال المروة ترك لبس الفتوة(٢٣) ·»

وقال في حوادث سنة ٥٨٣هـ ــ ١١٨٨م ما نصه :

« وفيها توفي عبدالجبار بن يوسف البغدادي شيخ الفتوة وحامل لوائها · وكان قد علا شأنه يكون الخليفة الناصر تفتى اليه · توفي حاجا بمكة(٢٤) » ·

٦ ـ تراجم الوجوه والاعيان المدفونين ببغداد للشيخ عيسى صفاء الدين البندنيجي مخطوط في خزانتي نسختان منه ٠

٧ ـ نفحات الأنس بالفارسية لملا جامي مخطوط في خزانتي

٨ ـ شذرات الذهب ج٥ ص١٥٣ ـ ١٥٤ ٠

٩ ـ تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٦١ ـ ١٦٣ ٠

١٠ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ج١ ص٧٨٥ ـ ٧٨٦ ٠

١١ـ تاريخ علماء المستنصرية للاستاذ ناجي معروف ٠

١٢ـ الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ٠

١٣ـ العبر في خبر من غبر طبعة الكويت٠

١٤ـ الاعلام للاستاذ خيرالدين الزركلي الطبعة الثانية ج٥ ص٢٢٣ ٠

١٥ـ تاريخ الادب العربي في العراق لكاتب المقال ٠

١٦ـ منتخب المختار ٠ تحقيق كاتب المقال ٠

١٧ـ تاريخ العراق بين احتلالين ج١ ص٥١٤ لكاتب المقال ٠

١٨ـ تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ الملحق ص٢٧ ـ ٢٩ لكاتب المقال ٠

١٩ـ المساجد والمدارس في بغداد ـ مخطوط لكاتب المقال ٠

٢٠ـ الكاكائية في التاريخ طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة سنة ١٩٤٩ لكاتب المقال ٠

٢١ـ التعريف بالمؤرخين ج١ طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة سنة ١٩٥٧م لكاتب المقال ٠

---

(١) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص ١٣٢ المطبوع ببغداد بمطبعة العاني سنة ١٩٥٣ تأليف الدكتور الأستاذ محمد أسعد طلس ٠

(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص ١٨٨ المطبوع ببغداد سنة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م مطبعة العاني ٠

(٣) تاريخ علماء المستنصرية تأليف الاستاذ ناجي معروف عميد كلية الآداب بجامعة بغداد ، طبع بمطبعة العاني سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م ص ١٨٢ ٠ نفد وأعده لطبعة ثانية في مجلدين أوشك المجلد الاول أن يتم ٠

(٤) التعريف بالمؤرخين ج ١ ص ٩٠ ـ ٩٥ المطبوع سنة ١٩٥٧م ، وتاريخ الادب العربي في العراق ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٤ و٢٥٤ و٢٥٥ من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦١ وهدية العارفين ج ١ ص ٧١٢ و٧١٣ ٠

وذكر له من المؤلفات :

١ ـ اخبار الربط والمدارس : منه نسخة ضمن مجموعة في خزانة برلين (فهرس خزانة برلين ج ١ ص ٥٣ المطبوع سنة ١٨٨٧م عدد ١٤٦) ٠

٢ ـ المقابر المشهورة والمشاهد المزورة ٠ في مجلد ٠

٣ ـ أخبار الزهاد ومناقب الأولياء والأفراد : وهذا آخر مصنفاته الكثيرة صنفه بعد أن صحب الزهاد والمشايخ ولازمهم مدة طويلة · وقد وجد عليه بخط زكي الدين عبدالله بن حبيب الخطاط الكاتب :

ما زال تاج الدين طول المدى من عمره يعنق في السير
في طلب العلم وتدوينه وفعله نفع بلا ضير
عـلا علـى بتصانيفه وهـذه خاتمـة الخير

(٥) تاريخ الادب العربي في العراق ج ١ ص ٣٥ ومنتخب المختار ص ١٨٣ ـ ١٨٥ · طبع ببغداد سنة ١٩٣٨ بمطبعة الاهالي بمقدمتي وتحقيقي ·

(٧) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص ٢٩٦ ·

(٦) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص ٢٦٧ ·

(٨) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص ٢٩٤ ·

(٩) العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي ج ٤ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد · طبع في الكويت سنة ١٩٦٣م من سلسلة التراث العربي التي تصدرها وزارة الارشاد والأنباء في الكويت ·

(١٠) فهرس المخطوطات المصورة ج ١ ص ١٦٦ تصنيف الاستاذ فؤاد سيد . أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية طبع بالقاهرة بدار الرياض سنة ١٩٥٤م ·

(١١) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص ٢٨٢ وفهرس خزانة الازهر ج ٣ ص ٧٥٧ و٧٥٨ ·

(١٢) وردت في الاصل (وغوايهم) ·

(١٣) وردت في الاصل (ويكون) ·

(١٤) سورة هود آية ٦ ·

(١٥) وردت في المجموعة المرقمة ٣٢٩ وقيس

(١٦) في النسختين ورد (الفنا) والصواب ما ذكرت ·

(١٧) في النسختين وردت (تعلق) وليس بصواب ·

(١٨) في الاصل (وتخرج)

(١٩) في الاصل (ويعصمنا)

(٢٠) ضبطه الحافظ الذهبي في تاريخه الصغير المسمى (المنتخب المستصفى) بضم السين وسكون الفاء ·

(٢١) الكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ١٨١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠هـ وطبعة الاستقامة بالقاهرة ج ٩ ص ٣٦١ ·

(٢٢) الوافي بالوفيات · للصلاح الصفدي ·

(٢٣) العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٢٣٢ للحافظ الذهبي ·

(٢٤) العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٢٤٩ ومثله في الشذرات ج ٤ ص ٢٧٥ ·

(٢٥) العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ١٠٩ من مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد في الكويت ·

الخَوفُ
اسَبابهُ وَانواعهُ

أميمة علي خان

لعل قضية تحديد اصل الخوف ومنشأه من القضايا التي يصعب البت فيها بتاً حاسما من حيث كونها وراثية او مكتسبة . ولكننا نميل الى رأي گزيل القائل : « قد يكون الخوف ميلا اصيلا (في الانسان) ولكنه عرضة للتغير بسبب النمو الجسمي وبسبب التنظيم الذي يحدثه الاقتران البيئي ... ان نوعية الخوف يطرأ عليها تغير كنتيجة للنضج .»(١)

وبكلمة اخرى ، ان كون الخوف ميلا اصيلا وراثيا مسألة احتمال اكثر منها حقيقة يقينية . وفي الحق ، ان هذه المسألة ليست أهم من وظيفة الخوف والنتائج التي تترتب عليه لنا كمشتغلين في حقل التعليم . ويعنينا كثيرا هنا ان نعرف اسباب الخوف اكثر مما يعنينا أصله او كونه وراثيا او مكتسبا .

ولكننا قبل ان نخوض في بحث اسباب الخوف نود ان نعرفه تعريفا يبعدنا عن المسائل الخلافية . فنرى ان تعريف الخوف بأنه حافز على الهرب او الانهزام حتى ولو لم يتحقق سلوك الهرب ظاهريا ربما يكون احسن تعريف . ونزيد على ذلك بان الاختفاء قد يحل محل سلوك الهرب الظاهري ولكن الاختفاء في جوهره هرب من الموقف ولاشك .(٢)

والآن نعود الى بحث اسباب الخوف سائلين ما الذي يسبب الخوف ؟ يرى يونك (Young) ان من بين مسببات الخوف الازعاجات الميكانيكية والاصوات العالية والحركات الفجائية . وهو يرى ايضا ان اثارة الخوف تحدث « عندما يعرف الفرد معرفة ناقصة حول مدرك من المدركات قد يكمن فيه الخطر في موقف معين بحيث لا يفهم ذلك الموقف فهما تاما ليسيطر

عليه ٠ » ويعدد من بين مصادر الخوف السقوط المفاجيء غير المتوقع في الفراغ والمباغتات والشعور بالخطر ٠(٣)

اما كوثري (Guthrie) وباورز (Powers) فقد وجدا ان مخاوف الاطفال بين الخامسة والثانية عشرة تنشأ في الاعم الاغلب من قوى ما فوق الطبيعة ومن الجثث والموت وغرائب الاحداث والهياكل العظمية ٠ ويكثر ذكر الحيوانات والظلام بين اسباب الخوف لدى هؤلاء الاطفال ٠(٤) ومما يعنينا كمشتغلين في التعليم أن نعرف أيضا ان « السخرية والعقاب القاسي والتأكيد اكثر مما ينبغي على الدرجات الامتحانية قد تحدث الخوف والاشاحة(٥) عن التعلم » ٠

غير أن جرسلد يعلق على خوف الاطفال في الظلام بقوله : « ٠٠٠ ان تجربة الشعور بالوحدة عند الطفل التي تتركه اقل قابلية للدفاع غالبا ما تصاحب الظلام ٠ » ولذلك فبامكاننا ان نستنتج ان ما يثير الخوف ليس هو الظلام كظلام وانما ما يصحب ذلك الظلام وهو في الاعم الاغلب الشعور بالوحدة(٦) ٠ وعلى ذلك فبامكاننا ان نعزو الخوف الذي يحدث لدى الطفل في الظلام الى كون الطفل وحيدا ، ان كون الطفل وحيدا قد يعني شيئا آخر للطفل وهو كونه مرفوضا وهذا هو سبب الخوف ٠ وقد وجد جرسلد ايضا ان نسبة كبيرة في الاطفال في سن الرضاعة حتى السادسة تشعر بالخوف من الحيوانات ، وكلما تقدم الطفل في العمر خلال سني الدراسة الابتدائية قل خوفه من الحيوانات ، وكلما تقدم الطفل في العمر خلال سني الدراسة الابتدائية قل خوفه من الحيوانات المألوفة في بيئته وزاد خوفه من الحيوانات البعيدة عنه مثل الذئاب والغوريلا ٠ اما بعد سني الدراسة الابتدائية فيكون الاطفال عرضة للخوف الذي تثيره الاشباح والبعابع والجثث والمخلوقات الخيالية التي تزدحم بها الخرافات ٠(٧)

يتضح مما تقدم اوليا ان سبب الخوف يتغير مع نمو الفرد ٠ وأن سبب الخوف يتوقف الى حد كبير على الاساس الثقافي للفرد ٠ فمن سن الرضاعة حتى سني الدراسة الثانوية تتغير أسباب الخوف من الاشياء الميكانيكية الى الاشياء التي لا وجود لها الا في خيال المراهق أو الصبي ، وان هذه الاسباب تستمد أولا من البيئة المباشرة ثم من البيئة غير المباشرة أو اللاحسية ٠

وعندما يكون الطفل في المدرسة فانه قد تتكون لديه أسباب خوف اخرى مثل خوف الامتحان وخوف الرسوب وخوف الرفض من جانب المعلم وخوف التأخر عن الحضور بالوقت المعين للدرس وخوف الزجر من المدرس والوالدين ٠(٨)

وفي مرحلة المراهقة قد يخاف الطفل من كونه غير مرغوب فيه من الجنس الآخر ٠ وكلما تقدم المراهق في العمر اصبحت مخاوفه اكثر فاكثر لا حسية واقل فاقل حسية ٠ وبامكاننا ان نضيف ان المراهق ما دام قادرا

على ادراك خطر ما صريحا او غامضا فانه عرضة الى الخوف اما في سني الرشد فانه مما يثير مخاوف الفرد فكرة الحرب او تهديد أمنه ولياقته وبالاختصار تهديد بقائه . ويشير الى ذلك شتريكر (Strecker) وايل (Appel) في قولهما ان اسباب الخوف هي « الاذى والفقدان والحرمان وتهديد بقائه . »(٩) او حيثما وجد الخطر وجد الخوف سواء ادرك الخطر جزئيا أم كليا . وبعد ان يشير الى ان الفقدان قد يعني فقدان الصحة أو الحب أو الممتلكات أو الاحترام يعددان أهم المخاوف في الحياة اليومية التي تشمل الخوف من أن يصبح الفرد موضع كراهية او موضع سخرية او موضع تهانف او ان لا يفهم على حقيقته او ان يكون غير مرغوب فيه او موضع تندر او ان يستغل او ان تفرض عليه الامور فرضا او ان يشعر بوحشة الوحدة او ان يفقد حبه او سلطته او امتيازاته . »(١٠)

والآن بعد ان كشفنا اسباب الخوف نود ان نعرف فيما اذا كان الخوف يخدم اي غرض . لاشك ان الخوف لعب دورا كبيرا في تطور الجنس البشري منذ اقدم العصور . انه خدم انسان ما قبل التاريخ ليستمر في البقاء وليكون انسانا تاريخيا . وانه ما يزال يخدم الانسان في اجتناب الاخطار . وكما يقول شتريكر وايل « ... ان غرض الخوف هو ضمان البقاء ... عندما يتعرض البقاء للخطر ... »(١١) .

ولابد في الاشارة هنا الى ان الخوف بالرغم من انه خدم الانسان في بقائه الا انه قد يكون له تأثيرات مؤذية جدا . ولكننا قبل الخوض في هذه التأثيرات نود ان نعرف ما اذا كان للخوف مصاحبات جسمية وما طبيعة هذه المصاحبات .

المصاحبات الجسمية للخوف :

عندما يستشعر الانسان انفعال الخوف فانه في الوقت نفسه تحدث عنده تغيرات جسمية . ان افراز هورمون الادينالين الذي تفرزه الغدتان الادريناليتان الواقعتان فوق الكليتين بزيادة كمية السكر وازدياده في الدم التي يحررهما الكبد هما من مصاحبات الخوف الجسمية والغرض من كليهما سرعة نشاط العضلات . فالخوف يؤثر في تحرير الطاقة التي غالبا ما تخدم غرض الهرب . ولكن الخوف قد يحدث اثرا من قبيل انحطاط النشاط لا اثارته .(١١) وبهذا فانه يشل الانسان الخائف . على ان من أهم آثار الخوف اضطراب الجهاز الهضمي في اداء وظيفته الطبيعية . فالجهاز الهضمي يتوقف عن العمل في حالة الخوف ويتوقف معه افراز العصارات الهضمية . ويلخص كانون (Cannon) المصاحبات الجسمية للخوف بما يأتي :

« ... توقف عمليات الجهاز الهضمي ... وهروب الدم من الاحشاء

الداخلية الى الاعضاء الاساسية بصورة مباشرة لعمـل العضلات وزيادة تقلص القلب وانطلاق مقدار كبـير من كريات الدم الحمر من الطحال والتنفس العميق والتعطيل السريع لاثار التعب العضلي وزيادة الدم في جهاز الدوران ـ ان هذه التغيرات تخدم بصورة مباشرة في جعل الكائن العضوي اقدر على اظهار طاقته التي قد يتضمنها الخوف ٠ (١٢)

على ان الخوف الشديد قد يؤدي الى ظهور احوال جسمية اخرى منها تضخم الغدد الدرقية وازدياد الفعاليات الحيوية وجحوظ العينين وارتجاف الاصابع وفقـدان في الوزن وازدياد معـدل ضربات القلب والتعـرق الكثير ٠٠٠(١٣)

والآن بعد ان استقصينا اسباب الخوف ومصاحباته الجسمية وبعض الآثار التي يتركها الخوف الشديد في نفس الخائف وجسمه يجدر بنا الخوض في انواع الخوف ٠

انواع الخوف :

لعـل من اهم انواع الخوف بالاضافة الى ما تقدم النوع المعروف بالقلق بنوعيه : القلق الاعتيادي والقلق العصابي وكذلك المخاوف الدائمة (Phobias) ٠ فالقلق الاعتيادي في رأي رولومي(١٤) استجابة لما يتهدد قيم الشخص التي يعتبرها اساسية لوجوده كشخصية على ان لا تخرج هذه الاستجابة عما يتطلبه هذا الخطر المحدق الذي يحدث التهديد وعلى ان لا تتضمن كبتا أو أية عملية من عمليات الصراع النفسي وعلى ان لا يستلزم التهديد عمليات دفاع عصابية للسيطرة عليه ولـكنه يمكن ان يوجه على المستوى الشعوري ويمكن الخلاص منه اذا تبـدل الموقف الموضوعي ٠ وبكلمة اخرى فان الانسان السوي قد يصبح قلقا ، ولـكنه عندما يواجه الموقف موضوعيا ويتجنب بعض العمليات النفسية غير الضرورية فان قلقه يكون اعتياديا ٠

هذا هو القلق الاعتيادي ، اما القلق العصابي فيرى رولومي(١٥) انه استجابة لتهديد مضطربة بالنسبة للخطر الموضوعي أولا ، وتتضمن كبتا واشكالا اخرى من الصراع النفسي ثانيا ، وتكون مصحوبة باعراض خاصة وعمليات عصابية مختلفة ثالثا ٠

وكما يؤثر النضج في الخوف كما مر هنا سابقا يؤثر ايضا في حدوث القلق فيشير رولومي(١٦) الى ان الرضيع يحتاج الى نضج عصبي معين لـكي يستجيب بانفعال مشوش (قلق) للمثيرات التي تهدده ، ويحتاج الى نضج اكثر لـكي يستطيع ان يميز بين المثيرات المختلفة وينظر الى الخطر

بصورة موضوعية فيستجيب استجابة الخوف . وبكلمة اخرى يرى رولومي ان الخوف يمر بأنواع مختلفة مع تطور نمو الطفل فيمر اول ما يمر بالنوع المعروف بالحيرة ثم بالقلق ثم ينتهي بالخوف . وهذا لا يعني ان كل قلق يتطور الى خوف وانما المقصود ان الخوف يستلزم نضجا معينا وهذا النضج يتضمن ادراك الخطر قريبا كان ام بعيدا ، كامنا ام فعليا . فالخوف اذن نوع موضوعي خاص من القلق . وبينما يحاول الانسان في حالة الخوف القيام بعمل ما لمواجهة الخطر ، يميل في حالة القلق الى الابتعاد عن العوامل التي تكون الموقف بدلا من تفهمها(١٧) .

وترى كارين هورناي (Karen Horney) (١٨) أن المنافسة قد تؤدي الى القلق ولا سيما حينما تتضمن المنافسة خوف الاخفاق او النجاح ، وهي ترى أيضا انه اذا اعطى للخوف من الخيبة أكثر مما ينبغي فسيضاعف الانسان جهوده ويستميت في محاولته لاجتناب الاخفاق . وعندئذ قد يظهر قلق حاد عنده ...(١٩)

ولعل في الاسئلة التي ترد في هـذا الموضوع هو ما اذا كان للقلق عوامل وراثية ويجيب رولومي(٢٠) عن هـذا السؤال بقوله ان القلـق الاعتيادي تعبير عن قدرة الـكائن العضوي على الاستجابة لما يتهدده ، وهذه القدرة فطرية موروثة ولها استعداد عصبي وظيفي موروث .

اما المخاوف الدائمة (Phobias) فهي انواع من القلق . فمن هـذه المخاوف الخوف من المرتفعات . ففي هـذه الحالات يتحول خطر داخلي (من النفس) من نوع معين الى خوف من خطر خارجي يفترض افتراضا . وعندما يكون المرء تحت سيطرة القلق فقد يقوم بعمليات عدة ليتجنب القلق منها الضحك او الادمان على الخمور أو العمل التسلطي . ويستطيع المرء التخلص من القلق اذا حاول فهم نفسه على حقيقتها وتقبل نفسه الى حد ما ــ وهذه المحاولة تساعده الى حد ما على تحرير نفسه من ميوله ودوافعه البدائية ومن الشعور اللامعقول بالاثم ومن حاجته للعيش في مستوى كاذب ومن الميل لتقريع نفسه وعقوبتها لاخطاء ونواقص تنمو من نزعاته المضطربة غير الواقعية نحو ما ينبغي ان تكون عليه نفسه . وان كل ما يستطيع ان يساعد المرء على فهم طبيعة مخاوفه واصولها يساعده ايضا في التخلص من نتائجها الوخيمة(٢١) .

والآن بعد أن عرفنا اسباب الخوف وانواعه أما يجدر بنا نحـن المشتغلين في حقل تنشئة الجيل الصاعد وتعليمه أن نخفف من حدة بعض المخاوف التي تنشأ من اوضاعنا التعليمية الحاضرة ونستبدلها بروح الثقة المتبادلة بين المدرس وتلامذته ليتيسر تعلم تلامذتنا في جو يسوده روح المودة بدلا من غمائم الخوف ؟ ...

(١) Gessell, *The guidance of mental growth in Infant and child Emotion*. p. 289 quoted in prescott, D.A. (Chairman), *Emotion and the Educative process*. p. 68.

(٢) Edward A. Strecker and K.E. Appel, *Discovering ourselves*, p. 175.

(٣) P.T. Young, *Emotion in Man and Animal*, pp. 384-386.

(٤) Guthrie and Powers, *Educational Psychology*, p. 62.

(٥) المصدر نفسه صفحة (٦٢) .

(٦) A. Jersild, "Emotional Development" in skumer, (Ed.) *Educational psychology*, p. 81.

(٧) المصدر نفسه صفحة (٨٢-٨٣) .

(٨) المصدر نفسه صفحة (٨٣) .

(٩) كتابهما السابق . صفحة (١٧٩) .

(١٠) كتابهما السابق . صفحة (١٨١) .

(١١) كتابهما السابق . صفحة (١٧٩) .

(١١) W.B. Cannon, *Bodily changes in pain, Hanger, Fear, and Rage*, pp. 196-98.

(١٢) المصدر نفسه . صفحة (٢٢٥-٢٢٦) .

(١٣) A.H. Maslow and B. Mittleman. *Principles of Abnormal psychology*, pp. 73-74.

(١٤) Rollo May *The Meaning of Anxiety*, p. 194.

(١٥) المصدر نفسه . صفحة (١٩٥) .

(١٦) المصدر نفسه . صفحة (٢٠٠-٢٠١) .

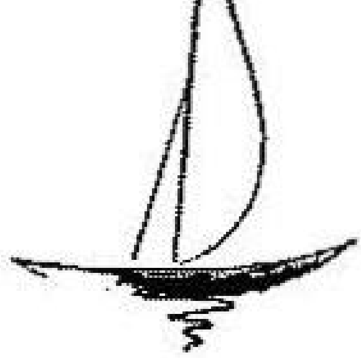
(١٧) Harry S. Sullivan, *Conceptions of Modern psychiatry*.

(١٨) Karen Horney, *Neurosis and Human growth*, p. 220.

(١٩) Karen Horney, *The Neurotic personality of our Time*, p. 212.

(٢٠) مصدره السابق نفسه . صفحة (٢٠٦) .

(٢١) جرسلد . المصدر السابق نفسه . صفحة (٨٥-٩٢) .



لي سمراء

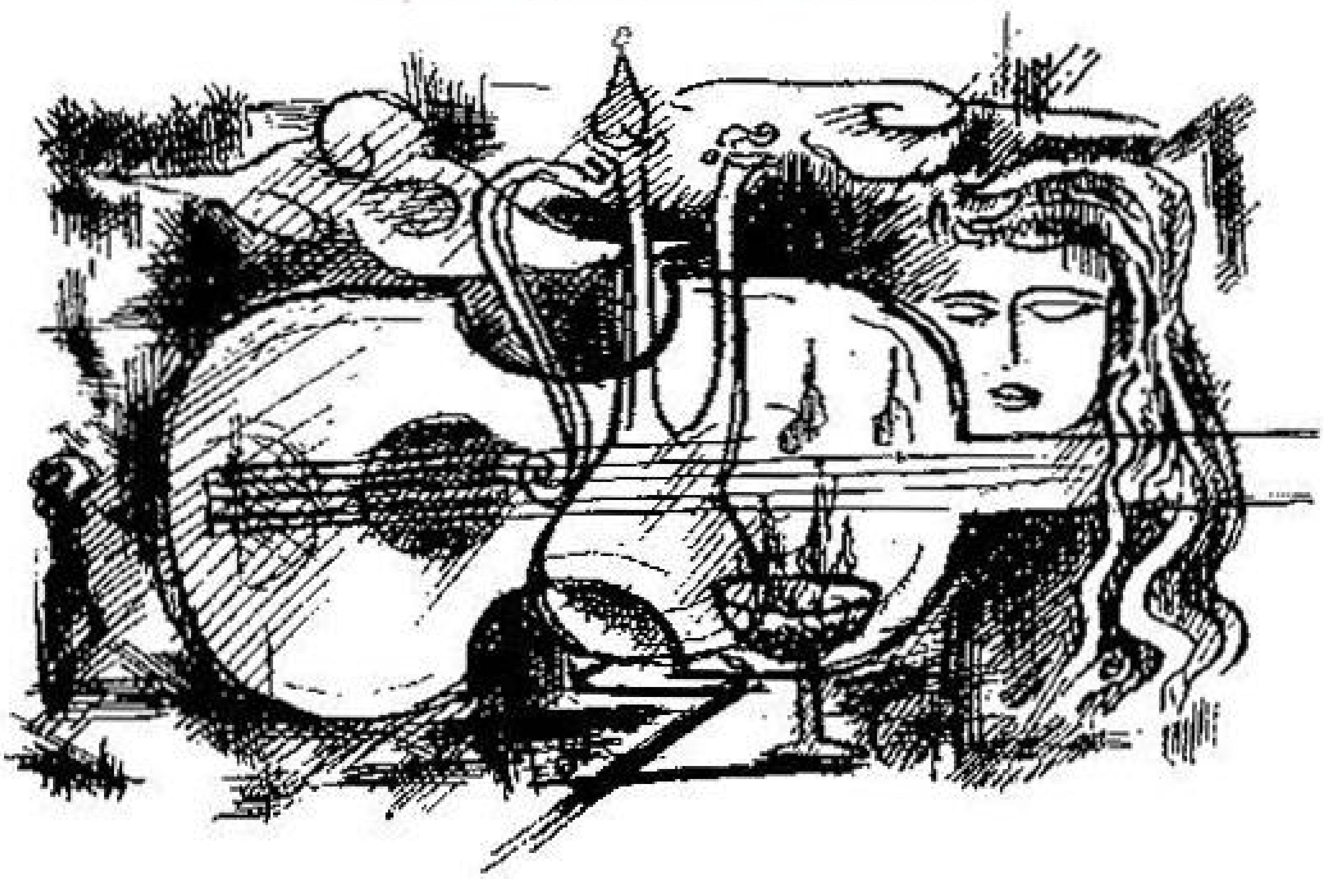
عبد الجبار الدوري
كلية التربية

لِيَ سمراءُ ولي في مقلتيها قدحانِ
سكرةٌ تغفو اذا دارا وتصحو سَكْرتان
غفلت عنها وعني أنا اجفانُ الزّمان
فالتقينا شاعرٌ حسبٌ وظمآنٌ حنَان
ليلةٌ قمراءَ كالصُّبحِ فكانتْ نَظْرَتان
ثم رقَّتْ بسمةٌ منها ومنِّي بَسْمتان
قلتُ يا سمراءُ فجَّرْتِ الضّيا في ذا المكان
مَنْ تكونينَ أيا ذاتِ الرداءِ الأقحواني
أنتِ مَنْ ؟ حسناءُ ، لا بلْ انتِ فينوسُ الحسان
هاتِ كفَّيكِ فذا القلْعُ وذانِ الشّاطئان

دجلةٌ تدعو بموجٍ دونهُ خَمْرُ الدِّنان
والهوى يهمسُ يا سمراءُ « اَلْعمرُ ثوان »
فتعالي قبلَ أن ترحلَ ساعاتُ الأمان

●

وسرى الزورقُ والليلُ رنينٌ وأغاني
وطوانا الحُبُّ بالشوقِ فرفَّتْ قُبْلتان
حدَّثَ السَّاحلُ عنَّا المَوْجَ قالتْ موجتان
أَهُما طيفانِ قالَ الليلُ : لا بَلْ عاشقانِ



دوافع التطبيق الاشتراكي

الدكتور ياسين خليل

دخل المجتمع العربي في بعض أجزائه مرحلة جديدة من البناء الاجتماعي هي مرحلة المجتمع الاشتراكي ، تلك المرحلة التي لابد ان تظهر لما جابه الوطن العربي من تحديات خارجية استعمارية وداخلية رجعية وشعوبية ، وانطلق الفكر العربي يعبر عن هذه المرحلة بفلسفة ذات جذور عميقة تمتد الى الوجود العربي بالذات والفكر الاسلامي العميق الواسع • وارتفع شعار الاشتراكية العربية مميزا نفسه عن الاشتراكيات الاوروبية ومعلنا بداية تحول عظيم في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي • وانتقل الفكر القومي الاشتراكي العربي من اطار المبادىء الى التطبيق الواقعي ، ليقيم تنظيما اشتراكيا يخدم الفرد والمجموع ، متجاوبا مع مبادىء الدين الاسلامي الحنيف • وعندما نقول بان الاشتراكية العربية تنبع من واقع الامة العربية وتراثها الاسلامي وأهدافها القومية ، فاننا نضع نصب اعيننا الاختلافات الواضحة بين الاشتراكية العربية والاشتراكيات الاخرى ، **هذه الاختلافات التي تكمن في نظراتنا الى الكون وموقف اشتراكيتنا من العدالة والديمقراطية ، والاسباب أو الدوافع التي تكمن وراء التطبيق الاشتراكي ، وموقف الاشتراكية العربية من الدولة والطرق التي نستطيع بواسطتها تحقيق الاهداف الاشتراكية** • وعلى هذا الاساس يجدر بنا ان نفصل في الاختلافات اذا اردنا ان نبين فردانية الاشتراكية العربية ، وأراني ملزما الآن ان احلل الدوافع التي قادت مرحلة التطور الى التطبيق الاشتراكي ، لاهمية هذا التحليل من جهة وجوابا على السؤال الذي يطرح دائما : لماذا أخذنا بالتطبيق الاشتراكي طريقا لبلوغ الاهداف القومية ؟ واذا كانت هذه الدوافع هي المحركات الفعلية للتطور الاجتماعي والاقتصادي والتربوي والسياسي في المجتمع العربي ، فان علينا ان ننظر اليها في تحليلنا لها بمنظار علمي بعيدا عن الآراء الذاتية ، لكي نضمن اطارا موضوعيا ننظر من خلاله الى عملية التطبيق الاشتراكي • وبناء على ذلك نقسم هذه الدوافع الى الفئات الآتية :

١) دوافع تتصل بواقع المجتمع العربي
٢) دوافع تتصل بتجارب الشعب العربي ومعاركه القومية
٣) دوافع تتصل بالاهداف القومية الكبرى
٤) دوافع حضارية وتراثية وانسانية ٠

لقد مر المجتمع العربي بعد ثورة الاسلام الكبرى بقيادة الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم بفترات ومراحل اتصفت بالخلق والابتكار والابداع في جميع ميادين الحياة ، وحقق العرب أعظم الانتصارات في العلم والحياة بفضل دعوة السماء ٠ واجتاحت العالم العربي بعد النهضة العربية الاسلامية فترة طويلة من السبات املتها قوميات اخرى استبدت بالشعب العربي وسخرت افراده وموارده لذاتها ٠ واستمرت هذه الفترة السوداء عدة قرون شلت الشعب العربي من الحركة ومنعته من مواكبة الحضارة والمدنية ٠ ولكن هذا الشعب الصابر المؤمن لم يبق مستكينا ، بل اعلنها ثورات على طول المنطقة العربية وعرضها ضد القوى الاستعمارية الحاقدة ٠ ولكنه وجد نفسه مقطع الاوصال مجزء الاطراف ، وادرك ان مهمته عصيبة لان عليه ان يحارب الاستعمار وينتزع الاستقلال ليثبت وجوده حرا من التبعية والاستغلال ، فكانت ثوراته التحريرية بداية معاركه القومية للتخلص من الاستعمار السياسي ٠ ولم تكن المعركة بين العرب والاستعمار معركة على الصعيد السياسي فقط ، وانما على الصعيد الاقتصادي كذلك ، وذلك لان الاستعمار هدف الى استثمار الموارد الطبيعية لحسابه الخاص ، فكانت الشركات الاجنبية الاحتكارية الاداة المستغلة لثروات البلاد ٠ وبناء على ذلك يكون للاستقلال معنى جديد يتضمن تحرير المجتمع سياسيا من السيطرة الاجنبية ، وتحريرا اقتصاديا من سيطرة الشركات الاجنبية ورأس المال المستغل ، ليستطيع الوقوف على قدميه في بناء اقتصاده القومي متحررا من كل سيطرة وسلطة أجنبية ٠

وكان من جراء ما عملته القرون الماضية في الشعب العربي وما عمله الاستعمار من امتصاص قوت الشعب ان وجد الشعب نفسه في مرحلة يسودها التخلف في جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، فلا وجود لصناعة متطورة أو زراعة متقدمة ، ولا وجود لمؤسسات ترعى الشباب وتوجهه وتعمل على تقويمه وتلقينه الاسس القومية ، بل ورث العرب عادات امم غير عربية ساعدت على بذر التفسخ والانحلال وغرزت في النفس التواكل وعدم تحمل المسؤولية واداء الواجب ٠ ولكي يستطيع هذا الشعب ان يرفع من معنوياته ، فمن الضروري ان يتخلص من رواسب الماضي وان يستعد للمعركة الكبرى ، معركة البناء والتصنيع لاقامة دولة قوية تحمي العرب من العدوان ، وتبني المجد وتسعى لاتاحة الفرص المتكافئة لتفتح الشخصية العربية ٠ ان هذا التخلف الاقتصادي والاجتماعي لا يمكن قهره الا بادارة قوية ودولة تأخذ على عاتقها المسؤولية الكبرى في تطوير المجتمع

نحو الصالح العام • وهـذا معناه ان بناء المجتمع العربي ودفعه من طور التخلف الى التطور والتقدم لا يكون الا بتخطيط اشتراكي قائم على العلم يعمل على سد حاجات المجتمع ويحقق الاكتفاء الذاتي ، لان الاقتصاد الحر يعجز في الدول المتخلفة عن تحقيق الاهداف القومية الكبرى ولا يستطيع ان يحقق الا القليل في عملية التنمية الاقتصادية لعدم كفاءته وقدرته على تطوير المجتمع بشكل سريع ليحقق المستوى الذي تتطلبه حالة العصر • واذا اراد راس المال الفردي في الدول المتخلفة تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية لابناء الشعب ، فان عليه ان يلجأ الى راس مال أجنبي يحاول ان يستثمر خيرات المجتمع ويسطو على الربح اضافة الى كونه اقتصاد غير قومي ، ويمهد الطريق الى استعمار اقتصادي جديد يربط المجتمع مصيريا بالدولة التي مهدت الطريق لرأسمالها في استثمار الدولة المتخلفة ، وفي هذه الحالة تفقد الدولة احد مقومات استقلالها وهو الاستقلال الاقتصادي • فالتخطيط الاشتراكي اذن ضرورة حتمية تأخذ به الدول المتخلفة اذا أرادت تجنب المشكلات التي تحدث نتيجة تطبيق الاقتصاد الحر ، وتحافظ على استقلالها الذي بذلت من أجله التضحيات الجسام • والامة العربية وجدت نفسها متخلفة في كثير من الميادين وهي لا تريد ان تضحي بالاستقلال الذي قدمت من أجله القرابين ، وانما تريد بناء دولة كبيرة قوية ، فهي على هذا الاساس تضطر بحتمية الواقع الاجتماعي ان تأخذ بالتخطيط الاشتراكي دليلا يقودها نحو بناء الاقتصاد القومي وتحقيق الاكتفاء الذاتي •

ولقد وجد الشعب العربي نفسه متخلفا من الناحية الاجتماعية بسبب العلاقات القديمة والمؤسسات الاجتماعية المتخلفة التي ورثها عن عهود الظلم والاستعباد • اما طبيعة هذه العلاقات فتتميز بانها اقطاعية من ناحيتها الاقتصادية ومتجمدة متحجرة غير متطورة من ناحيتها الاجتماعية وأجنبية لا تمت للفكر العربي الا قليلا من ناحيتها القومية والتراثية • اما المؤسسات على اختلاف مستوياتها فانها متخلفة ورجعية لا تستطيع بأي حال من الاحوال تطمين حاجات الانسان العربي في تطلعاته وآماله • فهي بذلك لا تستطيع ان تحقق نتيجة ايجابية يستفيد منها الشعب العربي في كفاحه من أجل مصيره ومستقبله • ونتيجة لدخول العناصر الفنية الصناعية الى المجتمع العربي المتخلف اجتماعيا بدأت العلاقات والمؤسسات القديمة بالانهيار والتفكك ، لانها لا تقدر على مواكبة الاوجه الجديدة للحياة المتطورة ، وكان من نتائج دخول المدنية الاوروبية الى المجتمع العربي ان تغيرت بعض المفاهيم وتكونت مؤسسات جديدة ذات مقومات وأهداف تناقض مقومات المؤسسات القديمة وأهدافها • فكانت هـذه المظاهر الجديدة التي فككت العلاقات الاجتماعية القديمة بمثابة القوى الحيوية الجديدة التي تنبه الشعب العربي بخطورة الحالة ، فاما ان تحل علاقات ومؤسسات جديدة تتفق مع الاهداف القومية ، أو ان تحل علاقات اجتماعية اوروبية تقضي على الاهداف القومية • والى

جانب ذلك يجب علينا ان ننظر من خلال هذه المشكلة الى أهمية التخطيط الاجتماعي لبناء علاقات ومؤسسات تنسجم وواقع المجتمع العربي ومثله الحضارية وتراثه الفكري • ومن هنا يجب ان لا نفصل بين التخطيط الاشتراكي والتخطيط الاجتماعي ، لانهما يسعيان معا لتحقيق أهداف الشعب العربي • فاذا كانت الدولة تسعى لاقامة مجتمع الكفاية والعدل بارساء دعائم التخطيط الاشتراكي ، فمن الضروري ان ننظر الى ما يتم وما يكون عند القيام بالتطبيق العملي للاشتراكية ، لان العلاقات الاقتصادية سرعان ما تنهار لتحل محلها انماطا اقتصادية وعلاقات جديدة تؤثر بلاشك على العلاقات الاجتماعية • وهذا معناه ان التخطيط الاقتصادي ليس وحده القادر على دفع البلاد نحو التقدم ، بل من الضروري ان يصاحبه تخطيط اجتماعي مدروس يعمل على اقامة الروابط الجديدة وبناء المؤسسات لتربط الفرد بالشكل الاجتماعي •

نستنتج من كل ما تقدم : ان دوافع التطبيق الاشتراكي النابعة من الواقع العربي تتمثل في التخلص من الاستعمار وتعزيز الاستقلال ، وفي التخلص من رواسب الماضي الذي خلفته قوميات غير عربية ، وفي القضاء على التخلف الاقتصادي لدفع البلاد نحو التقدم في حقلي الصناعة والزراعة ، وفي القضاء على التخلف الاجتماعي لبناء علاقات ومؤسسات جديدة متطورة تساهم في عملية البناء الكامل •

والى جانب هذه الدوافع الكامنة وراء التطبيق الاشتراكي نجد دوافع أخرى لها طابع مختلفة تتصل بالتطور التاريخي للمعركة القومية • فلقد مرت القومية العربية في مراحل متميزة هي :

١) مرحلة التحرر من سيطرة القوميات الاجنبية •
٢) مرحلة التحرر من القوى الرجعية التي خلفت الاستعمار •
٣) مرحلة التحرر من تحالف الاقطاع مع رأس المال المستغل •
٤) مرحلة البناء والتطبيق الاشتراكي والوحدة العربية •

واذا القينا نظرة علمية على مسيرة التطور التاريخي للقومية العربية في العصر الحديث نستنتج ان التطبيق الاشتراكي حتمي يفرض نفسه بعد تخلص الشعب العربي من القوى الاستعمارية والروحية وتحالف الاقطاع مع رأس المال المستغل ، وهذا معناه : ان حتمية التطبيق الاشتراكي تكمن في الواقع العربي وحركة القومية العربية والتحديات التي جابهت الامة العربية في العصر الحديث • وكانت أكبر هذه التحديات تلك التي مهد لها الاستعمار في بناء دولة للصهيونية على الارض العربية في فلسطين لتكون نقطة انطلاق وتوثب لغزو الامة العربية والقضاء على جميع مثلها الخلقية والانسانية • وكانت معركة ١٩٤٨ التي انتهت بالخيبة خير حافز للقوى العربية للمبادرة الى كشف العمالة والخيانة في المعركة ، واتضح بشكل جلي ان القوى الرجعية ورأس المال تحالفت مع الصهيونية والاستعمار ضد الامة

العربية . وادرك العرب ان معركة العروبة ضد الصهيونية تحتاج الى تصفية حاسمة لجميع القوى التي تحالفت ضد الامة العربية ، ولكن تصفية هذه العناصر دون القيام بعمل ايجابي حاسم لا يضمن النصر للعرب في معركتهم التحررية ، وان المعركة تحتاج الى أن تكون الامة العربية واحدة تجابه الخطر . واذا ظهر التحالف غير المقدس بين الرأسمالية العميلة مع الصهيونية في أثناء حرب فلسطين ، فمن الضروري تصفية رأس المال العميل وتقوية الدولة ، وذلك بتكوين ادارة قوية تشرف على خطة التسليح التي هي جزء لا يتجزأ من التخطيط الاشتراكي . وان هذه العملية ، عملية اشراف الدولة على التسليح والتصنيع وتدخلها فيه معناه دفع الامكانيات المادية نحو التقدم والعمل وانتاج القوة التي تحمي الامة العربية . فالاشتراكية العربية في هذا الطريق تمد الاهداف القومية بالقوة وتجعل القومية العربية في حصن منيع وقوة ارادية فعالة .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ بمبادئها الستة تمثل انتقال معركة القومية العربية الى مرحلة التحرر من القوى الرجعية وتصفيتها والقضاء على القوى التي تحالفت مع الصهيونية . وانتقلت الثورة القومية في العراق في ١٤ تموز ١٩٥٨ الى المرحلة الثانية من تطور القومية العربية . وبعد ان تخلصت بعض الاجزاء العربية من الاستعمار وأكدت استقلالها السياسي والاقتصادي سارعت القوى القومية لهدم مخطط الاستعمار في الابقاء على واقع التجزئة ، مبتغية اعادة الامة العربية في دولة واحدة ذات سيادة ومحققة بذلك الوحدة العربية . فكانت الوحدة بين سوريا ومصر في دولة الجمهورية العربية المتحدة . ولكن هذه الوحدة انقلبت الى انفصال في ٢٨ ايلول ١٩٦١ نتيجة لتحالف القوى المعادية للقومية العربية . فكانت نكسة الانفصال شبيهة بنكسة حرب فلسطين مع اختلاف واحد هو اختلاف مستوى أو مرحلة تطور القومية العربية ، فدفعت هذه النكسة المعركة القومية في طريقها الطبيعي في ترسيخ مفهوم الاشتراكية ، واخراجها الى حيز التنفيذ . فلقد ظهرت جميع القوى الرجعية والشعوبية والانتهازية والاقطاعية والرأسمالية متحالفة مع بعضها للقضاء على الوحدة بين الاقليم الشمالي والجنوبي . فكان الاصرار على تحقيق الاشتراكية وتنفيذ مبادئها مقدمة طبيعية لبناء دولة الوحدة . وهذا معناه ضرورة انتقال المعركة القومية الى المرحلة الثالثة لتصفية تحالف الاقطاع مع راس المال المستغل . وفي القضاء على هذا التحالف دليل على انتقال المجتمع الى مرحلة البناء والتطبيق الاشتراكي الذي يتناول جميع مقومات البنية الاجتماعية .

نستنتج مما تقدم : ان دوافع التطبيق الاشتراكي المتصلة بمعارك العرب القومية في العصر الحديث تتجلى في مواجهة تحديات الصهيونية العالمية والاستعمار وتخليص الارض العربية منها ، وذلك بتكوين جيش قوي في ظل دولة الوحدة ، والقضاء على القوى الرجعية وتصفية تحالف الاقطاع مع رأس

المال المستغل لتتجنب الوحدة التجزئة والانفصال ، وبفضل التطبيق الاشتراكي يحقق العرب دولة الوحدة العربية الشاملة •

والوحدة العربية الشاملة هي الهدف الكبير الذي دفع القومية العربية في طريق التطبيق الاشتراكي ، ولانها الغاية التي يناضل من أجلها الشعب العربي من المحيط الى الخليج لتحقق العزة والكرامة ، وان ضرورة تحقيقها معناه قيام دولة كبرى لها شأنها بين دول العالم • والقومية العربية في حركتها الوحدوية جابهت ولا تزال تحديات داخلية وخارجية ، فكان على القومية العربية وهي عقيدة وحركة الامة العربية ان تكون ذات محتوى اجتماعي يتلخص في تطبيق عملي لاشتراكية ذات اصول عربية تمتد جذورها الى الوجود العربي وتجربته الرائدة في ظل الدين الاسلامي ، وخرجت الاشتراكية العربية الى الوجود فكرا وتطبيقا بعد ان واجهت تحديات الاستعمار والرجعية وتحالف الاقطاع مع راس المال المستغل • واذا كان من اهداف القومية العربية بناء مجتمع عادل يسعى لسعادة الفرد العربي من أجل حاضره ومستقبله ، فهي لا يمكن ان تكون قومية ذات تنظيم رأسمالي ، لان هذا التنظيم سيعطي القوة لفئة قليلة من ابناء الشعب ويمنحها القوة في التحكم والعيش الرغيد دون الشعب كله • وهذا شيء تعارضه القومية العربية اذا كانت تنشد العزة والكرامة والحياة الحرة لكل فرد من ابناء الشعب العربي • ان تحقيق مجتمع الكفاية والعدل لا يكون في ظل الاقطاع ورأس المال المستغل ، وان اطلاق الامكانيات الفردية واستغلال الموارد الطبيعية لخير الشعب ورفاهيته لا يكون في ظل النظام الرأسمالي ومن ورائه القوى الصهيونية والاستعمارية في العالم • فالقومية العربية في أهدافها وحركتها تشير الى ان الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي جوهري فيها ، لان هذا التنظيم هو الذي يكفل للافراد عزتهم القومية ورفاهيتهم في الحياة ؛ ولكي يدركوا ان الوطن الذي يدافع عنهم ويحميهم هو الوطن الوحيد الذي يجب ان يدينوا له بالولاء والاحترام • فالاشتراكية العربية اذن ضرورة حتمية في الحركة القومية العربية الوحدوية وملازمة لها وجزء لا يتجزء من عقيدتها وحركتها •

واذا كانت القومية العربية اشتراكية بطبيعتها ، فان الظروف الموضوعية التي يعيشها العرب بعد تخلف دام قرونا طويلة تملي على الامة العربية ان تأخذ بالتطبيق الاشتراكي طريقا لتحقيق الادارة العربية في بناء المجتمع العربي القائم على القوة والعدل والكفاءة • ان دفع المجتمع العربي نحو التقدم لا يتحقق في ظل الاقطاع ورأس المال المستغل ، لان هذا النظام من شأنه ان يقسم المجتمعات الى طبقات متناحرة متصارعة يتحكم فيه رأس المال في حرية الافراد ويقيد الحركة القومية ويبني ديمقراطية مزيفة هي ديمقراطية الاقطاع ورأس المال المستغل • وهذا معناه ان القومية العربية ستعجز في ظل الاقطاع ورأس المال المستغل من تحقيق العدل الاجتماعي

والمساواة العامة وتقليل الفوارق الاقتصادية الهائلة بين الافراد ، وايجاد مجتمع يتمتع فيه الافراد في ظل نظام ديمقراطي سليم • ان التطبيق الاشتراكي وتدخل الدولة في ادارة المشاريع والصناعات الكبرى من شأنه ان يأخذ بالمجتمع في خطوات سريعة ومدروسة نحو تحقيق كفاية الانتاج وعدالة التوزيع ، لان التطبيق الاشتراكي الذي تتبناه الدولة لا يسعى الى الربح الفاحش في الانتاج ، بل يسعى الى سد الحاجات الضرورية التي يتطلبها المجتمع • ومن جهة أخرى يعمل التطبيق الاشتراكي على تطوير الامكانيات البشرية وتوجيهها نحو خدمة المجموع والاستفادة من الامكانيات المادية ضمن اطار خطة التنمية الاقتصادية • فالتطبيق الاشتراكي ضروري لدعم التقدم ودفع البلاد نحو مستقبل تسوده العدالة الاجتماعية والرفاهية الاقتصادية •

واذا كانت الامة العربية متخلفة في الصناعة والزراعة والاجتماع ، وهي امة تريد لنفسها مكانا تحت الشمس ، فمن الضروري ان تقوم بثورة ضد التخلف باقامة المصانع وزراعة كل شبر من أرض العروبة • واذا كان العامل البشري في الصناعة والزراعة يؤلف حجر الزاوية في الانتاج ، فمن الضروري ان تواجه الامة العربية حقيقة تزايد العمال والفلاحين الذين هم الدعامة الاساسية في تنفيذ عملية التطبيق الاشتراكي • ان تزايد العمال والفلاحين في ظل نظام راس المال المستغل في دولة متخلفة ضعيفة الاقتصاد القومي من شأنه ان يجر البلاد الى صراع وتطاحن بين الاكثرية من الشعب وبين الفئة المستغلة ، وعندئذ يبرز من خلال هذا التصارع الطبقي ذوو القمصان الحمر يروجون للماركسية الصهيونية ويساعدون على انهيار الاقتصاد القومي والقضاء على القومية العربية • لذلك يصبح التطبيق الاشتراكي في مرحلة التصنيع والزراعة ضرورة قومية لتجنب الحركات الصهيونية الهدامة • وبهذا العمل القومي الاشتراكي نكون :ـ

أ ـ قد اعطينا للقومية العربية قوة ذات أثر فعال في التنمية الاقتصادية هي قوة العمال والفلاحين •

ب ـ حافظنا على الحركة القومية وعلى تقدم الاقتصاد القومي وتطويره نحو خير المجموع •

حـ ـ استقطبنا حول القومية العربية المثقفين الى جانب العمال والفلاحين ، وبذلك تكون قوى الشعب العاملة قاعدة القومية العربية الاشتراكية •

د ـ وتجنبنا خوض معارك أهلية تقوم بها الطبقة العمالية والفلاحية ضد طبقة رأس المال ، وذلك لانتفاء الطبقة الاخيرة من المجتمع •

هـ ـ وقفنا منذ البداية ضد الماركسية والصهيونية العالمية وشبعنا الرأي العام العمالي والفلاحي بالفكر القومي المستند الى تراث الامة العربية وعقيدتها الاسلامية •

نستنتج مما تقدم : ان دوافع التطبيق الاشتراكي المتصلة بالاهداف القومية تتجلى في تحقيق مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع يوفر للانسان العربي حياة سعيدة ورفاهية اقتصادية واجتماعية ، وفي تحقيق مجتمع الديمقراطية السليمة بعيدا عن الزيف السياسي الذي يمارسه تحالف الاقطاع ورأس المال المستغل ، وفي ازالة الفوارق الاقتصادية لكي لا تتحول الى وعي طبقي يقود المجتمع الى صراع وتطاحن وحرب أهلية ، وفي تحقيق الوحدة العربية الشاملة في ظل اشتراكية عربية اسلامية .

واذا كانت الاشتراكية العربية اسلامية في أصولها وقومية في أهدافها فمن الضروري ان يتصل الفكر القومي الاشتراكي العربي المعاصر بالفكر العربي الاسلامي ، لان أي اختلاف يقع بين الفكرين من شأنه ان يقود الامة العربية الى الانزلاق في فكر شعوبي يهدف القضاء على العروبة أو الاسلام ، يؤدي بالامة العربية الى فقدان مقوماتها الحضارية والثقافية اضافة الى وقوع الشعب العربي في أزمة فكرية وحضارية تظهر فيها متناقضات واختلافات تعرقل سير التطور في المجتمع العربي . وعلى هذا الاساس يجب ان يكون الاتفاق بين الفكرين واشتقاق الثاني من الفكر العربي الاسلامي أساسا لوصل الحضارة العربية الاسلامية التي انقطعت بعد سيطرة القوميات الاجنبية وانتزاع السيادة من الامة العربية بالحضارة أو بالنهضة العربية الاسلامية الحديثة المتمثلة في بعث التراث العربي الاسلامي الانساني ليكون نقطة انطلاق وتوثب لبناء حضارة العرب الحديثة . وعلى هذا الاساس يجب ملاحظة الدوافع الحضارية والتراثية والانسانية في التطبيق الاشتراكي على ضوء دراسة علمية للخطوط الاساسية التي تميزت بها الحضارة العربية الاسلامية . لقد تميزت الحضارة العربية بالمظاهر الآتية :ـ

أ ـ انها حضارة متكاملة تجسدت فيها المثل والقيم العربية والاسلامية ، وتتجلى فيها النزعة الانسانية بكل مظاهرها .

ب ـ انها حضارة استهدفت بناء الشخصية الانسانية وتنميتها على حب الخير والفضيلة والتمتع بالاخلاق السامية .

جـ ـ انها حضارة هدف بنائها وتكوينها تحقيق العدل الاجتماعي والتوازن الاقتصادي بين جميع الافراد .

د ـ انها حضارة امتزجت فيها المادة والروح ، فكانت موافقة لطبيعة الانسان ونابعة منه تقوم على سد حاجاته المادية والفكرية .

هـ ـ انها حضارة علمت الانسان على تحمل المسؤولية واداء الواجب فجعلت العمل مقياسا ، وحاربت الاتكال كما حاربت الاستغلال والتحكم ، وحاربت الربا لانه طريق لعبودية الانسان .

و ــ انها حضارة الانسان العربي وحضارة الانسانية ربطت العربي بأخيه العربي وربطت العربي بغير العربي برباط من الاخوة والمساواة والعدل ٠

نستنتج مما تقدم : ان الدوافع الحضارية والثقافية والانسانية الكامنة وراء التطبيق الاشتراكي هي الاهداف التي كانت التعاليم الاسلامية تبغي تحقيقها في الحضارة العربية ، فكان العدل الاجتماعي هو القاسم المشترك في كل ثنايا الحضارة ، تجسد في القانون والاقتصاد والاجتماع والعمل ، وكانت كرامة الفرد وتكريمه على سائر المخلوقات هو الدافع الذي قاد الحضارة الى ترسيخ حقوق الانسان وتجسيدها في الواقع ، وكان لابد ان تقوم التشريعات بعمل يضمن العدالة والحقوق ، فاستهدفت محاربة الربا وتحريمه ، والقضاء على الظلم والاحتكار ، لانها الوسائل التي تؤدي بالمجتمع الى التصارع والاختلال في توازنه الاقتصادي والاجتماعي ٠

والآن بعد ان ناقشنا هذه الدوافع المختلفة للتطبيق الاشتراكي يجدر بنا ان نعقد مناقشة بسيطة تتعلق بصدد دوافع التطبيق الاشتراكي في الاشتراكية الالمانية والاشتراكية الماركسية ٠

لقد ظهرت الحركة الاشتراكية القومية في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى وكانت دوافعها خسارة المانيا وانهيارها العسكري وتدخل قوى أجنبية ، وانهيار الاقتصاد القومي وانهيار الطبقة المتوسطة ، واستهدفت هذه الحركة تحرير المانيا ورفع اقتصادها القومي ٠ وهكذا أصبح اندحار المانيا سنة ١٩١٨ دافعا قوياً لاستعادة قوتها ، لاسيما انها وجدت ان اندحارها لم يكن نتيجة قوة الاعداء بقدر ضعف المانيا في الداخل ، اذ كان الاعداء من الماركسيين الامميين واليهود الد أعداء المانيا ، فأصبح ذلك دافعا قويا للحركة الاشتراكية القومية في المانيا لطرح الاشتراكية بأصولها القومية لتقف ضد الاعداء وتصفيهم في الداخل ٠

اما بالنسبة للماركسية ، فان الدوافع تكمن في حالة القرن التاسع عشر ، حيث عملت الثورة الصناعية على تقسيم المجتمع الى طبقتين : طبقة العمال وطبقة الرأسماليين ، فجاءت الدعوات الاشتراكية المختلفة ومنها الماركسية لتقضي على الازمات الاقتصادية وسوء حالة الطبقة العاملة التي تؤلف أكثرية الشعب ٠ وهكذا يظهر بوضوح ان الدوافع تختلف باختلاف الاشتراكيات ، وان دوافع التطبيق الاشتراكي في المجتمع العربي لا تمت بصلة الى دوافع الماركسية ، ولكنها تتفق في بعض الاحيان مع الدوافع الكامنة وراء الاشتراكية الالمانية في محاربة الصهيونية والقضاء على الاعداء الذين زرعتهم المذاهب الوافدة وزيادة الدخل القومي وبناء جيش قوي ٠ وتختلف عنها لاختلاف الواقع العربي وتجارب الامة العربية وأهدافها الوحدوية ووجودها الحضاري ٠

في البلاغة العربية ـ ٤

المفهوم الأخير

الدكتور بدوي طبانة

اذا صرفنا النظر عن تلك التعريفات الكثيرة التي تختلف في مبانيها وتتفاوت في معانيها، ولم يبق لأي تعريف منها سيادة من الناحية الاصطلاحية التي يجتمع عندها أكثر المختصين بهذا اللون من ألوان المعرفة الفنية في دور الصياغة والتحرير والاتفاق على مفاهيم الالفاظ ـ ألفينا ان أكثر البلاغيين من العرب يلتقون عند قولهم في تعريف البلاغة بأنها « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها » ..

و « الحال » ـ ويرادفه « المقام » ـ عبارة عن الامر الداعي أى الحامل للمتكلم على أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما ،وهو مقتضى الحال، مثلا : كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضى تأكيد الحكم، والتأكيد هو مقتضى الحال(١) ..

وفي كلام العلماء الادباء الذين يعدون في البلاغيين مع شيء من التجوز والتوسع ما يدل على ادراكهم هذا المفهوم الاخير لمعنى البلاغة .

ولعل أقدم النصوص التي تشير الى معنى البلاغة هذا تلك الكلمة التي أوردها بشر بن المعتمر (ت ٢١٠) في صحيفته المشهورة في البلاغة ، وهي قوله « انما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (٢)

ومن كلام الجاحظ في هذا المعنى « وكما لاينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا ، فكذلك لاينبغي ان يكون غريبا وحشيا ، الا ان يكون المتكلم بدويا اعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي . وكلام الناس في طبقات ، كما ان الناس أنفسهم طبقات(٣) ..

وقال ابو هلال العسكرى : ان البليغ لايكلم سيد الامة بكلام الامة ،

ولا الملوك بكلام السوقة ، لان ذلك جهل بالمقامات ، وما يصلح لكل واحد منها من الكلام . وأحسن الذي قال « لكل مقام مقال » وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية ، فيخاطبون السوقي والمملوك والاعجمي بألفاظ أهل نجد ومعانى أهل السراة (٤) .

* * *

وذلك المعني الذي اجتمع عليه العلماء والنقاد والبلاغيون من العرب لمفهوم البلاغة هو المعني الذى اجتمع عليه غيرهم من الباحثين في البلاغة ،واعني بذلك ان البلاغة هي فن المطابقة ، وأن عمل الاديب هو تحري تلك المطابقة فيما يؤلف من كلام منظوم أو منثور ، ومن كلام أحد علمائهم (٥) في ذلك « البلاغة فن يجعل المقال مناسبا للمقام ، أو هي بعبارة اخرى : مراعاة مقتضيات الاحوال بما يتطلبه السامع أو القارىء ... وأن تؤدي الفكرة بصحة واتقان مراعيا مقتضيات الاحوال ، وهما في الحقيقة الاساس في تأثير كل عمل ادبي سواء أكان أدبا مقروءا أم كان أدبا مسموعا ..

وأهم من ذلك أن الذى يجعل الفكرة بليغة أن يستطيع الاديب ان يعكس فهمه واحساسه على عقل القارىء أو السامع . والاديب حين يؤلف ادبه محتاج الى ان يسأل : ما الذى يستطيع الناس أن يفهموه أكثر من غيره ؟ وما الذى يعمله ليجعلهم يشعرون بما يشعر به ويفهمون خياله ؟ وما الذي يمتعهم ويروقهم ويرضي أذواقهم في حدود مستوياتهم ؟..

وبجانب كل اولئك عليه ان يراعى الظروف والموضوعات التي ينبغي أن يعالجها ، ويبني عمله الادبي عليها ، ليجعل الموضوع ملائما للطبيعة البشرية ، لان معرفة مطالبها تحتاج الى مهارة ..

وفكرة المناسبة هذه هي المثل الحسن الجديد للهدف الاول من البلاغة — أو الخطابة — وضروري أن يراعي الاديب — أو الخطيب — قبل كل شيء حال المستمعين » .

* * *

وقد استعمل علماء العرب ونقادهم كثيرا من الالفاظ في الدلالة على ما أصبح يدل عليه لفظ (البلاغة) في وضعها الاخير عندهم .

وكانت تلك الالفاظ تستعمل كلها أو يستعمل بعضها بجانب لفظ (البلاغة) ، فلم ينفرد لفظ واحد بالدلالة على المعنى الذى يريدون العبارة عنه ، وهو اجادة التعبير عن المعاني والافكار التى تخالج قلب الاديب أو عقله .

ولم يكتب لهذه الالفاظ كلها البقاء بجانب لفظ البلاغة ، وانما تخصص كل منها بمعنى من المعاني قد يقرب من معنى البلاغة ، وقد يبعد عنها ، وقد ينحصر في زاوية من زواياها أو في فرع من فروعها .

فمن هذه الالفاظ ماكان معناه عاما ثم خصص بالمعنى الاصطلاحي للبلاغة، ثم ازيل تخصيصه وعاد اليه عمومه الاول كما كان عند واضعي اللغة

واصحابها ، أى أنه لم يبق من الالفاظ الاصطلاحية التي آثرها أصحاب العرف الخاص ، وهم هنا علماء البلاغة سوى لفظ (البلاغة) ٠

ومن تلك الالفاظ التى استعملت حينا في مصطلح البلاغيين لفظ (البراعة) الذي كان عندهم من الالفاظ الاصطلاحية كلفظ (البلاغة) ولفظ (الفصاحة) ٠٠ وقد ذكر السبكي في «عروس الافراح» ان مما يوصف به الكلام والكلمة أيضا (البراعة) وأهملها الجمهور ، قال : وقد ذكرها القاضى أبو بكر في الانتصار مع الفصاحة والبلاغة ، وحدها يقرب من حد البلاغة(٦)٠

والى هذا المصطلح الذى أهمل أو أزيل عنه التخصيص يشير عبدالقاهر الجرجاني في قوله « ان البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك ، انما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا أو تكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٧) ٠٠

ومعنى (البراعة) المهارة والتفوق ، يقال : برع براعة وبروعا : فاق أصحابه في العلم وغيره ، أو تم في كل فضيلة وجمال ، فهو بارع ، وهي بارعة ، وبرع صاحبه : غلبه ، وأمر بارع : جميل(٨) ٠٠

ثم عاد الى كلمة «البراعة» عمومها ، فاصبحت تستعمل فيما كانت تستعمل في الدراسات البلاغية ، وانما نقف عليها في مثل ما سبق من الآثار ٠

* * *

وكذلك كان منهم من أطلق على علم البلاغة عبارة (علم نقد الشعر) كما أطلقوا عليه (علم صنعة الشعر) واسم (نقد الكلام) أيضا ٠٠

وذكر (النقد) في هذه العبارات يدل دلالة صريحة على تلك الصلة الوثقى التى تصل النقد الادبي بالبلاغة ، وذلك ان كلا منهما موضوعه «الادب» ٠ والناقد الادبي انما يبحث عن القيم الفنية في عمل ادبي ، أو في مجموعة من الاعمال الادبية ، لتقديرها ووضعها في الموضع الذى تستحقه بين الاعمال الادبية الاخرى ، او ليبين منزلة الاديب بين غيره من الادباء ٠

ومظاهر الجمال في تلك الاعمال الادبية هي التى استثارت اهتمام النقاد، وهي التي استوقفتهم بما فيها من فنون الغرابة التي تميزها من كلام الناس ، ثم رأوا تكرارها في الاداب الرفيعة ، وفيما صدر عن الادباء الكبار الذين اعترف لهم بالسبق ، ووصفوا بالفحولة أو بالعبقرية والنبوغ ، واحتلوا منازلهم في أممهم بسبب اقتدارهم على هذا الفن وامتلاكهم ناصية البيان ٠

وكانت تلك الوقفات التى وقفوها عند مظاهر الاجادة التي فطنوا اليها هي التى تكونت منها تلك الفنون ، ونظمت من أجلها المباحث التي تتناولها البلاغة دراسة وتحديدا ، وتفصيلا وتبويبا ، بعد أن كانت عند النقاد اشادة وتمجيدا ٠

وقد أصبحنا الان نقول ان البلاغة «تشريع للادب» وان النقد «تقدير

للادب» • ومعنى ذلك أن النقد الادبي الذى سبق البلاغة الى الوجود كان أهم مصدر من مصادرها ،ثم اصبحت تلك البلاغة تشريعا وتقنينا للجمال الذى يحتذى ويتطلب في الفن الادبي ، بسبب منهجها الذي سارت عليه ، وهو المنهج العلمي الذى يعتمد على المعالم الواضحة ، والحدود الفاصلة ،والاقسام المستوفاة • وذلك لايتأتى الا بالمعرفة المستنيرة •

ثم استدار الامر فأصبحت معالم البلاغة الواضحة التي استمدت ينابيعها الاولى من النقد ــ أصبحت أسسا يرجع اليها النقاد والباحثون في الادب ، ويحاولون تطبيقها على ما يقع بين أيديهم من الاداب التي يريدون أو التى يراد منهم تقديرها واصدار الاحكام الصحيحة عليها •

ولعل السبب في قصر هذا العلم «علم النقد» على الشعر ، وقولهم فيه «علم نقد الشعر» أن فن الشعر كان في كل العصور ، ولا يزال ، المثل الاعلى لفنون الاداب المعروفة . وان ما يتطلب في فن الكتابة او في فن الخطابة يتطلب مثله وأكثر منه في فن الشعر •

فالشعر على هذا مثل لفنون الادب ، بل هو عند العاملين بالادب أرفع امثلتها • والنثار من الادباء كانوا يتطلعون الى المثل الفنية التي يحتذيها الشعراء ، كما كانوا يتطلعون الى الظفر بالمنزلة التي حظى بها اولئك الشعراء في نفوس الافراد والجماعات •

أو لعل السبب في ذلك هو ان أبرز المأثور من الآداب قديما هو الادب المنظوم الذى نفقت سوقه عند قدامى العرب ، وعند قدامى اليونان أيضا ، وهو الذى وعته الحافظة ، ورددته الالسنة ، فعاش في الزمن ، في الوقت الذي ضاع فيه أكثر الادب المنثور لصعوبة حفظه وسرعة تفلته ، لان ارتباطه بموسيقى الاوزان والقوافي ، وهما أصل من أصول الشعر ، هو الذي يسر حفظه وتذكر ألفاظه • وكان حفظ هذا الشعر هو الذى جعل النقد يعني به ، وجعل النقاد الذين يحفظونه أو الذين يسمعونه من الذين يحفظونه يقصرون جل اهتمامهم عليه •

ومن الناحية العلمية فقد وجد الباحثون أن أقدم الآثار التي عثروا عليها والتي وجدوا فيها معالم للدراسات البلاغية كانت كتبا في النقد . وكان بعضها يحمل اسم «نقد الشعر» ككتاب قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ) • وقد اشتمل على كثير من نعوت الجودة في الشعر ، تتناول عناصره التي يتكون منها مفهومه وهي : الالفاظ ، والاوزان ، والقوافي ، والمعاني • فجعل محاسن هذه العناصر المفردة نعوتا لها ، ثم نظر اليها مركبة فجعل محاسنها نعوتا تنشأ من النظرة المركبة ، فالالفاظ تأتلف مع الاوزان ومع القوافي ومع المعاني ، وتأتلف المعاني مع الاوزان والقوافي ، وتأتلف الاوزان مع القوافي ، وتأتلف القوافي مع مجموع ما يدل عليه سائر البيت •

ونعوت تلك المفردات ، ونعوت هذه المركبات أخذها البلاغيون فجعلوها من فنون بلاغتهم ، وأكثرها صار من مباحث علم من علومها عندهم ، هو

«علم البديع» ·

وربما كانت عبارة (نقد الكلام) التي أطلقها بعضهم على علم البلاغة أعم وأوفى بالمراد من عبارة (نقد الشعر) لشمول الاولى لفنون الكلام ،وقصر الاخرى على فن واحد من فنون الادب ·

أما عبارة (صنعة الشعر) فقد أطلق علماء العرب كلمة (الصناعة) على كل ما يطلق عليه المعاصرون كلمة (الفن) (Art) كما سموا المجيد في صناعة من الصناعات أو في فن من الفنون صناعا وهي ترادف في الاستعمال كلمة الفنان (Artist) التي تستعمل في ايامنا ، ولذلك سمى أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٦هـ) كتابه «الصناعتين» يعني صناعة الكتابة وصناعة الشعر ،وقد اشتمل هذا الكتاب على كثير من الفنون البلاغية التي وعاها عن الذين سبقوه واستطاع ان يضيف اليها فنونا سبعة اخترعها ، أو استنبطها بنفسه من مظاهر الابداع عند الادباء(٩) ، وقد حمل كتابه هذه التسمية «الصناعتين» على الرغم من أنه كان يعرف تماما أنه يؤلف في «علم البلاغة» وتلك المعرفة ظاهرة من الكلمات الاولى التي استفتح بها كلامه وهي قوله : اعلم ـ علمك الله الخير وقيضه لك وجعلك من اهله ـ أن احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة(١٠) ··

* * *

وكذلك استعملت عبارة (علم البيان) للدلالة على المعنى الذي يدل عليه لفظ البلاغة · و «البيان» في أصل استعماله هو الكشف والظهور والوضوح، فاصبح يطلق في الكشف عما في النفس من المعاني والافكار بالعبارة الجيدة والاسلوب الممتاز ، وقد ورد في الحديث النبوى «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا» وكان هذا القول تعقيب الرسول صلى الله عليه وسلم على اقتدار احد المتكلمين أمامه على اجادة القول واقناع السامع بصحة ما نطق به، على الرغم مما كان يبدو في كلامه من التناقض الظاهر ، اذ مدح فعده الممدوح مقصرا لم يبلغ غاية المدح ، وكان في عدم رضاه عما قال ما دعاه الى ان ينقلب ذاما ، واستطاع ان يقنع في الحالين بصدقه فيما قال من مدح وذم ، مع أن التوفيق بين الغرضين أمر بعيد المنال ·

وقد سمي الجاحظ كتابا من أهم كتبه «البيان والتبيين» وشرح فيه معنى البيان ومعنى البلاغة كما تصورها ، أو كما تصورها الذين نقل عنهم حدودهم وتعريفاتهم · وكذلك سمى أبو الحسين اسحاق ابن ابراهيم بن وهب الكاتب كتابا من كتبه «البرهان في وجوه البيان» وهو يبحث فيه اكثر ما يبحثه علماء البلاغة في كتبهم البلاغية المعروفة ·

والمتأخرون من البلاغيين لاينكرون ان تسمى علوم البلاغة الاصطلاحية ـ المعاني والبيان والبديع ـ علم البيان ، ويقولون ان وجه تسمية الجميع بعلم البيان أن البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ، ولا يشكون في أن العلوم الثلاثة لها تعلق بالكلام الفصيح المذكور تصحيحا وتحسينا(١١)·

وذلك على الرغم من تخصيصهم علما واحدا من علومها عندهم باسم «علم البيان» ·

وكذلك كان يسمى علم البلاغة (علم المعاني) لان المعاني هي المقاصد المفهومة من العبارة ، فاذا قلنا «علم المعانى» فالمقصود علم البلاغة على اساليبها وتقاسيمها(١٢) ··

وفي العلماء من يسمى البلاغة «بديعا» وعللوا ذلك ببداعة مباحث البلاغة أى حسنها ، لان البديع هو الشيء المستحسن لطرافته وغرابته ، وعدم وجود مثاله من جنسه ·· ومباحث البلاغة كلها كذلك ، أو لانها تعرف بها امور مبتدعة بالنسبة الى تأدية أصل المراد الذى يعرفه الخاص والعام (١٣) ·· ثم ان اول كتاب ظهر في البلاغة العربية كان كتاب «البديع» الذى ألفه عبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) وقد فرغ من تأليفه سنة ٢٧٤ هـ ، وليس في هذا الكتاب من المباحث الا مباحث البلاغة وفنونها التى عاشت في هذه البلاغة ، والتي تقسمت فيما بعد بين علوم البلاغة عندما اصبحت ثلاثة علوم هي المعاني والبيان والبديع كما سبقت الاشارة الى ذلك ، فبقى هذا اللقب الاشهر «البديع» دالا على البلاغة كلها عند اكثر النقاد ، وعند عدد من البلاغيين أو الذين تعرضوا في دراساتهم لفنون من البلاغة · فصاحب «الصناعتين» يجعل البديع خمسة وثلاثين فنا تشتمل على فصول من فنون البلاغة الثلاثة(١٤) والباقلاني صاحب «اعجاز القرآن» (ت ٤٠٣هـ) يرى ان وجوه البلاغة تسمى «البديع»(١٥) ·· وابن ابى الاصبع المصرى ــ على الرغم انه يعد من المتأخرين (ت ٦٥٤هـ) يسمى كتابه «بديع القرآن» ويجمع فيه فنونا تدخل في مباحث العلوم الثلاثة ·

* * *

أما أكثر الالفاظ دورانا فيما يتصل بهذا الموضوع فلفظتان هما: الفصاحة والبلاغة ·

وقد اختلف في مدلول كل منهما ، ولخص العلوى في «الطراز» وجوه الاختلاف في استعمال لفظتي الفصاحة والبلاغة ، وذكر ان الفصاحة عند قوم من عوارض الالفاظ ، والبلاغة من عوارض المعاني · ومنهم من قال انهما مستويتان دالتان على مقصود واحد ، فلا يكون الكلام فصيحا الا وهو بليغ ، ولا يكون بليغا الا وقد حاز الفصاحة · ومنهم من زعم ان الفصاحة أعم من البلاغة ، فالكلام يوصف بالفصاحة وان لم يكن بليغا ، ولا يعقل كون الكلام بليغا الا مع كونه فصيحا ، والامر في ذلك قريب ، خلا ان اكثر أهل البلاغة قائلون بانهما مقولان على جهة الترادف ــ اعنى الفصاحة والبلاغة ، والى هذا ذهب الشيخ عبدالقاهر الجرجانى · والاقلون على ان البلاغة من أوصاف المعانى ، والفصاحة من وصف الالفاظ ، وهذا هو الاقرب(١٦) ··

وللفصاحة في كتب اللغة معان متعددة ، وكلها يدل على الظهور - وفي هذه المعاني ماهو حقيقي وفيها ماهو مجازى · فتطلق الفصاحة على نـزع

الرغوة وذهاب اللبأ من اللبن ، يقال : سقاهم لبنا فصيحا ، أي اخـذت رغوته ونزعت منه، أو ذهب لبؤه وخلص منه . قال في الاساس ان هذين المعنيين حقيقيان . ثم قال : ومن المجاز : سرينا حتى أفصح الصبح ، وحتى بـدا الصباح المفصح ، وهذا يوم مفصح وفصح : لاغيم فيه ولا قر ، وانتظره نفصح من شتائنا ، أي نخرج ونتخلص ، وجاء فصح النصارى اى يوم بروزهم الى معبدهم ، وهذا مفصحهم أي مكان بروزهم ، وأفصحوا : عبدوا ، وافصح العجمي : تكلم بالعربية ، وفصح : انطلق لسانه وخلصت لغته من اللكنة ، وأفصح الصبي في منطقه : فهم مايقول في اول ما يتكلم .. وفلان يتفصح في منطقه اذا تكلف الفصاحة .. وتقول لمحة نصيحة خير من كلمات فصيحة(١٧) .

فقد جعل الزمخشري ما سوى ذهاب الرغوة من اللبن معاني مجازية، ولاشك أن تلك المعاني كلها كما اوردها ، سواء أكانت جامعة لكل وجـوه الاستعمال عندهم أم كانت أمثلة لها تئول كلها للظهور أو الاظهار .

اما علماء البلاغة فلم يقفوا على حد ايجابي واضح للفصاحـة التـي يستعملونها ، وانما هي عندهم خلوص اللفظ من التعقيد في تركيب الاحرف والالفاظ جميعا ، ومعنى ذلك أن غاية الفصاحة هي ان يتضح الكلام وينكشف معناه ، كما اتضح اللبن باخذ رغوته ، فصار خالصا من الشوائب ، ظاهـرا لايخفيه شيء عن نظر من يتطلع اليه .

ولكن الذى ينعم النظر في استعمالات أهل اللغة سيرى أن اسـتعمال لفظ «الفصاحة» في وصف الكلام أو في وصف المتكلم بدأ في وقـت مبكر . ولذلك كانت محاولة اللغويين جعل هـذا المعنى من المجاز ، وجعل خلوص اللبن من الرغوة أو اللبأ معنى حقيقيا انما هو من قبيل محاولة وصل المعاني بعضها ببعض . فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « أنا أفصـح العرب بيد أني من قريش ، أو قوله «انا افصح من نطق بالضاد بيد اني من قريش» .

وربما كان اعتبار الفصاحة في الكلام من المجاز لا الحقيقة اجتهادا من صاحب الاساس ، بل ان هذا هو الارجح ، لان الحكم بالحقيقة او المجازيـة مرجعه تتبع استعمال اللفظ عند اصحاب اللغة ، ومن العسير الوقوف عـلى جميع الخطوات التي خطاها اللفظ في الاستعمال ، والتي تردد فيها بين الحقيقة والمجازية ، وانما الذي ينبغي أن ينظر اليه هو شهرة الاستعمال وذيوعه .

وقد اشتهر استعمال الفصاحة في وصف الكلام عند القدماء ، واطلاقها على كثير مما سوى فصاحة اللبن بأخذ رغوته وازالة لبئه . ومن هذا الكثير أيضا استعمالها في الكلام . حتى لو سلمنا ان هذا الاستعمال كان استئنافا او كان تحولا عن الاستعمال الاصلي ، فان هذا التحول أو ذاك الاستئنـاف قد شاع وانتشر واشتهر ، وشيوعه واشتهاره يجعله من باب الحقيقـة او يحوله اليها ، لانه أصبح من جملة المعاني التي تتبادر الى الذهن عند سماع اللفظ . فقد اقر الاستعمال على ما استعمله واضعو اللغة واصحابها .

وقد عمد البلاغيون او أكثرهم الى جعل الفصاحة شيئا ، وجعل البلاغة شيئا آخر • ففي موضوع كل منهما خلاف ، وقد اشار ضياء الدين بن الاثير الى الصعوبة في تحديد مجال كل من الفصاحة والبلاغة في قوله ان هذا الباب متعذر على الوالج ، ومسلك متوعر على الناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم يجد ما يعول عليه الا القليل • وغاية ما يقال في هذا الباب ان «الفصاحة» هي الظهور والبيان في اصل الوضع اللغوي ، يقال : أفصح الصبح اذا ظهر ، ثم انهم يقفون عندذلك ولا يكشفون السر فيه ، وبهذا القول لاتتبين حقيقة الفصاحة ، لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات (١٨) •

* * *

أما «البلاغة» فان اصلها في وضع اللغة من الوصول والانتهاء ، يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ، ومبلغ الشيء منتهاه ، وسمى الكلام بليغا من ذلك ، اى انه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية •

والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني ، وهي اخص من الفصاحة ، كالانسان من الحيوان ، فكل انسان حيوان ، وليس كل حيوان انسانا • وكذلك يقال: كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا •

ويفرق بينهما وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو انها لاتكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة الواحدة لايطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما •

المصادر :

(١) شرح السعد = شروح التلخيص ١/١٢٣ •

(٢) البيان والتبين ١/١٢٦ • (٣) المصدر السابق ١/١٤٥ •

(٤) الصناعتين ٢٧ ، والسراة أعلى كل شيء ، وسراة مضافة الى قبائل ومواضع انظرها في القاموس ٤/٣٤٢

(٥) J.F. Genung, The Working Principles of Rhetoric. P.5.

(٦) عروس الافراح = شروح التلخيص ١/٧٥ •

(٧) دلائل الاعجاز ٣٥ • (٨) القاموس المحيط ٣/٤ •

(٩) هذه الفنون هي : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والاستشهاد والاحتجاج ، والمضاعفة ، والتلطف ، والمشتق • وانظر دراستها في صفحة ٢١٧ وما بعدها من الطبعة الثانية من كتابنا (ابو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية والنقدية) •

(١٠) الصناعتين ٢ • (١١) شروح التلخيص ١/١٥١ •

(١٢) الطراز ١/١١ • (١٣) حاشية الدسوقى على السعد ١/١٥١ •

(١٤) الصناعتين ٢٦٦ • (١٥) اعجاز القرآن للباقلانى ٢٠٧ •

(١٦) الطراز ٢/٣٥٤ • (١٧) أساس البلاغة ٢/٢٠٢ •

(١٨) تنظر تلك الاعتراضات مفصلة في صفحة ١١٢ وما بعدها من القسم الاول من المثل السائر بتحقيقنا •

رأي في المنهج النقدي للتاريخ

الدكتور جعفر آل ياسين

يتميز الفكر الديني في مرحلة التطور بكثير من الانحناءات التاريخية التي يثار حولها الجدل العقائدي على صوره المتباينة المتضاربة • ولعل المنحنى العام في واقعه لا ينهض الا على — كيفية — في الذهن تتلبس اوجها غريبة الاطوار كثيرة القلق ، تعتمد القياس الفردي تارة ، او النص الجلي تارة ، او الظرف السياسي والاجتماعي اخرى ، ملتزمة كل الالتزام ما يتعاور تلك جميعا من سلب وايجاب او خطأ وصواب •!

و (الحكم) هنا قائم على مدى حاسة الاجتهاد المستنبط من الرواية مضافا اليه النقد التاريخي للمنحنى ذاته •• وللمصطلح — في مرحلة التحقيق هذه — ميزة يفقدها المحدثون في كثير من تتبعاتهم ورواياتهم لان الحروفية — ان صح التعبير — يومذاك لم تكن مستكملة لادواتها بالمعنى العلمي الذي نريد • فكانت مضطربا للاهواء والزيغ والبدع ، فاقامت الدليل التاريخي على نقيضه ، او استندت فيه على حكم مبتسر فاسد الحدود ضعيف السند ••• ولسنا ننعى على اولئك المحدثين وقوفهم دون هذه — الحروفية — المعطلة ، فللتطور الذهني أثره البارز في التحقيق والاستيعاب ، وكان التطور يومذاك بعد في مرحلة لا يجوز له الحكم بمنطق العلم وآلته •

وبدت فكرة النقد هذه غب قرون عديدة وقد انغمرت فيها تلك المنحنيات التاريخية تحت وابل من النسيان والتجديف ، والوضع والمسخ ، بالرغم من انها ظهرت في كتب التجميع والنسخ اكثر اتساقا منها في مكان آخر • ! وهي — في طورها هذا — لم يمض عليها غير زمن يسير كانت تنتقل الحادثة خلالها على سبيل الاستظهار من ذهن الى ذهن ومن فم الى فم ، فيشذب منها «العامل الاجتماعي» جوانب مختلفة ، فيبعد ما شاء ، ويقرب ما شاء ، ويبرم ما شاء وينقض ما شاء •• ! • فبرزت تلك المنحنيات — مع ما ساوقها من الانحراف — اكثر التواء واكثر عمقا في

سيرها المواكب للحضارة القائمة عصر ذاك • فكان لها ان تعارض وكان لها ان تصفح وتعفو ، وكان لها ان تركن الى الصمت او تثور عليه • ولكنها في كل اولئك غلبت عليها المعارضة • فعارضت في طرفين مستقطبين طبيعتها المنطلقة من جهة ، والقوة الظاهرة عليها من جهة اخرى •• ففي الاولى اختارت فبذرت في اعقابها بوادر « التحيز » وهو عنصر لا تخلو منه العقائد في كثير من المذاهب الاجتماعية والدينية •• وفي الثانية دفعت بأصحابها او القائمين عليها الى الكتمان والسرية فاصطنعت بهما دليلا ومنهجا •• ! ولم تخل تلك المعارضة ـ على حديها المتقابلين ـ من طرافة وجدة اينعت ثمارها حين انحدرت في اعقاب الزمن خلال العصور فأثار حولها المعقبون من البحوث جانبا نقف اليوم منه موقف الدهشة والاعجاب ••

وكان لهذا التراث ـ العقائدي والفكري ـ في عصرنا الحاضر مجال للكلام عليه أكثر من غيره من الاتجاهات المعاصرة له لان الحديث عنه لم ينته بعد ، ونحمد له ذاك لان النهاية هنا جمود في العقل وتحجر في الذهن نربأ بهما عن حياتنا الناهضة الصاعدة التي نرجو لها ان تتفيأ ظلال التراث الضخم ، ملتزمة جانب الحيرة فيه معتبرة بحوادثه المتعاقبة ملتحفة عنصر النقد العلمي الموجه لنحياة الاجتماعية ، متجنبة الوسيلة المترهلة في قيام الدليل والبرهان ، متخذة صفة المنهجية الحكيمة في تخريج الحجة او اثبات النقيض •• و «التخريج» هنا لا يقوم كحكومة سليمة بذاته ، ما لم يتصل بناحيتين من نواحي الدراسة القائمة الان : اولاهما تبتني على التمحيص الداخلي للحادثة ونقصد بذلك الاعتماد على الواقعة التاريخية كما يحدثنا عنها ذووها واصحاب الحق فيها ، او كما اوردها المالثون لها(١) •• وثانيهما تنهض على التمحيص الخارجي للحادثة ان اعوز الدليل الاول قيام الثاني ، فنعتمد النص المناوىء له ظاهرا وباطنا • واكثر ما يتخذ السبيل الثاني طريقا لقيام برهان «الخلف» في تخريج الحجة او الدليل ، وهو منهج متبع في التحقيق التاريخي بصورة واسعة، وان لم يتقيد اصحابه غالبا بالطريقة العلمية •

وفي حال التحكيم هذه قد ينبو عامل التخريج الداخلي عن أخيه ، او يتناقض وما هو فيه ، فعند ذاك نرجع ـ ضرورة ـ الى كشف السند ورجاله فان كان لديهم من الاسانيد ما لا غمزة فيه من علمائهم ومحدثيهم اخذنا به ، وان فقدناها رجعنا الى العامل الخارجي نستمرىء خلاله الحل السليم •

ونحن نعلم ـ بادىء ذي بدء ـ ان الاسانيد لا تقوم دليلا كافيا عند جميع المتتبعين الا على سبيل الاخذ بما يذهب اليه الظرف المخالف للواقعة التاريخية ، ولا مندوحة من ذكرها والاقرار بمنحنياتها ملتزمين المنهج النقدي

الذى اسلفنا ٠٠ وحين نقرر تلك الصفة القلقة فى الاسانيد لا نريد الطعن فيها او الاجهاز عليها ، وانما لنسجل هنا صفة اخرى من نعوت البحث العلمي لا تنهض على الالتزام المطلق لكتب مسماة معينة لا حيدة للباحث عن نصوصها او الهرب من اساطيرها ٠٠ بل ندعو الى قيامه — اى النقد التاريخى — على حرية في الفكر غير معطلة ، واجتهاد لا يعتمد شواذ الحكايات ٠٠ !

ولنا ان ندفع هنا دفعا محكما قبل كل شيء فكرة الاسانيد ، تلك الفكرة التى ادعاها موءرخون لم يتثبتوا من الحقيقة التاريخية تثبتا صحيحا ، وانما اندفعوا باجتهاد يعتمد القياس فحسبوا أن هناك كتبا مسلسلة ورسائل معنعنة لا يستقيم بحث الفكر الا باعتمادها ولا يصح الا برواياتها ومخزوناتها ٠ والامر — في واقعه — خلاف ذلك ما دام النص الداخلى لتاريخ الفكر ينفى ذلك نفيا ظاهر الحجة سليم الادلة ٠ فلا مندوحة من نبذ الدعوى الآنفة الذكر مهما التزم بها المتزمتون من ناقدى التراث او دارسيه ٠٠٠ ونفيها هنا ينتهى الى ان الاعتماد على النص لا يتقيد بالتخريج الداخلى قدر تقيده بالتخريج الخارجي للرواية ، طالما ان المنهج لا يعترف بفكرة « الالتزام » ٠٠ ومن هنا ايضا كانت حرية التعبير عن الفكرة اكثر اتساقا وانطلاقا مما لو تقيدت بصحاح معتبرة او غير معتبرة ، وهى بحد ذاتها ركيزة — اعنى فكرة اللاالتزام — ينهض عليها التحكيم فى قيام التراث الاسلامى تاريخيا ومدى مدلوله واجتماعيته يومذاك ٠٠ حيث برز فى عصر كان يفقد كثيرا من التحكيم التاريخى (٢) الذى نعمل على قيامه اليوم فى دراساتنا للتراث السياسى والفكرى فى الاسلام ، بله لم يتميز العصر بعنصر الاتزان العلمي ما دامت الحضارة طفلة تحبو ، والدين الجديد لما يزل رقيق الجوانب فى قلوب الناكثين عليه او المرتدين عنه ٠

★

ويقف الناقد ازاء الموءرخين لذلك التراث فيلمس ان موءرخا يستقرىء فينتهى به استقراوءه الى رأى ثابت لا يحجم دونه ويقين لا يحيد عنه ٠٠ وان موءرخا يقرأ فلا تتعدى قراءته منافذ اذنيه ٠٠ وان موءرخا يستنبط وفى استنباطه اجتهاد يجلب الحيطة فى موقفه ، فلا يقر الحوادث اقرارا يقينيا ، وانما يتمسك بمنطق الاحتمال حرصا منه على منهجية النقد ٠٠ وفى جميع هذه لا يخرج القارىء — اى قارىء — الا بمجموعة من المفارقات : مفارقة فى الفكر ، ومفارقة فى التعبير ، ومفارقة فى المنهج والدليل ، ومفارقة فى الوسيلة والغاية ٠٠ !

والتاريخ — اى تاريخ — لا ينهض الا فى ظل المفاهيم الحضارية التى يلزمها المكان الثابت ، والزمان المحدد ، وفى كليهما لا مناص من التاثر والتاثير «بالظرف» القائم والاخذ بعامل الايحاء والركض وراء «النفعية» :

النفعية الحضارية التى تواكب جيلا من الناس فى عصر من عصور اليقظة او الانحطاط • ونحن نلحظ ان تاريخنا او موسوعاتنا ـ حصرا للتخصيص ـ تلتزم جانب هذه المفارقات التزاماً يكاد لاينجو منه مؤرخ في آبد الدهـر وحاضره • ولعل التزامهم الشديد في تدوين التاريخ على شكل « الحوليات » أو العرض المتتابع لحوادثه كان هو عنصر القلق الغالب على لوائحهم تلك ، وهو ما يدعو الى الحذر والتريث في الاخذ عنهم أخذاً «اخباريا» صرفاً لايمت الى منطق الحوادث بسبب او نصيب •• !

ففي استعراضنا لحوادث التأريخ Historiagraphy واصوله تبرز لدينا « مفاهيم » معينة نود الاشارة اليها لينهض النقد التاريخى على سبيل من التقدير العلمي الدقيق والاستيعاب الذهني الشامل ، وليتسنى لنا اخيرا الجرأة بعض الشيء على أن نضـع ـ على سبيل التقرير فحسب ـ فكرة « القانون » في التاريخ موضع النظر والتحليل ••

(أ) ـ يلمس المتتبع للتاريخ (قديمه وحديثه) صفة «الاسترسال» النقلي عند مؤرخة الحوادث مما يجعل الهدف او الغاية تخرج عن حـال «كينية» في البحث الى حال « كمية » تستنزف الجهد الجهيد والحيـوية والوقت في تجميع ونقل واسعين • فتأتي صفة الاسترسال هذه متضمنة الغث والسمين ، والضعيف والرصين ، والمترهل والمتهافت ، وتحتمـل الصدق والكذب ، والقبول والرفض ، والنقض والابرام !••

وينهض الجدل حينذاك على اصول معينة من «اللفظ» و « المجاز » يذهب في التفسير على سبيلهما مذاهب شتى لاتنتهى الى حقيقة علميـة سليمة الاخذ ، مستساغة الدليل ، لان وجهة النظر تستلزم ادوات مـن البحث لاتتوفر لدى ناقدى التاريخ على سبيل «لفظه» و «مجازه» ، بـل تدفعهم الى التزام نقدية « الجدل » التي تقوم على جانب شكلي من المشكلة فحسب !•• ونحن لانعدم «الدليل ـ قديما وحديثا ـ حين نقرر صفـة الاسترسال هذه : فالطبرى مثلا وهو من ائمة المؤرخين غير منـازع ، لايحجم ولا يتورع احيانا من الاعتماد على رواة ضعاف الادلة تنقصهـم الخبرة والتفهم العميقين ، مما لايصح بوجه الاخذ عنهم والسير في ركابهم على اننا في الوقت ذاته نكبر المؤرخ الطبرى على امانته ـ غالبا ـ في النقل بالرغم من التناقض الفاضح في حوادثه ورواياته • يضاف الى ذلك افتخار المدونين أو المتحدثين ـ يومذاك ـ بقوة الذاكرة والاعتماد عليها اعتمـادا لاحيدة عنه ، وقد ادى الاعتماد عليها ـ غاية الشوط ـ الى ضبط عجيب في السرد لايستقيم معه منطق ولا يقره عقل سليم •• حيث لم يتـورع المتحدث حين يتحدث من الاندفاع نحو ميثولوجية خارقة للفكر متأثـرة غالبا بحياته الخاصة او ظروفه الشاذة تأثرا ترتسم معالمه على اصـول التاريخ ذاته •• ولسنا الان في سبيل الحصر او التعميم ، فلهذا البحث

مظانه في المقالات القابلة • ولكننا ننعى لدى البعض روح الوثاقة التامة في الكتب والاسانيد ـ كلا وجزءا ـ على ما فيهـا من بوادر اسطورية بحت • !

(ب) ـ من الامور الملزمة التي يجب تقريرها من الناحية المنهجية حين نهدف الى التفهم الصحيح للتاريخ (تاريخنا بالذات) هو لـزوم التحرز الشديد ، والترفع عن الذاتية الضيقة والاخذ بالموضوعية ،والتزام اليقظة التامة في دراسة النصوص وتفحصها ومقارنتهـا ، واستنباط الضعيف والمترهل منها ، لانها ـ كما اسلفنا ـ لم تدون تدوينا علميا يفرض عليها الاخذ بالصحيح الصحيح من التاريخ ، بل قصد اصحابها الى الاكثار من الجمع دون التفاتهم الى التقابل الذي يلحق التاريخ عند نقده نقدا منهجيا سليما •• والموسوعات التاريخية على كثرة ما تورده من اسماء معنعنة واحاديث مسلسلة ، تبرز لديها هذه الصفة جلية لاتشوبها شائبة الشك او الريب ، فمثلا يروى ان هماما بن منبه اليمنى شقيق وهب بن منبه كانت هوايته المتاجرة بالكتب والتظاهر بالعلم ومعرفة الامم آبدها وحاضرها ، فدفعت به هذه الهواية الى دس كثير من الاسرائيليات في كتب المسلمين ، فظهرت هذه الملفقات بعد حين من الزمن وكأنها جزء من التاريخ العام ، تأثر بها عامة المدونين ، وكانت مجال جدل واسع بين اصحاب المذاهب من المسلمين انفسهم(٣) •• والتماس مسببات هـذا «التغافل» عند مؤرخة الحوادث يظهر لنا ضعف المنهج العلمي وبساطة ملكة النقد لديهم وعدم قدرتهم على تعليل الحوادث او النفاذ الى اسرارها فيما كتبوا ودونوا •• حتى الفكر الاسـلامي المتفلسف لم يخل ـ على ابتداعيته ـ من التأثر بهذه الناحية من التدوين حيث ذهب اصحابه الى حشر اراء ونظريات تتناقض وماهي فيها » ومن هنا ظن الناس بهم ظن السوء ، فرجموهم بالمروق ، ورموهم بالالحاد واتهموهم بالهرطقة ••• ولكن عذر مؤرخة الحوادث يومئذ ان الزمن لم يتسع بعد لسبك هـذا الترهل التاريخي الكبير لذا جاء التدوين متسما بهذه السمة «اللفظية» في نقل نص ، او تدليل على حديث ، او عرض رأي •

(جـ) ـ ومن ثمة نجد ان التدوين لم يقتصر على التجاوز الواسـع في السرد والحكاية بل كان يركن في كل اولئك الى عاملين لهما اثرهمـا البالغ في تقرير ما نذهب اليه في موقفنا هذا :

اولهما : ان الحقيقة التاريخية كانت تستتر احيانا في كنف عاطفة شخصية بحت ، تتعاورها عوامل نفسية فجة تسيطر على الاذهان فتتحكم بارادتها وميولها واتجاهاتها ، وقد تلتوي بها السبل فتركب مركبا صعبا يورد اصحابه الهلكة • وبهذا كثر التقول والوضع والاختلاق وتضاربت

الافكار وتصارعت ذهنيات المدونين ، وانتفجت ذاتيات الافراد على نفسها تلمز بعضها بعضا بالتعصب والتعنت والبهتان ، فخلف لنا هذا تراثا واسعا من المفارقات يكاد المرء يخشى قول الحق فيه ٠!

ثانيهما : قيام السلطة بطمس اية محاولة للتدوين تتنافى وسياستها التي تتبأور حولها ، وقد يدعوها ذلك الى استعمال القوة والعنف أحيانا والوعد والوعيد احيانا اخرى ٠ وليس ببعيد امر المأمون ـ الخليفة العباسي ـ يوم قرع ظهور الناكثين بحقيقة خلق القران بسياط الهبت العصب والجلد من ابدانهم ، وليس ببعيد أيضا الموقف المناوىء لهذه الحركة والذى ظهر على ايدى المحدثين من بعده ٠٠ وبهذا تباينت اوجه الحكم وسلطان القائمين عليه ٠ ولعل فى القتل السياسى في الاسلام ما يظهر بعضه شيئا من حقائق هذا الامر الذي غلب المؤرخة سلطانه ونفوذه يومذاك ٠٠

★

وننتهى هنا الى ان المشكلة القائمة بين ايدينا (اعني منهج النقد التاريخي) لن تتخذ لنفسها حلا ثابتا معينا او علاجا خاصا ، لانها تنهض على تشعب واسع المدى ، بعيد الافاق عميق الجذور ، موغل في القدم ، فلابد ان يكون العلاج ايضا متشعبا ، ولا يصح ـ بوجه من الوجوه ـ ان تكون « الاداة » مبررة للغاية التي تهدف ، لان الوسيلة الطيبة لن تنتج الا غاية طيبة والعكس بالعكس ٠٠ ومن هنا فمنهجية الشك أمر تحتمه الضرورة العلمية لتفهم التاريخ ، ولكنه الشك القائم على الاعتراف بوجود الحقائق من حيث ارتباطها الوضعي والزمني في المدلول العام لها ، لا الشك الذي يحيل المنهجية الى سفسطة لا طائل من ورائها ولا نهاية لاتكارها : فالاول منهج من مناهج المعرفة الانسانية السليمة ، بينما الثاني تحكم اعتباطي على العلم وطرائقه ٠

وعند ذاك ـ وفي مرحلة كهذه ـ سنلمس قيمة البحث التاريخي ونوعيته القائمة على «كيفية» الاستيعاب ، لا على «كمية» التدوين والاستصحاب ٠

---

(١) ستوضح ذلك في فقرة اخرى عن « منهجية الشك في دراسة التاريخ » في عدد قابل من المجلة ٠

(٢) قد يستثنى من هذا قلة من اولئك المؤرخين ، نذكر في مقدمتهم مثلا ابن خلدون والبيروني ٠

(٣) يراجع : تهذيب التهذيب ـ ٦٧/١١ ٠

أثر الترجمة في تطور الفكر العربي الإسلامي

سليم طه التكريتي

يجمع المنصفون من دارسي الثقافة العربية الاسلامية في مختلف عصورها على الاعجاب بهذه المنزلة الرفيعة التي بلغها العرب المسلمون في الميدان الحضاري الانساني ، وبما قدموه للبشرية من تراث خالد كان من اقوى البواعث وامتن الاسس التي قامت عليها المدنية العالمية الحاضرة •

وتعد حركة نقل العلوم والآداب من اللغات الاخرى الى اللغة العربية والافاضة في شرحها والتعليق عليها ثم محاكاتها بافضل منها ، من أهم العوامل التي مهدت لتلك النهضة الشاملة التي بلغها العرب المسلمون في فترة وجيزة مما كان مدعاة فخر واعتزاز لهم بين مختلف الاقوام التي عاصرتهم •

كانت حركة التعريب من اللغات الاخرى قد بدأت في العهد الاموي ثم وصلت اوجها في العصر العباسي الاول • ذلك لان العرب المسلمين كانوا في العصر الاسلامي الاول ، عهد الخلفاء الراشدين ، قد اوقفوا كل جهد لديهم في تثبيت دعائم الدين الحنيف وارساء قواعده والعمل على نشره •

ونظرا لما اقتضته عملية نشر الدين الاسلامي من استعدادات وما تطلبته من طاقات تمثلت في التصدى للاقوام والممالك التي رفضت تقبله واشهرت الحسام بوجهه ، فقد كان من الصعب ـ والحالة هذه ـ على العرب المسلمين ان يبذلوا الاهتمام اللائق بالعلوم التجريبية كالطب والفلك والفلسفة والكيمياء وغيرها •

على ان العرب المسلمين كانوا في غمار الزحف المقدس لنشر الاسلام يعملون على نشر العلم والمعرفة في كل بلد يحلون فيه • « فقد كان العلم يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطأته قدم الفاتح العربي » •

حتى اذا اتسعت رقعة الامبراطورية العربية الاسلامية ، واستقرت الاوضاع فيها ، وانصرف الناس الى الاعمار والانشاء ، وجه العرب المسلمون انظارهم نحو الثقافات العريقة المعروفة في ذلك الوقت وعلى رأسها الثقافة اليونانية والفارسية والهندية • فلم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت للدولة العربية الاسلامية منظمات تعليمية تنتشر في كل ارجاء العالم

المستعرب • وحين حل القرن التاسع كان العلماء في مدارس الاندلس يتراسلون مع اخوانهم علماء بغداد والقاهرة وبخارى وسمرقند ، وبذلك تمت للعرب في حقول العلوم الطبية والرياضية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم •

والحقيقة ان التزاوج الفكري الذي حدث بين العرب المسلمين واقوام البلدان التي افتتحوها ، واطلاعهم على ما لدى تلك البلدان من حضارات قد استلزم وجود حركة نقل واسعة من اللغات الحية آنذاك الى اللغة العربية •

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك ضرورة أخرى اقتضت ظهور حركة الترجمة هذه ، ونعني بها ضرورة الدفاع عن الاسلام بوجه الافتراءات التي كان بعض علماء اليهود والمسيحيين يوجهونها الى الدين الاسلامي ، اذ وجد المسلمون انفسهم ازاء ذلك مضطرين الى اصطناع علم الكلام والمنطق لتفنيد تلك الاتهامات ودحرها وتفسير مبادىء الاسلام وتوضيح اغراضه ومراميه • ذلك ان المسلمين أخذوا يهاجمون المفترين من النصارى واليهود والمجوس بنفس سلاحهم واساليبهم •

لقد مرت حركة الترجمة الى اللغة العربية في مرحلتين رئيستين تبدأ الاولى منهما بالعصر الاموي وتنتهي باعتلاء المأمون عرش الخلافة في بغداد • اما المرحلة الثانية فانها تبدأ بالمأمون والخلفاء الذين جاؤوا من بعده مباشرة •

وتتميز المرحلة الاولى من مراحل الترجمة بظهور مترجمين مستقلين معظمهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من معتنقي الديانات الاخرى الذين دخلوا الاسلام • ففي هذه المرحلة بدأت حركة النقل عن اللغتين الاغريقية والفارسية بصفة خاصة • غير ان ما تم نقله في ذلك الوقت لم يسلم من يد البلى والضياع •

وكان اول من عني بالترجمة في العصر الاموي هو خالد بن يزيد بن معاوية الاموي المتوفى سنة خمس وثمانين هجرية فبعد ان غلبه على الخلافة مروان بن الحكم ،، انصرف خالد الى العلوم ولاسيما الكيمياء فاستقدم جماعة من مدرسة الاسكندرية لتعليم الكيمياء ونقلها الى العربية • وقد تم ذلك على يد واحد من علماء مدرسة الاسكندرية يدعى اسطيفان القديم وكانت تلك أول عملية ترجمة من لغة اجنبية الى العربية حدثت في الاسلام •

وقد انتعشت حركة الترجمة مجددا على يد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور الذي امر نفسه بنقل عدد من الكتب من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية الى اللغة العربية • فكان عبدالله ابن المقفع أول المترجمين الذين ظهروا في عصر المنصور اذ نقل الكتاب المعروف « كليلة ودمنة » من الفارسية القديمة الى العربية في حين ان اصل هذا الكتاب كان قد وضع باللغة السنسكريتية ومن المترجمين أيضا الطبيب النسطوري جورجيس ابن بختيشوع الذي جلبه المنصور من مدرسة جنديسابور وجعله طبيبا له • ومنهم أيضا الفضل بن نوبخت الذي نقل عدة كتب عن الفارسية ، و « منكة »

الهندي و « ابن دهن » الهندي أيضا وكانا ينقلان عن الهندية الى العربية ·

اما المرحلة الثانية فقد تركزت فيها الترجمة بصفة رسميه في مدرسة خاصة اسسها الخليفة العظيم أبو عبدالله المأمون بن هرون الرشيد ببغداد سنة ٢١٧هـ ٨٣٢م واطلق عليها اسم « بيت الحكمة » واعدها لعملية الترجمة ، وهيأ لها الفطاحل من المتضلعين باللغات الاغريقية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية والعبرية وغيرها الى جانب اللغة العربية ·

وقد وضع المأمون « بيت الحكومة » تحت اشراف الطبيب والمترجم البارع يحي بن ماسويه المتوفى عام ٢٤٣هـ ٨٥٧م · وكان هذا العلامة يؤلف بالسريانية والعربية وملما الماما واسعا بالاغريقية · وقد اشتهر بكتابه الطبي عن « الحميات » الذي ترجم فيما بعد الى عدة لغات ·

ومن اشهر اساتذة مدرسة بيت الحكمة هذه في الترجمة الطبيب ابو زيد حنين بن اسحق العبادي الحيري المتوفي سنة ٢٦٣هـ ٨٧٦م وقد ترجم كتبا عديدة في الطب · ويأتي بعده ابنه اسحق وابن اخته حبيش · ثم هناك أولاد بختشيوع النسطوري ، وآل ماسرجويه اليهودي ، وآل ثابت الحراني الصابئي ، ويحي بن عدي التكريتي المتوفى سنة ٣٦٤هـ الذي راجع كثيرا من الترجمات ودققها كما ترجم كتب ارسطو في المقولات والشعر والميتافزيقيا، وترجم قوانين افلاطون وتعليقات الاسكندر الافروديسي على المقولات وغيرها ، ومنهم أبو علي عيسى بن زرعة اليعقوبي المتوفى عام ٣٩٨هـ وكان هؤلاء وغيرهم من امثال قسطا بن لوقا البعلبكي ، وأبو بشر متى بن يونس وموسى بن خالد قد نقلوا ترجماتهم عن اليونانية والسريانية في حين نقل ابن وحشية عدة كتب عن النبطية اكثرها في الفلاحة والزراعة ، بينما نقل ابن المقفع وآل نوبخت واولاد خالد والحسن ابن سهل ترجماتهم عن الفارسية ·

ولقد بلغ عدد الكتب التي تم نقلها الى العربية في العصر العباسي الاول بضع مئات منها حوالي مائة كتاب عن الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات نقلت عن الاغريقية وتضمنت مؤلفات ارسطو وافلاطون وابقراط وجالينوس وارخميدس واقليدس وبطليموس وغيرهم · وهناك زهاء عشرين كتابا في التاريخ والادب نقلت عن الفارسية ونحو ثلاثين كتابا في الطب والفلك والرياضيات نقلت من السنسكريتية بينما نقل حوالي عشرين كتابا عن النبطية اكثرها في الزراعة ومثلها عن السريانية والعبرية في مختلف العلوم والفنون ·

ولقد اجمع مؤرخو العرب القدامى على ان حذاق الترجمة بالاسلام اربعة هم حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحق الكندي ، وثابت بن قره الحراني ، وعمر بن فرخان الطبري ·

* * *

يبدو الأثر الذي تركته حركة النقل عن اللغات الاخرى في تطوير الفكر

العربي الاسلامي واضحا في ميادين عدة طرقها الباحثون العرب فتوسعوا فيها وابدعوا بما جاؤوا به من مفاهيم جديدة وبما اضافوه من شروح وتفسيرات مستحدثة اكسبتها عنصر السمو والتفوق ٠

ولقد كانت الفلسفة اول ميدان فتحته الترجمة أمام الفكر العربي الاسلامي ليجول فيه ويصول وليأتي بالرائع من النظريات والآراء فالمتفق عليه بين دارسي الفلسفة العامة ان حظ العرب من العناية بالمسائل الفلسفية قبل ظهور الاسلام كان ضئيلا يكاد لا يذكر وقد بقي الوضع كذلك طيلة العصر الاسلامي الاول ٠ ومع انه كان بين العرب عدد من الحكماء الا ان هؤلاء لم يبلغوا المرتبة التي يمكن فيها لغتهم بالفلاسفة أو ايجاد نوع من التفكير في الموضوعات التي طرقها الفلاسفة الاقدمون من اغريقيين وفرس وهنود وغيرهم ٠

كان اول ما عرفه المسلمون من الفلسفات القديمة هي فلسفة ارسطو وذلك عن طريق نقل مؤلفات ارسطو بكاملها عن الاغريقية الى اللغة العربية وكان من نتائج ذلك ان الذين اطلعوا على الفلسفة اليونانية أو الفارسية من العرب المسلمين لم يكتفوا بهضم ما قرأوه واستيعابه حسب بل انهم وضعوا له الشروح المطولة ، واضافوا عليه اضافات واسعة ، ثم جاؤا بنظريات جديدة بعضها يتمم ما جاء به فلاسفة اليونان والفرس ، وبعضها الآخر يعارضه ويظهر بطلانه وزيفه ٠ وبهذه الصورة ظهرت طبقة جديدة من الفلاسفة العرب المسلمين في المشرق والمغرب لعبت دورا خطيرا في تأريخ الثقافة العربية الاسلامية ٠ فهؤلاء الفلاسفة المسلمون لم يكتفوا ببعث الفلسفات القديمة وتجديدها حسب بل انهم فتحوا السبيل أمام نمو الفرق التي ظهرت في العالم الاسلامي وتطوير مبادئها وتعدد آرائها كما تشهد بذلك حلقات الجدل العديدة التي كان الفلاسفة المسلمون يعقدونها في بغداد وقرطبة والقاهرة والمؤلفات الكثيرة التي وضعوها في هذا المضمار ٠

ولقد قامت الفلسفة الاسلامية على ركائز خاصة تمثل الموضوعات التي كانت تتناولها والتي كان من اهمها مشكلة الوجود ، والصلة بين الله ومخلوقاته وقضية التوفيق بين الوحي والعقل ، والعقيدة والحكمة والدين والفلسفة ٠ كان الفلاسفة المسلمون قد تأثروا في هذه المسائل باراء ارسطو وافلاطون الى حد كبير ذلك ان كشف آثار اليونان الفكرية من جديد عن طريق الترجمات التي قام بها العرب كان له اعمق الاثر واقواه في التفكير الاسلامي كما كان من العوامل المؤثرة في ايطاليا خلال عصر النهضة أيضا ٠ فقد أدى هذا الكشف الى عالم جديد كان الناس يفكرون خلاله في الله ومخلوقاته ولا يخشون ان يصيبهم أي أذى بسبب تفكيرهم هذا وقد ظهر تأثير فلسفة ارسطو في الفلسفات التي وضعها كبار فلاسفة الاسلام من امثال الكندي (١٨٥ ـ ٢٥٢هـ = ٨٠١ ـ ٨٦٧م) والفارابي (٢٥٩ ـ ٣٣٩هـ = ٧٨٢ ـ ٩٥٠م) وابن سينا (٣٧١ ـ ٤٢٨هـ = ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) وابن

طفيل (٤٩٨ ـ ٥٨١هـ = ١١٠٢ ـ ١١٨٥م) وابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ = ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) وغيرهم ٠

ومع ان الفلسفة في الاسلام قد ظهرت في الاصل على ايدي المعتزلة الذين حاولوا التوفيق بين العقل والدين واطلقوا على محاولتهم تلك اسم « علم الكلام » الا ان الفلسفة الاسلامية لم تتطور الا بعد اتساع حركات النقل عن اللغات الاخرى حيث شرعت تعالج ليس الموضوعات التي عالجها ارسطو وافلاطون حسب بل وكثيرا من الموضوعات التي لم يتطرق اليها فلاسفة الاغريق أو غيرهم ٠ فقد تناولت الفلسفة الاسلامية مثلا ذات الموضوعات التي تناولتها الفلسفة الاغريقية كفكرة الآله ، والصلة بين الله والعالم ، ومسالة النفس وخلودها وكان في مقدمة الفلاسفة المسلمين الذين عنوا بهذه المسائل ابن سينا وابن رشد وابن طفيل وابن مسكويه الذين وضعوا فيها المؤلفات الخطيرة المتعددة ٠ غير ان الفلاسفة المسلمين تعدوا هذه الموضوعات الى اخرى غيرها كانت لها خطورتها بالنسبة للدين الاسلامي ولها أهميتها الكبرى في التفكير الانساني كمسالة النبوة ومسالة السمعيات حيث كان أبو نصر الفارابي أول من سبق الفلاسفة المسلمين الى بحث هاتين المسألتين الخطيرتين ٠

اما ابن سينا فانه لم يكتف بشرح آراء ارسطو والفارابي في موضوع الصورة ، والعلل الاربع والممكن والواجب ، والواحد والمتعدد حسب بل جاء بنظريات جديدة فيما يخص العقل والنفس فهو يفترض وجود « وسيط » هو العقل الفاعل الذي ينتشر في العالم السماوي والعالم المادي والعالم البشري وهو النفس ٠

والحقيقة ان اول اثر للترجمة في الفلسفة الاسلامية قد ظهر في الجدل الذي ثار في عهد المأمون حول القول بخلق القرآن ٠ فمع ان المعتزلة كانوا ينكرون قـدم القرآن الا انهم لم يجرأوا على القول بخلقه كما حدث ذلك فيما بعد ٠

وهذا التأثير الذي احدثته الترجمة في الفلسفة الاسلامية وتطويرها يبـدو ظاهرا في تلك الاعداد الهائلة من الكتب والرسائل التي وضعها الفلاسفة المسلمون عن المسائل الفلسفية ولاسيما الفلسفة الاغريقية وشروحها ومناظراتها ٠ فالكندي مثلا وضع اثنين وعشرين كتابا في الفلسفة كلها تعالج فلسفة ارسطو. اما الفارابي فانه هو الذي ضبط كتب ارسطو وعينها وشرحها وقد بقي من مؤلفاته تسعة وثلاثون كتابا جلها شروح لنظريات ارسطو وتعليقات عليها ، ووضع ابن رشد أكثر من عشرين كتابا في فلسفة ارسطو واراء جالينوس وابقراط في الطب بالاضافة الى معارضاته العديدة وشروحه الكثيرة لنظريات الفارابي وابن سينا والغزالي ٠ وكتب « ابن باجة » (المتوفى سنة ٥٣٣هـ ١١٣٨م) كتبا عديدة في شرح فلسفة ارسطو وهو الذي نقى الفلسفة الاسلامية من الميول الصوفية وانقذها من الجدل ٠

ومثل هذا فعل ابن طفيل في كتب عدة كلها شروح وتعليقات ومناظرات لفلسفتي ارسطو وافلاطون . هذا فضلا عن رسائل اخوان الصفا الشهيرة التي تضمنت مختلف أصناف العلوم العقلية ومنها الفلسفة التي كانوا يعتبرونها اشرف علم ينبغي للانسان ان يتعلمه .

وكان الطب هو الميدان الثاني الذي أحدثت الترجمة تطورا هائلا فيه ظهر اثره في ذلك العدد الضخم من فطاحل الاطباء الذين احتوتهم الأقطار العربية الاسلامية سواء في عهد بن العباس في المشرق أم في حكم بني أمية في المغرب . كما يبدو هذا الأثر أيضا في وفرة الكتب والرسائل الطبية التي تم نقلها الى اللغة العربية من اليونانية والهندية والسريانية والعبرية وغيرها .

والواقع ان المام العرب بالامور الطبية قبل نضوج حركة الترجمة لم يكن يذكر غير انه ما ان بدأت حركة الترجمة تشتد وتتوسع حتى نقل العرب كل ما وصل اليهم من مؤلفات عن الطب والأدوية بل ان اوائل المترجمين الى العربية كانوا أنفسهم من الأطباء ومنهم جورجيس بن بختيشوع الذي جاء به الخليفة المنصور الى بغداد من مدرسة جنديسابور ، ثم تلميذه عيسى بن تاكربخت الذي وضع كتابا في العلاج . ومنهم ايضا جبرائيل بن جورجيس الذي كتب للمأمون متناً في الطب وضع أسسه على المعلومات الطبية التي كتبها كل من جالينوس وديوسكورس وبولس الايجيني ، ومنهم ايضا يحيى ابن ماسرجوين اليهودي الذي أشرف على المدرسة الطبية التي انشئت في بغداد ويقول المستشرق البريطاني « ديلاسي اوليري » في كتابه « مكانة الفكر العربي في التأريخ » « وقد انحصر البحث العربي في الطب مدة طويلة في ترجمة ماكتبه الأغريق ... ومر وقت طويل قبل أن تخرج الجماعة الناطقة بالعربية مؤلفين أصلاء في الطب ... حيث كان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي هو أبو الطب العربي الحقيقي » .

ولقد أقبل العرب على ترجمة جميع مؤلفات جالينوس وابقراط وافلاطون واسقيلبوس وايرقلوس وغيرهم . وكانت هذه الكتب المترجمة وفيرة العدد تناولت مختلف المسائل الطبية المعروفة في ذلك العهد سواء ما تعلق منها بالأمراض أو العلاجات أم الأدوية . ولقد ذكر الطبيب المؤرخ ابن أبي اصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ٦٠٠ ـ ٦٦٨ هـ في كتابه الشهير « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » مئات الكتب والرسائل الطبية التي تمت ترجمتها الى اللغة العربية . وذكر ان شيخ المترجمين حنين بن اسحاق العبادي المتوفى سنة ٢٦٣ هـ ٨٧٦ م قد ترجم زهاء مائة كتاب ورسالة من مؤلفات جالينوس الطبية وحدها ، وان مترجمين آخرين غيره قد ترجموا اكثر من ستين كتابا ومقالة في الطب لابقراط ومثل هذا العدد يمكن أن يذكر عن بقية مؤلفات أطباء الكلدان والسريان وغيرهم .

ولقد فتحت هذه الترجمات مجالات واسعة أمام طلاب العلوم الطبية من العرب والمسلمين فقد أكب هؤلاء على تلك الترجمات يدرسونها ويشرحونها

ويصححون الأخطاء الواردة فيها ثم يمتحنون ما قرأوه فيها بصفة عملية . ذلك ان التجربة كانت الاساس الأول الذي بنى عليه الأطباء العرب بحوثهم ومعالجاتهم لمختلف الأمراض الشائعة ولتحضير متنوع الأدوية . ويكفي أن يطالع المرء كتاب طبقات الأطباء ، وكتاب تراجم الحكماء للقفطي وكتاب كشف الظنون لاوليا چلبي ليتعرف الى ذلك العدد الهائل من أطباء العرب وصيادلتهم ومؤلفاتهم ورسائلهم في هذا الفرع . فقد احصي عدد الاطباء في زمن الخليفة المقتدر بالله العباسي في بغداد وحدها فظهر ان عددهم كان يبلغ ثمانمائة وستين طبيبا اشتركوا للامتحان في نيل اجازة الطب هذا فضلا عن مشاهير الأطباء الذين لم يجر امتحانهم وعن أطباء الخلفاء وأولادهم .

ولقد كان العرب أول من اتبع طريقة التخصص في الطب فكان منهم أطباء الجند وأطباء النساء وأطباء المجانين وأطباء الخلفاء والوزراء . وكانوا على صنوف أيضا منهم الجراح والكحال والاسناني والفاه وغيرهم .

وكان العرب أول من وضع المؤلفات الطبية المصورة وقد قلدهم الاوربيون في ذلك مؤخرا . وكان من نتائج هذه النهضة الطبية التي أعقبت حركة الترجمة أن تأسست المستشفيات العديدة في مختلف الأقطار الاسلامية وقسمت الى أقسام بعضها للدرس والبعض الآخر للتطبيب والمعالجة ولم يقتصر تعليم الطب على الرجال وحدهم فقد أنشأ السلطان الظاهر سنة ٦٨٤ هـ في القاهرة جامعة خاصة للنساء تدرس فيهما علوم الطب والطب الشرعي الى جانب الآداب والفلسفة والمنطق . وظل الاوربيون يجهلون المستشفيات الى أن اقتبسوها من العرب بعد اتصالهم بهم في القرن الثالث عشر الميلادي خلال الحروب الصليبية . وفضلا عن ذلك ظل نظام الصيدلة الاسلامي متبعا في أوربا حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي . ويقول « جوزيف ماك كيب » في كتابه « مدنية العرب في الأندلس » ما نصه « وحين كانت أوربا في الحضيض الأسفل كانت خدمة الاطباء العرب العملية قد ارتفعت الى مستوى عال » .

وعلى الرغم من الحرج الشديد الذي جابهه الاطباء العرب في مسألة تشريح الأجسام الحيوانية والبشرية فقد مارسوا عمليات التشريح هذه . وقد ثبت بشهادة الأجانب ان العرب هم أول من استعمل المرقد والكاويات في الجراحة ، والافيون في التخدير ، والماء البارد لقطع النزيف ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر . وكذلك كان العرب أول من جرب عملية تفتيت الحصاة وأول من كتب عن الجذام والحصبة والجدري ، وهم الذين وضعوا أسس فن الصيدلة . وكان الرازي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل والزهراوي وابن زهر وابن عبدون وابن حفصون وابن الياس والكناني وابن البغونش على رأس الذين اشتهروا في الطب والادوية .

فأبو بكر الرازي (٢٤٠ ـ ٣٢٠ هـ = ٨٤٥ ـ ٩٣٢ م) كان نابغة زمانه في الطب وقد جمع في كتابه الشهير « الحاوي » معظم ما ترجم عن طب

جالينوس وابقراط كما الف الرازي حوالي مائتين وعشرين كتابا ورسالة في الأدوية والأمراض والتشريح وغيرها · أما ابن سينا (٣٧١ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ـ ١٠٣٧ م) فان كتابه الفذ « القانون » كان أهم مصدر لدراسة الطب في جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادي ·

وقد سبق ابن سينا العالم الفرنسي « لويس باستور » في اكتشاف البكتريات بقرون عديدة كما اكتشف مرض الانكلستوما قبل أن يكتشفه العالم الايطالي دوبيني بتسعمائة سنة · وابن سينا هو اول من وصف التهاب السحايا وأشار الى عدوى السل الرئوي ·

أما ابن الوافد الأندلسي (٩٩٧ ـ ١٠٧٤ م) طبيب مستشفى طليطلة فهو اول من ابتدع طريقة العلاج على أساس النظم الغذائية واشهر مؤلفاته في الطب كتابه «الأدوية البسيطة» واشتهر أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (١٠١٣ ـ ١١٠٦ م) في فن الجراحة وهو أول من كتب في طب الأسنان وتشوهات الفم وجرب عمليات تفتيت الحصى واستخراجها بالشق ومعالجة الجروح بمحلول ماء الملح · كما انه سبق (ابروزاباري) في ربط الشرايين بالحبال واكتشف داء المزاج النزفي وقال عنه انه عائلي ووراثي ·

أما ابن زهر الاشبيلي المتوفى سنة ١١٦٢ م فقد ثار على طريقة جالينوس وابتكر طريقة جديدة في العلاج وهو أول عالم ظهر في الطفيليات ·

وكان ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) أول من اشار الى الدورة الدموية اشارة علمية في كتابه « الكليات » بينما استطاع ابن النفيس (٦٠٦ ـ ٦٨٧ هـ) ان يكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يدعي العالم الفرنسي سرفيانوس هذا الاكتشاف بثلاثة قرون · هذا بالاضافة الى مكتشفات ابن المجوسي وعيسى بن علي وابن جزله وغيرهم ·

* * *

وامتد تأثير حركة الترجمة الى العلوم الأخرى كالفلك والطبيعيات والرياضيات فالترجمات التي توفرت عن هذه العلوم من التراث اليوناني والهندي والكلداني والسرياني قد مكنت العلماء العرب من توسيع مداركهم في هذه العلوم ، ومن الافاضة في البحث والاستقصاء عنها · وكما كان شأن العرب في الفلسفة والطب فانهم لم يكتفوا بما اتقنوه من علوم الأمم السابقة لهم في الفلك والرياضيات والفيزياء حسب بل زادوا عليه كثيرا وابدعوا العديد من النظريات والمكتشفات مما كان أساسا للمخترعات التي توصل الغربيون اليها فيما بعد ·

ففي ميدان الفيزياء استنبط العرب طرقا جديدة واخترعوا آلات دقيقة حسبوا بها الثقل النوعي للسوائل والجوامد ، وضغط الهواء والماء · كما عرفوا الجاذبية وتأثيرها · وبز العرب أسلافهم في البصريات ويعد الحسن ابن الهيثم (٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ = ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م) أعظم عالم ظهر في العلوم الطبيعية خلال القرون الوسطى وهو منشيء علم الضوء الحديث

ومكتشف النظرية العلمية في البحث والتحليل ، وان جميع الذين ظهروا في اوربا واشتغلوا بعلوم الضوء والبصريات من امثال بيكون وكبلر ونتري وتيلو ومايرهوف كانوا عالة على ابن الهيثم وعلى بحـوثه في البصريات والضوء التي حوتها مؤلفاته الـكثيرة ولاسيما كتابه الخطير « المناظر » . وابن الهيثم هـو الذي اكتشف قانون الانعكاس وعلل تكون الصور على شبكة العين وقال بتكبير العدسات وكتب عن العدسات اللامة والمتفرقة وعن المرايا المحرقة .

وادى اهتمام العرب بالعلوم الطبيعية الى الابداع في علم الميكانيك الذين كانوا يسمونه علم الحيل واشهر من برز منهم في هذا العلم موسى بن شاكر واولاده الثلاثة احمد ومحمد وحسن الذين ظهروا في عصر المأمون ووضعوا اول كتاب عن الميكانيك سمي باسم « حيل بني موسى » ضمنوه أكثر من مائة تركيب ميكانيكي . قال مؤلفو كتاب « تراث الاسلام » المطبوع في اكسفورد بلندن سنة ١٩٤٣ ان عشرين تركيبا منها كانت له قيمة علمية . ومنهم بديع الزمان الجزري صاحب كتاب الحيل الهندسية .

ومن الامور التي برع العـرب فيها صنع الساعات الدقاقة وغيرهـا وقد نبغ منهم في هذا الفن عدد كبير كان من اشهرهم نورالدين علي بن تغلب الساعاتي (٦٠١ ــ ٦٨٣هـ) الذي كان يتولى صنع الساعات الشهيرة على باب المستنصرية . وكذلك بديع الزمان بن الرزاز الجزري الذي صنع في حدود سنة ٦٠٠هـ ساعة شبيهة بالساعة التي كانت على باب المستنصرية .

وزاد العـرب في الموسيقى وترا خامسـا واستنبطوا الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون وقد صنعها الفيلسوف ابو نصر الفارابي .

وبعد ان اطلع العرب على آثار اليونانيين والهنود في الفلك والرياضيات توسعوا في هـذين العلمين كثيرا واوجدوا فيهما النظريات والاستنباطات الجديدة . فالعرب هم أول من استعمل الصفر في الحساب ، وهم الذين اكتشفوا علامة الـكسر العشري وعرفوا ميزان الجمع باسقاط التسعات .

والعرب هم الذين ابتدعوا علم الجبر ووضعوا اسسه بالشكل الذي ندرسه الآن ولم يكن هذا العلم معروفا لدى الامم الاخرى قبلهم . وقـد تفوق الخوارزمي والبوزجاني والبيروني وغيرهم في حل المعادلات التكعيبية عن طريق قطوع المخروطات وسبقوا بذلك علماء الرياضيات في اوربا من امثال ديكارت وبيكر في هذا العلم . كما ان العرب هم اول من اكتشف قانون حل المثلثات الـكروية ، واول من عمل الجداول لنظير التمـاس والقاطع ونظيره .

فقد كان محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى ٢٣٢هـ ــ ٨٥٠م نابغة العصور كلها في حقل الرياضيات وكلمة « لوغارتمي » التي تعنى المثلثات في القوانين الرياضية المعروفة الآن ، ان هذه الـكلمة ليست سوى تحريف كلمة « الخوارزمي » ذاتها وقد كان كتاب الخوارزمي « الجبر والمقابلة » هو

الينبوع الرئيسي الذي استقى منه علماء اوربا علومهم عن الجبر والمعادلات والمثلثات خلال القرون الوسطى ٠

وبعد ان هضم العرب كل ما توفر لديهم من معلومات عن الفلك استقوها من علماء اليونان والسريان والهنود عكفوا على دراسة هذا العلم دراسة وافية وتوسعوا في ابحاثه توسعا خطيرا دلل عليه المئات من النوابغ في علم الفلك وذلك السيل الهائل من المصنفات والجداول (الازياج) التي صنفوها في هذا الشان ٠

ولم يقف العرب في حقل الفلك عند حدود النظريات وحدها وانما تجاوزوها الى التطبيقات العملية وذلك بانشاء المراصد الشهيرة التي كانوا يرصدون بها الكواكب والاجرام السماوية ٠

وكان من نتائج هذا التطور في دراسة علم الفلك ان اشار العرب الى كروية الارض واستدارتها حول محورها ٠ وحسبوا الاعتدالين الصيفي والشتوي واصلحوا الخطأ الذي وقع فيه البابليون في ذلك كما اتقنوا حساب الميل في فلك البروج بشكل دقيق لا يختلف الا في دقيقة واحدة عما توصلت اليه المراصد الحديثة في الوقت الحاضر واستطاع العرب ان يقيسوا محيط الكرة الارضية وقد حدث ذلك في عهد المامون وفي هذا يقول المستشرق الايطالي « نللينو » صاحب كتاب « علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » ان هذا العمل « دلل على ما كان للعرب من باع طويل في الارصاد واعمال المساحة ٠٠٠ وقياس العرب هو اول قياس حقيقي اجري كله مباشرة » ٠

واكتشف ابو الوفاء البوزجاني (٣٢٨ ـ ٣٨٧هـ = ٩٤٠ ـ ٩٩٨م) بعض الخلل في حركة القمر قبل ان يدعى ذلك الاكتشاف العالم الدانمركي تيخو براهي بعدة قرون ٠ ولا يزال حوالي خمسين في المائة من الاسماء التي اطلقها العرب على النجوم شائعة الاستعمال في اللغات الاوربية حتى الآن ٠ وقد برع البوزجاني أيضا في علم الهندسة وهو الذي اخترع المسطرة والبركار والكونيا واجرى عدة شروح على كتب من سبقوه في الرياضيات من امثال اقليدس وابرخس وديوفنطيس والخوارزمي ٠

اما المراصد فقد انشأ العرب العدد الكبير منها في مختلف الاقطار الاسلامية ٠ وقد ثبت ان المامون هو اول من اشار باستعمال الآلات في الرصد ٠ كما ان المامون هو الذي ابتنى مرصدا على جبل قيسون قرب دمشق واقام مرصد آخر في الشماسية « الصليخ » ببغداد ٠ كذلك انشأ بنو موسى مرصدا آخر في بغداد على طرف الجسر ويعتبر مرصد الشماسية الذي بني سنة ٢١٤هـ اول مرصد في الاسلام ٠

وانشأ الفاطميون في مصر مرصدا على جبل المقطم عرف بالمرصد الحاكمي بينما انشأ « بنو الاعالم » مرصدا في بستان دار المملكة ٠

ومن اشهر المراصد مرصد « مراغة » في اذربيجان الغربي بناه العالم

الفلكي الاسلامي الكبير « نصيرالدين الطوسي » سنة ٦٥٧هـ – ١٢٥٨م .

كذلك تفنن العرب في صنع الاسطرلاب الذي كانوا يقيسون به حركات النجوم وكان اول اسطرلاب صنع في الاسلام هو من ابداع الرياضي العربي الشهير ابراهيم بن حبيب الفزاري المتوفى سنة ١٦١هـ – ٧٧٧م وقد وضع العرب العديد من المؤلفات منها هذه الآلات واصنافها .

مصادر البحث

1. Cajori: History of Mathematics (New York 1926)
2. Legacy of Islam (Oxford 1943)
3. O'Leary: Arabic Thought and its Place in History (London 1939)

(٤) نللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى .
(٥) الدكتور مصطفى الرافعي : حضارة العرب في العصور الاسلامية الزاهرة .
(٦) يجارد كوك : بغداد مدينة السلام ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ج ١ .
(٧) محمود لطفي جمعة : فلاسفة الاسلام .
(٨) جرجي زيدان : آداب اللغة العربية .
(٩) الدكتور عبداللطيف الطيباوي : تاريخ العرب والاسلام .
(١٠) ناجي جواد : قصة الوقت .
(١١) عباس محمود العقاد : ابن رشد .
(١٢) جوزيف ماك كيب : مدنية العرب في الاندلس ترجمة تقي الهلالي .
(١٣) جغرافيو العرب : محمد حسن صبري .
(١٤) جغرافيو العرب : مصطفى الشهابي .
(١٥) اعلام العرب : عبدالصاحب الدجيلي .
(١٦) قدري حافظ طوقان : تراث الغرب العلمي .
(١٧) قدري حافظ طوقان : الخالدون العرب .
(١٨) عباس العزاوي : تاريخ علم الفلك في العراق .
(١٩) جواهر لال نهرو : لمحات من تاريخ العالم .
(٢٠) هـ.ج.ولز : مختصر تاريخ العالم .
(٢١) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .
(٢٢) محمد بحر العلوم : الكندي ج ١ .
(٢٣) صدرالدين عيني : ابن سينا في مجلة « نيو تايمس » الروسية .
(٢٤) مجلات المقتطف والمعارف والمعرفة والفكر العربي والرسالة ، والعلوم واسرار العالم ، والمستمع العربي ، المجمع العلمي العراقي ، المعلم الجديد ، المعرض .
(٢٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء .
(٢٦) ابن صاعد : طبقات الامم .

عابر طريق

فتحي سعيد

وأرخى المساء على ساهريه
غلالة شوق .. ومن عاشقيه
تعرى، هتاف عتيق الصدى ..
وهام حزين بقلب احبه
وقال شجي لمن يصطفيه
أضاق الطريق على عابريه ..
وكرم زرعنا به .. عنقدا !!

*

وراحت تطل على مقلتيه
وتنبش .. في قاعها الغائر
فلم تر فيها سوى جثة
تدب على قدمي عابر
ووقع خطى بغتات الزمان
تدق بعكازها الضامر
وتصدع بعض الذي شيدا ..

*

أطلت ..
وعـــادت بحفنـــة تـــه
ترى
أي شــيء يعـــربد فيســه ؟
أعـــق الزمان حقوق بنيـــه !؟
وأنكـــرتاه
ولم تعرفاه
ترى نســيته فلــم تذكراه !؟
وأين زمـــان لنــا عـــربدا ؟

✻

وأيـــــن .. وأيـــــن ؟
والـــــف ســـؤال ..
تدلى .. عـــلى شرفات الليـــال
وذر عـــلى مقلتيهـــا النـــدى ..

✻

فقالت ..
مســـاء وفجـــر يليـــه ..
يريق حليـــب الامـــاني بفيـــه
ويحنـــو الطـــريق عـــلى عابريه
فســـار ..
ومـــد اليهـــا اليـــدا !

القاهرة

عمّ الحلاق والنسر

أقصوصة
لوليم سارويان

نقلها الى العربية
مدحة الجادر

تعريف بالمؤلف

وليم ساروديان كاتب معاصر راسخ القدم • وهو ارمني الاصل امريكي الجنسية ، ويقيم معظم وقته في سان فرانسسكو • واخص ما في فنه ان المأساة تنقلب في يديه الى ملهاة ، والعكس بالعكس • فأدبه مصداق للقول المأثور : شر البلية ما يضحك • وكثيرا ما يضعك في موقف لا تدري اتبكي فيه ام تضحك ! والاقصوصة التي تقدمها الان مثل واضح لهذه الخصيصة •

اما اسلوبه فهو سهل ممتنع يختار فيه الالفاظ اليسيرة ، واللغة العامية في كثير من الاحيان ، ولكنه يقدم لك في هذا الوعاء البسيط عاطفة جياشة ، وخيالا خصبا ، وانسانية فياضة ، ودعابة ممزوجة بالاسى •

ومن آثاره المشهورة رواية (الملهاة الانسانية) التي اخرج منها فلم سينمائي ، وترجمة حياته التي جعل عنوانها (اسمي آرام) •

●

أجمع كل من الآنسة كاما وأمي وأخي كريكور على انى يجب ان أحلق رأسي • بل العالم بأسره كان يريدني ان افعل ذلك ، اذ كانت رأسي اكبر من آن يطيقها الناس : سبعة وسبعة اثمان ، وربما ثمانية وسبعة اثمان ، فجعلوا يقولون هذا شعر فاحم مفرط الغزارة • وراح كل فرد يسأل : متى تحلق رأسك ؟ •

وكان في مدينتنا تاجر كبير يدعى هنتنكتن ، اعتاد أن يشترى مني صحيفة الايفننك هيرالد كل يوم • وهو يزن مائتين واربعين باونا ، ويملك سيارتين كاديلاك ، وستمائة فدان من الكروم الفاخرة ، وأكثر من مليون دولار في (مصرف الوادي) • ويملك كذلك رأسا صغيرة يعمرها الصلع بأسرها متوجا قامته بحيث يستطيع ان يراه كل انسان • وكان من دأبه ان يحث عمال الطرق الحديدية من خارج المدينة على أن يجتازوا ستة شوارع ليلقوا نظرة الى رأسي ، وان يصيح في الشارع : لديكم هناك كاليفورنيا ، فيها طيب المناخ والعافيه ، ثم يزمجر قائلا : يا الهي ، وهناك شعر فوق الرأس !

وقد تناولت الآنسة كاما حجم رأسي بقارص الكلم • فقالت ذات

يوم : لا أريد ان اذكر اسما ، ولكن في هذا الصف فتى اذا لم يزر الحلاق في اقرب يوم ليحلق شعره فأنه سوف ينقل الى مدرسة الاصلاح.

اجل ، انها لم تذكر اسما ، ولكنها القت الى بنظرها .

وقال اخي كريكور : وما الذى يضيرك من هذا ؟

قلت : تذكر سامسن . تذكر سخطه حين ازالوا شعره .

قال أخي كريكور : ذلك أمر آخر ، فانك لست سامسن .

قلت : لست سامسن ؟ وما يدريك اني لست مثله ؟ ما الذي يجعلك تظن هذا ؟

ولقد سرني ان تضيق الدنيا بى ذرعا ، غير ان عصفورا حاول ذات يوم ان يبنى عشا في شعرى فأنطلقت في المدينه مسرعا الى الحلاق . ذلك انى كنت نائما على العشب في ظل شجرة جوز في ساحتنا ، فأنقض من فوقها عصفور فأنشأ يتلمس طريقه وسط شعرى . وكان يوما دافئا من ايام الشتاء والدنيا في سبات ، وكان السكون مخيما في كل مكان ، وليس هناك من يجرى بسيارته ، ولا تستطيع ان تسمع سوى سكون الواقع الدافيء البارد ، الفرح الحزين . هذا هو العالم . آه يا آلهى ، انه لخير ان تكون احياء في مكان ما ، ورائع ان يكون لك منزل صغير في هذا العالم : رواق كبير لاعصر الصيف وامسياته الطويلة . غرف فيها موائد وكراسي وفرش . بيان . موقد . صور على الجدار مقتطعة من صحيفة ستردي ايفننك بوست. انه لامر عجيب ومعجز ان توجد في ناحية من العالم ، حيا ، قادرا على الحركه في الزمان والمكان ، في الصباح والظهر والليل ، وان تتنفس وتأكل وتضحك وتمشى وتنام وتنمو . وأن ترى وتسمع وتلمس . وأن تجوس خلال ديار الارض تحت الشمس . ان تكون في المكان ، في العالم .

وأبهجنى ان العالم كان هناك ، فكنت أنا هناك أيضا . وكنت وحيدا فجعلتنى الوحدة حزينا ومسرورا من اجل كل شيء . والامر سيان على كل حال . فلشد ما كنت مسرورا لكل ما كان يحزننى . لقد جلب لى ما كنت أحلم به ، السرور والحزن البالغين : الاماكن التى لم ارها . مدن العالم الساحرة : نيويورك ، لندن ، باريس ، برلين ، فينا ، اسطنبول ، روما ، القاهرة . الشوارع ، المنازل ، الاحياء ، الابواب والنوافذ في كل مكان . القطارات وسفن البحار في الليل . البحر القاتم الحزين . اللحظات المشرقة من السنين الميته كافة ، المدن المدفونه تحت الزمن ، الاماكن المندرسة والمنقرضة التي كانت يوما ما ميته الى الابد وحية الى الابد لان حياة الارض دائمه . آه يا يسوع ، لقد رأيت حلما في يوم من عام ١٩١٩ : رأيت ان الاحياء يعيشون الى الابد . ورأيت انتهاء المد والانحطاط والموت . ورأيت خلود عزم الشمس في السماء والدفء في الارض . ثم هبط العصفور من الشجرة الى رأسى فأنشأ يحاول ان يبنى عشا في شعرى فأستيقظت .

فتحت عينى ، ولكنى لم اتحرك .

ولم يقع في روعي أن طيرا استقر في شعري حتى بدأ العصفور يغني • ولم اسمع من قبل ، طوال حياتي ، صرخة طير بمثل ذلك الوضوح، وكان وقع ما سمعته جديدا ومريعا للغاية ، ولكنه في الوقت نفسه قديم وطبيعي للغاية • لقد كان الطير يغني ليس غير ، ولكن ما خيل الى اني سمعته هو : أبك ، أبك ، أبك ، ، أوه أبك ، فليس هناك ما تصنع سوى البكاء ، سوى ان الطير قد نطق بهذه الرسالة الحزينة بروح مفعمة بالسرور • ولم يكن هناك اى صوت حين سمعت بغتة ما فاه به العصفور من موسيقى وخطاب • وقد بدا الامر لاول وهلة طبيعيا ، وأنا لا ازال ساكنا كالنائم : الطير فى شعرى يتحدث الى ، والتناقض الملحوظ بين معنى الرسالة وروحها • حزن من جهه ، وفرح من جهة أخرى •

ثم ادركت ان هذا غير لائق • أذ ليس لطير صغير ان يعبث بشعر انسان • فقفزت من مكاني مسرعا الى المدينه ، فطار العصفور المرتاع الى ابعد ما يستطيع فى نفس واحد •

فالعالم اذن على حق • وكانت الآنسة كاما على حق • وكان اخي كريكور على حق • فما ينبغي فعله هو حلق الرأس لكيلا تحاول العصافير بناء عش فى شعرك •

وكان فى شارع ماريبوزا حلاق أرمني يقال له آرام ، هو اذا شئت الحق خليق ان يكون فلاحا ، او ربما حدادا او فيلسوفا • فانى لا أدرى • وكل ما علمته من امره ان له دكانا صغيرا فى شارع ماريبوزا ، وانه كان ينفق معظم وقته في قراءة (آسباريز) وغيرها من الصحف الارمنية ، وفي اعداد لفائف التبغ وتدخينها ، وفى مراقبة الملأ الذين يمرون به • واني لم أره وهو يحلق رأسا او وجها لانسان ، وان كنت احسب ان شخصا او شخصين لابد ان يتخذا طريقهما اليه عن خطأ وبمنتهى البراءة •

وانطلقت الى دكان آرام في شارع ماريبوزا فأيقظته • وكان جالسا الى المائدة الصغيرة وامامه كتاب بالارمنية مفتوح وهو غارق فى النوم •

قلت بالارمنيه : أتحلق شعري ؟ ان لدى عشرين سنتا •

قال : آه ، اني مسرور لرؤيتك • ما اسمك ؟ اجلس • سأعد القهوة أولا • آه ، ان لديك رأسا لطيفة من الشعر •

قلت : كل البرية تريدني ان احلق رأسى •

قال : هذا هو شأن الناس • فانهم ينبؤونك دائما ماذا تصنع • اى ضير في قليل من الشعر ؟ ولم يقحمون انفسهم في هذا ؟ انهم يقولون : اجمع النقود ، اشتر مزرعة ، افعل هذا ، وافعل ذاك • آه ، انهم ليكرهون ان يدعوا المرء يحيا حياة هادئه •

قلت : هل تستطيع أن تحلقه ؟ أتقدر ان تزيله بأسره ، لكيلا يتحدثون عنه ثانية لبرهة من الزمن ؟

قال الحلاق : القهوة ، دعنا نرتشف قليلا من القهوة اولا •

وكان في اقصى المحل موقد غازي صغير ، وبالوعة ، وحنفية ، ورف عليه اكواب صغيرة مع صحونها ، وملاعق ، وفتاحة علب ، وأشياء اخرى. وأتاني بكوب قهوة ، وعجبت كيف اني لم ازره من قبل وهو ربما كان الطف الرجال في المدينة كلها • ولقد عرفت انه ذو شأن من النحو الذي استيقظ به حين دخلت المحل ، ومن طريقة كلامه ومشيته وحركته •وكنت ادرك أنه ذو مكانة في العالم ، اذ هو حلاق في شارع ماريبوزا • وكان في الخمسين من عمره تقريبا وانا في الحادية عشرة ، ولكنه ليس أطول مني ولا أثقل • وكان وجهه ينم عن رجل يدرك ويعلم وذي حكمة ، وفوق ذلك هو محب لا يريد الظلم •

وبدت نظرته حين فتح عينيه كأنها تقول : العالم ؟ انى أعرف كل شيء عن العالم • شر وشح ، كره وخوف ، وسخ وفساد • ومع هذا فاني احبه بكل ما فيه •

ورفعت الكوب الصغير الى شفتي ورحت ارتشف السائل الاسود الحار • فكان اجمل مذاقا من كل ما ذقت على الاطلاق •

قال بالارمنيه : اجلس ، اجلس ، اجلس • فليس هناك لدينا مكان نذهب اليه ، ولا شيء نصنعه ، وشعرك لن يطول في خلال ساعة •

فجلست ضاحكا • وطفق يحدثني عن العالم • حدثني عن عمه مايساك الذى ولد في ماوش •

وشربنا القهوة ، ثم اتخذت مكاني في الكرسي ، فبدأ يقص شعري • وكان حلقه اسوأ ما عرفت ، فهو اردأ كثيرا حتى من الحلق المجاني الذي كنت اصيبه في كلية الحلاقين في الجانب الاخر من الطريق الحديدي • بيد انه حدثني عن عمه المسكين مايساك ، وليس بين تلامذة تلك الكلية من يقدر ان يقص مثل قصته ــ انهم لا يستطيعون ذلك ولو اجتمعوا له ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا • ولست اعجب اذا عجز تلامذة الحلاقه في العالم طرا عن الاتيان بقصة ترقى الى نصف ما في قصته الحزينة عن عمه المسكين ونمر السيرك من جودة •

وخرجت من محله بحلاق رديء للغاية ، بيد ان ذلك لم يسوءني • فهو لم يك حلاقا على كل حال ، وانما كان يزعم ذلك لكيلا تسرف زوجه في ازعاجه • لقد كان يتظاهر بعمله ليرضى الناس • اما همه فهو ان يقرأ وان يتحدث الى ذوى الحشمة • وكان له خمسة اطفال : ثلاثة ابناء وبنتان، جميعهم مثل زوجته لا يستطيع ان يسوق اليهم حديثا ، ولا يريدون هم أن يعلموا شيئا سوى مقدار ما يربح •

قال لي : لقد ولد عمى المسكين مايساك منذ آمد بعيد فى ماوش وكان صبيا شرسا وان لم يكن لصا • كان شرسا مع الذين يحسبون انفسهم اقوياء ، وبوسعهم ان يصرعوا أى اثنين من صبيان المدينة قاطبة وان يصرعوا معهم آباءهم وامهاتهم ، في نفس الوقت ، اذا اقتضت الضرورة

ذلك • ثم اضاف : ومعهم اجدادهم وجداتهم •

فكان كل امرىء يقول لعمى المسكين : مايساك ، انك لقوى ، فلم لا تكون مصارعا فتربح مالا ؟ وعلى ذلك اصبح مايساك مصارعا • ولقد كسر عظام ثمانية عشر رجلا من الاشداء قبل ان يبلغ العشرين • وكان كل ما يصنعه بنقوده هو ان يأكل ويشرب ثم يعطى ما يبقى الى الاطفال • لقد كان زاهدا في المال • واستطرد قائلا : آه ، كان ذلك منذ عهد بعيد ، اما اليوم فكل فرد يريد المال • ولقد قالوا له انه سيأسف على ذلك يوما ما ، وكانوا في ذلك من الصادقين • لقد حذروه بأن يعنى بنقوده ، اذ سيأتي عليه يوم يفقد فيه قوته فلا يقدر على المصارعة ، ولا يكون لديه مال• ثم حل ذلك اليوم ، حين بلغ عمى المسكين مايساك الاربعين ، ففقد قوته وهو معدم • فأنشأ الناس يضحكون منه فأرتحل • ذهب الى اسطنبول ثم الى فينا •

قلت : فينا ؟ اذهب عمك مايساك الى فينا ؟

قال الحلاق : بالطبع • فلقد ذهب عمى المسكين الى اماكن عديدة • ثم واصل حديثه قائلا : وفي فينا لم يستطع عمى المسكين ان يجد عملا ، فأوشك ان يموت جوعا ، ولكن هل سرق ولو رغيفا من الخبز ؟ كلا انه لم يسرق شيئا • ثم انطلق الى برلين • آه ، ان العالم لا يخلو من مكان ، برلين • وهناك ايضا كاد عمى المسكين ان يموت جوعا •

وكان آنئذ يحلق رأسي ذات اليمين وذات الشمال ، فأرى الشعر الاسود فوق الارض ، وأحس برأسى تبرد شيئا فشيئا ، وتتضائل رويدا رويدا كلما فارقها الشعر •

وقال : آه ، برلين مدينة العالم القاسية • فهناك الشوارع والبيوت والناس ، بيد ان عمى المسكين مايساك لم يجد له فيها غرفة ولا مائدة ولا صاحبا •

قلت : آه ، يآلهى ، يا لوحدة الانسان فى هذا العالم ! يا لوحدة الاحياء المفجعه هذه !

قال الحلاق : وكذلك كانت الحال فى باريس ثم فى لندن ثم فى نيويورك ثم في امريكا الجنوبية • كانت الحال هكذا في كل مكان ، شوارع ، وبيوت ، وابواب ، ولكن ليس هناك مكان فى العالم لعمىالمسكين مايساك •

فقلت مصليا : آه ، يا الهى ابسط عليه حمايتك ، احفظه يا رب السموات •

قال الحلاق : وفى الصين التقى عمي المسكين برجل يعمل مهرجا فى سيرك فرنسى ، وتحدثا باللغه التركية • قال المهرج : أخي ، هل انت محب للانسان والحيوان ؟ فقال عمي مايساك : أخي أني أحب كل شيء تحت سماء الله : الرجال ، والحيوان ، والدجاج ، والصخر ، والنار ،

والماء ، وكل ما هو منظور وغير منظور • فقال المهرج : اخى هل تستطيع ان تحب حتى نمرا ، نمرا ضاريا من الآجام ؟ فقال عمى : أخى ان حبى لوحش الغاب الضارى لا حد له • آه ، يا لعمى من رجل تعس •

قلت : آه ، يا الهى •

وكان سرور المهرج عظيما حين سمع ان عمى يحب وحوش الغاب الضارية ، اذ كان هو ايضا رجلا شجاعا • فقال لعمى : اخى هل تستطيع ان تحب نمرا الى حد تضع فيه رأسك وسط فمه المفغور ؟

وصليت قائلا : صنه يا رب •

وقال الحلاق آرام : فأجاب عمى مايساك : اخى انى استطيع •

فقال المهرج : اتريد ان تنضم الى السيرك ؟ فبالامس اطبق النمر فمه غير آبه على رأسي سيموف بيريكورد المسكين ، فليس في السيرك اليوم من يضمر مثل هذا الحب العظيم لمخلوقات الله اللانهائى • وكان عمى المسكين ضجرا من الدنيا فقال : اخى ، سأنضم الى السيرك واضع رأسى فى فم النمر المفغور اثنتى عشرة مرة فى اليوم • قال المهرج : هذا غير ضرورى ، فيكفى مرتان فى اليوم • وهكذا انضم عمى المسكين الى السيرك الفرنسى فى الصين ، وانشأ يضع رأسه وسط فم النمر المفغور •

قال الحلاق : وارتحل السيرك من الصين الى الهند ، ومن الهند الى افغانستان ، ومن افغانستان الى ايران ، وهناك فى ايران وقع ما وقع • ولقد توطدت بين النمر وعمى المسكين صداقة وثيقه • ولكن فى طهران ، فى تلك المدينه القديمه الدارسة ، عاد الى سابق وحشيته • وكان يوما شديد الحر ، وكل فرد يساوره شعور سىء • فراود النمر غضب شديد ، وراح يجرى حواليه طوال النهار • ثم اودع عمى المسكين رأسه فى فمه المفغور ، فى طهران مدينة فارس البغيضه الدارسة ، ثم اوشك ان يخرجه ثانية من فم النمر ، لولا ان الاخير اطبق عليه فكيه بكل ما فى احياء البسيطه من شناعة •

ونهضت من الكرسى فرأيت فى المرآة شخصا غريبا ، رأيت نفسى ، فانتابنى الخوف لان شعرى كله قد زال • ودفعت لآرام الحلاق خمسة وعشرين سنتا ، وابت الى البيت • وضحك الجميع • وقال اخى كريكور انه لم ير من قبل مثل هذا الحلاق المضحك قط •

ومع ذلك لم يكن فى ذلك بأس •

ان كل ما استطعت ان افكر فيه لعدة اسابيع ، هو عم الحلاق المسكين مايساك الذى التقم رأسة نمر السيرك • وجعلت اتطلع الى اليوم الذى احتاج فيه الى حلاق جديد لا سعى الى محل آرام ، فأصغى لما يقصه عن الانسان فوق البسيطه : الانسان الضائع الوحيد المهدد بالخطر دائما ، اصغى لقصة عمه مايساك المحزنه ، القصة الاليمه لكل حى •

مكتبة الاوقاف ونوادر مخطوطاتها

عبدالله الجبوري

مكتبة الاوقاف العامة من المكتبات الغنية بنوادر مخطوطاتها ونفائس مطبوعاتها ، تضم قماطـــر أدراجها الان ما ينيف على الخمسة عشر الف مجلد ، اسست هذه المكتبة في سنة ١٩٢٨م في عهد وزير الاوقاف المرحوم الشيخ أحمد الداود ، فقد جمعت من الجوامع والمساجد والمدارس الدينية والتكايا وعددها تسع خزانات ، ـ ستعرف بها بعـــد قليل ـ وهي من « موقوفات نفر من ولاة الدولة العثمانية وبعض نسائهم ، ومن موقوفات افراد من العلماء الاجلاء والتجار الاخيار البغداديين ، اودعوها غرف الجوامع والمساجد والتكايا لتكون مثابة روادها من طلاب العلم . ولتكون لهم لسان صدق في الاخرين ، ومن الفريق الاول ، ابو سعيد سليمان باشا ، وداوود باشا ، ونائلة خاتون زوج مراد افندي المكتوبجي ، ومن الفريق الآخر ، مفتي بغداد محمد امين الزند المعروف بالكهيا ، والعلامة ابراهيم فصيح الحيدري ، والعلامة نعمان خيرالدين الالوسي والحاج امين الباجه‌جي واخوه نعمان الباجه‌جي ..(١)

وكان يوم افتتاحها مشهوداً حضره اعاظم القوم وصيابتهم ، كما دعي اليه رجال الفكر والادب ، وكان موضعها في البناية المشيدة على مسجد « الخزرجي » الـكائن في رأس القرية في شارع الرشيد ، ثم انشئت لها بناية خاصة بها في باب المعظم ذات طابع عربي اســلامي وقد افتتحت في مهرجان كبير اقيم لهذه المناسبة وذلك في ٨ كانون الثاني من عام ١٩٣٢م ، وقد انشد في هذه الحفلة المرحـــوم معروف الرصافي ١٨٧٥م ـ ١٩٤٥م قصيدة رائعة منها :

للمسلمين عـــلى نزورة وفرهم	كنز يفيض غنى من الاوقاف
كنز لو استشفوا به من دائهم	لتوجروا منـــه الدواء الشافي
ولو ابتغوا للنشء فيه ثقافة	لتثقفوا منـــه بخـير ثقاف

ثم يختتمها مؤرخاً لها بقوله :

ناديت طلاب العلوم مؤرخاً :	حجوا بنـــاء خزانة الاوقاف(٢)

أما الجوامع والمدارس والتكايا التي جمعت منها كتب المكتبة فهي :

١ ـ خزانة مدرسة نائلة خاتون ٠
٢ ـ خزانة جامع الكهيا ٠
٣ ـ خزانة التكية الخالدية ٠
٤ ـ خزانة المدرسة السليمانية ٠
٥ ـ خزانة المدرسة المرجانية ٠
٦ ـ خزانة جامع الحيدرخانة ٠
٧ ـ خزانة جامع الباجهجي ٠
٨ ـ مسجد الرواس ٠
٩ ـ خزانة جامع الامام الاعظم ٠

١ ـ مسجد نائلة خاتون :

وتسمى المدرسة المرادية ، وتقع في منطقة الميدان قبالة وزارة الدفاع على يمين الذاهب الى الباب الغربي من بغداد ـ الباب المعظم ـ وكانت مسكنا لمراد افندي احد رجال الدولة العثمانية وامرائها فلما توفى وقفته زوجه نائلة خاتون واتخذته مدرسة تشتمل على غرف كثيرة وعلى مصلى للعبادة ووقفت عليه بساتين وعقاراً ورتبت فيه مدرسا واماما ومؤذنا وخدما واجرت لهم الجرايات واشترطت ان يوجد في المدرسة نحو عشرين طالبا ليلا ونهارا وخصصت لهم ما يكفيهم(٣) ٠٠

أما السيدة نائلة فهي سيدة تركية الاصل قدمت بغداد مع زوجها مراد أفندي لما تولى وظيفة (مكتوبجي) ولاية بغداد في اواخر القرن الثالث عشر للهجرة وكانت ذات دين وحب للخير ، فوقفت دارها على طلاب العلم سنة ١٢٩١هـ وأخذت تبتاع لها الكتب حتى جعلت فيها خزانة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات ولما تولى الشيخ الاستاذ سعيد الدوري امور التدريس فيها زاد في الخزانة بما وقفه عليها من كتب ٠٠(٤)

٢ ـ جامع الكهيا :

يقع هذا الجامع في محلة راس الكنيسة من بغداد القديمة ، أي في منطقة الميدان ، بناه كامل بك ابن الحاج امين الزند ، وكان الحاج امين الزند مفتي بغداد ثم صار كتخدا (كهيا) الوالي ثم سافر الى الاستانة وصار من الاعيان والامراء ورجال الدولة هناك ٠ وقد جمع المفتي كتبا كثيرة في فنون مختلفة بخطوط حسنة ، وقد جاء ولده كامل بك الى بغداد سنة ١٣٢٠هـ فعمر قسما من داره في هذا المسجد ، واتخذ فيه خزانة للكتب في الطابق العلوي منه ، وفي السنة الحادية والعشرين بعد الثلثمائة والالف ١٣٢١هـ كملت عمارة المسجد وقد كتبت على باب المسجد هذه الابيات المشتملة على ختام العمارة وتأريخها وهي :

ذا جامع فيـــه رياض التقى	مزهـــرة فليعمـــل العـــامل
مكتبة فيـــه لاهـــل الهـدى	ينـــال من جوهرهـــا السائل
وماؤه العـــذب غـــدا كوثراً	فليس يحكيه الحيـــا الهاطـــل
شـــيده محتســـبا موقنـــا	سليل صدر العلمـــا الكـامل
على التقى مـــذ تم أرختـــه :	قد نار هذا المسجد الكـامل(٥)

١٣٢١هـ

وقد هدم هذا المسجد في شهر تموز من عام ١٩٦٤م ، لانشاء مسجد صغير يحل محله ، وذلك لوقوعه على الطريق العام في منطقة الميدان ٠٠

٣ ـ التكية الخالدية ، أو جامع الاحسائي :

لم يعرف بانيه ، وهو واقع في قلب الرصافة ، ومطل على دجلة ، ولما أقام فيه الشيخ خالد النقشبندي بعد عوده من الهند سنة ١٢٣٦هـ عمره له والي بغداد يومئذ واصلحه ، فسمي (بالتكية الخالدية) نسبة الى الشيخ خالد ، وفي هذا الجامع عدة قبور منها قبر الشيخ محمد بن احمد الاحسائي الحنفي صاحب التآليف الكثيرة منها : حاشية على شرح الالفية للسيوطي في النحو ، وكتاب التعريفات وشرح تهذيب المنطق ، وكانت وفاته سنة ١٠٨٣هـ وقد رمم هذا الجامع السيد محمد نجيب باشا احد ولاة بغداد سنة ١٢٦٣هـ ، وفيه خزانة كتب قيمة وقفها المرحوم العلامة السيد ابراهيم فصيح الحيدري ٠٠(٦)

٤ ـ المدرسة السليمانية :

تقع هذه المدرسة بالقرب من مديرية الشرطة العامة وقبالة مديرية الاوقاف العامة القديمة ٠

بناها الامير ابو سعيد سليمان باشا والي بغداد سنة ١٢١٧هـ وبنى فيها مسجدا وغرفا كثيرة لطلاب العلم ووقف عليها الوقوف وجعل فيهـا خزانة كتب كبيرة ، وكان يدرس فيها مفتي بغداد العلامة المرحوم السيد محمد فيضي الزهاوي المتوفي سنة ١٣٠٨هـ والد الشاعر جميل صدقي الزهاوي (ت ـ ١٩٣٦م) ٠

٥ ـ جامع المدرسة المرجانية :

يقع هذا الجامع في مدخل سوق الشورجة ـ على الجهة اليسرى من شارع الرشيد تجاه مجرى النهر ٠٠ وهو من اجل مساجد بغداد ومعاهدها العلمية ٠

قال الامام الالوسي « هذا مسجد محكم البناء ، راسخ القواعد ،

مشيد الارجاء مبني بالحجارة المهندسة ، ذو طبقين سفلي وعليا ، فيه مصلى واسع وحجر في الطبقة السفلى والعليا ، وقد جعله بانيه مدرسة حاكى بها « المدرسة النظامية » وجعل الحجر مسكنا لطلبة العلم واجرى عليهم الجرايات الوافرة ورتب لهم المدرسين على مذهبين الامام الشافعي والامام ابي حنيفة (رض) وفي ايام والي بغداد سليمان باشا الكبير الذي حكم من سنة ١١٩٣هـ ـ ١٢١٣هـ ادخل يد التجديد والاصلاح فيه ، فأمر بهدم بعض الحجر المبنية وادخالها فيه ، وقد ارخ ذلك بعضهم بقوله :

تبارك من انشا الانام وأوجدا وقيض منهم من يقام به الهدى

وختمها بقوله مؤرخا :

وفيه روى الراوي الحديث مؤرخا : سليمان اضحى عادلا بل مجددا
١٢٠٠هـ

وسمي بجامع مرجان نسبة الى بانيه مرجان الذي كان من موالي السلطان أويس بن الشيخ حسن الايلخاني احد امراء التتار الذين سيطروا على بغداد واستقل ببغداد بعد ابيه الشيخ حسن سنة ٩٥٥هـ ، ولما سافر السلطان أويس عن بغداد الى تبريز خرج مولاه مرجان عليه بقصد الاستقلال بحكومة بغداد وتملكها فقام عليه سيده لمحاربته فانتصر عليه وغلبه وفرق جمعه ، ثم عفا عنه وتركه واليا على بغداد ، وهناك بنى تلك المدرسة العلية القدر ووقف ما كان في يده من العقارات والاراضي عليها ، ولما توفي دفن فيها . والكتب الموجودة فيها كلها وقف المرحوم العلامة السيد نعمان خيرالدين الالوسي وقفها على طلاب العلم والمعرفة في سنة ١٣٠٤هـ ، ثم اعاد وقفها ثانية وسجلها في سنة ١٣٠٧هـ ، وفي خزانة الاوقاف العامة النسخة الاصلية لهذه الوقفية وهي بخط العلامة نعمان الالوسي ، وفيها اسماء الكتب التي وقفها ، وهي تحت رقم ٦٢٤٠ ، وقد وهم المرحوم الدكتور طلس فذكر في كشافه ص ٦ ، انها تحت رقم ٨٢٤٠ ، ولاهمية هذه الخزانة العظيمة ارتأيت ان اعرف بصاحبها الجليل .

نعمان خيرالدين الالوسي :

علم من اعلام الاصلاح والدين والادب ، ولد في ١٢ المحرم من سنة ١٢٥٢هـ اخذ العلم على ابيه الامام ابي الثناء المفسر المشهور ، وربي على الآداب الاسلامية الفاضلة فشب مسلما عاقلا فاضلا غيورا على مصالح الامة والوطن والدين . اشتغل في القضاء والتدريس ، وتوفي في يوم الاربعاء السابع من المحرم من سنة ١٣١٧هـ ودفن في مدرسته بجانب مرقد مرجان ، وترك آثارا جليلة في اللغة والادب والدين تنيف على الثلاثة عشر كتابا ، وجلها مطبوع ، واظهرها كتابه العظيم ، جلاء العينين في محاكمة الاحمدين ، المطبوع في المطبعة المصرية ببولاق سنة ١٢٩٨هـ(٨) .

٦ ـ جامع الحيدرخانة :

من افخم جوامع بغداد بناء واتقنها رونقا وبهاء ، بناه الوزير العالم داوود باشا ، وبنى فيه مدرسة تشتمل بيوتها من بساط الارض الى مناط السقوف على كتب كثيرة من تصانيف اعلام الامة ، وكان الفراغ من عمارته سنة ١٢٤٢هـ ، قال الامام الالوسي ، « علمنا ذلك من الكتابة المنقوشة فوق الباب الذي في الجهة الغربية منه وهو البيت الآتي :

فقل لذي الصنع اقصر يا مؤرخه كفى بذا جامعا من صنع داود
١٢٤٢هـ

وعلى الباب الجنوبي عن يمين المصلي :

ولا زال من وافاه يدعو مؤرخا لداود عن تشييد جامعه الأجر(٩)
١٢٤٢هـ

٧ ـ مسجد الرواس :

يقع في رأس الساقية قرب محلة باب الشيخ ، امر ببنائه ابو الهدى الصيادي الحلبي المتوفى سنة [١٩٠٩م] ، وقد جعله مقرا للسادة الرفاعية وللمتصوفة والدراويش ، وجعل فيه خزانة كتب . وسمي بالرواس نسبة الى امام السادة الرفاعية التي علا شأنها في ايام السلطان عبدالحميد الثاني ، ويقال كان مجذوبا يبيع رؤوس الخراف في محلة دكاكين حبوب وقبره في هذا المسجد(١٠) .

٨ ـ مسجد الباجه‌جي :

هو مسجد لطيف نزه يقع في محلة رأس القرية بناه التاجر الوجيه الحاج المرحوم امين الباجه‌جي سنة ١٢٣٠هـ ، ووقف عليه خزانة كتب حسنة جعلها مثابة لطلاب العلم ، وهذه الكتب هي من موقوفات الحاج أمين واخيه المرحوم نعمان افندي ، وكان الحاج نعمان رأس التجار ومن اهل الخير ، وقد بنى النعمان مسجدا له سنة ١٢٣٠هـ في محلة نهر المعلى المسماة اليوم بسبع أبكار ..(١١)

٩ ـ جامع الامام الاعظم :

هو الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المعروف ، ولد بالكوفة في سنة ٨٠هـ كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ، من اعلم علماء الاسلام ، اراده عمر بن هبيرة (أمير العراقين) على القضاء ، فامتنع ورعا ، وارداه المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى ، فحبسه المنصور ثم اطلقه ، توفى في سنة ١٥٠هـ ودفن في وسط الجامع المعروف باسمه ، وجامعه اليوم من افخم مساجد بغداد ، واجلها مكانة واوسعها

رقعة ، يقع في قضاء الاعظمية ، وقد الحقت به كليــــة الشريعة وفي سنة ٤٥٩هـ بنى شرف الملك ابو سعد محمـــد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملـكة السلطان الب أرسلان والسلطان ملـكشاه مشهدا وقبة على قبر الامام ابي حنيفة ، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وفي سنة ٤٦٤هـ توفي شرف الملك بأصبهان ، وبعد وفاته اتخذت هذه المدرسة مسجدا تقام فيه صلاة الجمعة والاعياد ٠ وقد جدد في سنة ١٢١٧هـ في زمن والي بغداد سليمان باشا وزوق المئذنة التي هي قائمة الى اليوم وحلى رأسها بالذهب وفي سنة ١٢٥٥هـ أمر السلطان عبدالمجيد باصلاحه مرة ثانية وفي سنة ١٩٥٩م جددت مديرية الاوقاف العــــامة وابدلت سياجه القديم بسياج عصري رائع ، وانشئت عند الباب الرئيس برجا لطيفا جميلا يحمل الساعة التي صنعها الحاج عبدالرزاق محسوب الاعظمي ٠٠ وبعد ان عرضنا بايجاز للمعاهد والمدارس والجوامع بالتعريف التي جمعت منها كتب مكتبة الاوقاف العامة ، نبدأ بوصف جملة لطيفــــة من نوادر مخطوطاتها ، وهذه بعض شروط المخطوط النادر :

أ ـ ان يكون المخطوط بخط المؤلف ٠

ب ـ ان يكون المخطوط هو النسخة الوحيدة في العالم ٠

جـ ـ ان يكون المخطوط قديم العهد مضت على نسخة أو تاليفه حقب طوال

د ـ ان يكون المخطوط ذا موضوع طريف أو علمي مهم ٠

١ ـ كتاب تأويل مختلف الحديث :

للامام ابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المولود في سنة ٢١٣هـ والمتوفى في سنة ٢٧٦هـ ٠

هذا الـكتاب هو اقدم مخطوط تحتويه خزانة الاوقاف العامة وهو من موقوفات العلامة المرحوم السيد نعمان خيرالدين الالوسي وكان طبع أول مرة بمصر سنة ١٣٢٦ بمطبعة كردستان العلمية ٠ فيه بعض زيادات عن النسخة المطبوعة بتحقيق الاستاذ أحمد السيد صقر ، ورقه صقيل سميك أبيض احال القدم بياضه الى اصفرار ٠٠ خطه جيد واضح مقروء ، على الصفحة الاولى منه تمليك باسم « سعد بن علي بن يوسف » ، اطـار الورقتين الاوليين أصلح بكاغد ابيض جديد ٠

اوله « بسم الله الرحمن الرحيم ٠ قال الامام القاضي أبو محمد عبدالله ابن محمد ابن عبدالرحمن ٠٠٠٠٠ اما بعد ، اسعدك الله لطاعته ووفقك للحق من اهله [كذا] فانك كتبت الي تعلمني ما وقفت عليه من ثلب اهل الـكلام اهل الحديث ٠ »

وآخره « تم الـكتاب بحمد الله وعونه ، وصلواته الطيبات المباركات على سيدنا محمد النبي وآله اجمعين وسلامه » ٠

والـكتاب منسوخ في مدينة واسط في شعبان من سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ٤٧٢هـ .

وعدد صفحاته ١٧٥ صفحة .

طول الصفحة ، ٢٠½ سم .

عرضها ، ١٦ سم .

عدد الاسطر في الصفحة الواحدة ، ٢٢ سطرا .

٢ ـ بلاد العرب :

لابي علي الحسن بن عبدالله المعروف بلكدة ، ويقال له لغدة . من اعلام منتصف القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة في النحو واللغة والبلدان ترجم لـه ابن النديم ، وحمزة الاصفاني ، وياقوت الحموي ، والسيوطي ، وتأتي ندرة هذا المخطوط من حيث كونه اقدم مخطوط وصل الينا عن بلاد العرب ، وفي خزانة مديرية الآثار العامة ببغداد نسخة منقولة عن هذه النسخة ، وفي خزانة المجمع العلمي العراقي نسخة مصورة عن الاولى ، [نسخة الآثار] ـ انظر المبحث الذي كتبه الشيخ محمد رضا الشبيبي عن وصف هذا المخطوط في مجلة المجمع العلمي العراقي ٣٩/١ ولم يشر فيه الى وجود هذه النسخة « الأم » غير انه اكتفى بقوله « وجدت نسخة من هذا الـكتاب في خزانة الـكتب الملحقة بمديرية الآثار القديمة في العراق بخط متأخر ، فنقلت عنها قبل ثلاث سنين نسخة ضمت الى القسم الخاص بالمخطوطات من خزانة المجمع العلمي العراقي ببغداد » ـ انظر المبحث الذي كتبه الاستاذ محمد بهجة الاثري في نقد كتاب الـكشاف للمرحوم الدكتور طلس ، في مجلة المجمع العلمي العراقي م/٣ ، قسم ١٩١/١ .

والـكتاب يتناول وصف اليمامة . ووصف الحجاز وقد عنى المؤلف بوصف المدينة ، وكثير من اوديتها وجبالها ومياهها وحرارها وآطامها والاقاليم المجاورة . كما وصف معادن العرب .

وأول هذا المخطوط « بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو المستعان وعليه التكلان وله الحمد في الآخرة والاولى ، قال ابو لغدة الاصفهاني رحمه الله تعالى ، قال ابو الورد العقيلي من مياه بني عقيل بنجد القلب ... » اهـ والنسخة بخط العلامة المرحوم السيد نعمان افندي الالوسي كتبها سنة ١٢٩٩هـ .

وعدد صفحاته = ٥٨ صفحة .

طولها = ٢١ سم .

عرضها = ١٥ سم .

عدد الاسطر في كل صفحة ٢١ سطرا .

وهذا الـكتاب لم ينشر ، وهو تحت رقم [٦٢١٦] ، وقد علمت ان

الاستاذ الجليل حمد الجاسر - من السعودية - يشتغل الآن في تحقيقه تمهيدا لنشره ، معتمدا هذه النسخة (أماً) ٠

٣ - انباء الغمر بابناء العمر :

للامام شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، المولود في القاهرة/٧٧٣هـ - ١٣٧١م ٠ والمتوفى بها سنة/٨٥٢هـ - ١٤٤٨م ٠

الجزء الاول فقط ٠ مجلد كبير ، ورقه أبيض سميك صقيل ، الصفحة الاولى مزخرفة وعليه تمليك باسم ابراهيم بن سليمان بن محمد بن عبدالعزيز الحنفي الدمشقي مؤرخ في سنة ١١٠٣هـ ثم انتقل بالبيع الشرعي الى العلامة نعمان الالوسي ٠

والكتاب يبحث في حوادث الزمان الذي ادركه المؤلف منذ مولده وتراجم الاعيان مستوعبا لرواة الحديث خصوصا من لقيه او اجاز له وغالب ما أورده المؤلف ما شاهده أو تلقفه ممن رجع اليه أو وجده بخط من يثق به من مشايخه ورفقته ٠

واوله « رب يسر يا كريم ٠٠ الحمد لله الباقي وكل مخلوق يعني الواقي ولو اعرض عن عبده لما استغنى ، سبحانه له الصفات العلى والاسماء الحسنى ، قسم الارزاق والآجال في الطرس ، وقدر الاحوال خوفا وامنا وكل عنده لاجل مسمى ، وقد احاط علما للمحل اقصى وادنى ٠ واحمده واستعينه ، وحق لعبده انه لحامده يعنى ، ولا يحصى الثنا عليه ، ولو اثنى العبد ما اثنى ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة ترفع قايلها الى المقام الاسنى ، واشهد ان محمدا عبده ورسوله المبعوث الى الثقلين انسا وجنا ، المنعوت بأكرم الاخلاق ٠ واطيب الاعراق من هب أو تمنى ٠ المرتقى الى المراتب العلية حتى كان قاب قوسين أو ادنى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين هاجروا وهجروا ٠٠٠ فسبق الآباء وتلاهم الابناء ، صلاة وسلاما متلازمين ٠٠٠ اما بعد فيقول العبد الضعيف احمد بن علي بن محمد بن علي بن احمد بن محمود بن احمد بن حجر العسقلاني الاصل المصري المولد القاهري الدار ٠٠٠ » اهـ ٠

خطه جيد مقروء ، وينتهي هذا الجزء في حوادث بداية سنة ٨١٢هـ وجاء في آخره العبارة الآتية « انهاه مطالعة مالكه اسماعيل النابلسي مرتين في بلدته آخر صفر من سنة ٩٨٤هـ ٠ » والكتاب من موقوفات العلامة نعمان الالوسي ،

وعدد الصفحة = ٥٤٠ صفحة ٠

طول الصفحة = ٢٦ سم ٠

عرضها = ١٧ سم ٠

عدد الاسطر في كل صفحة ٢٩ سطرا ٠

ويوجد الجزء الثاني من هذا الكتاب في باريس وأرقامه ١٦٠٢(١٢) من

فهرست دي سلان ، كما ان للجزء الاول فيها نسختين ارقامها ١٦٠١ ، ١٦٠٣ من الفهرست المذكور ٠ وهو لم ينشر ، ورقمه في مكتبه الاوقاف [٥٨٨٣] ٠

٤ ـ مختار الصحاح :

للامام محمد بن ابي بكر الرازي الحنفي المتوفى في سنة/٧٦٨هـ والكتاب معجم مطبوع مشهور متداول وتأتي الطرافة فيه من حيث كونه منسوخا ببراعة احدى بنات حواء ، كتبته امرأة اسمها مريم بنت مصطفى في مدينة سلانيك ، وانتهت منه في وقت العصر في يوم الاربعاء من اليوم السابع من شهر رجب الاصم من شهور سنة تسع وخمسين وتسعماية ٩٥٩هـ ٠

مجلد كبير ٠ ورقه ابيض صقيل وخطه رائع جيد دقيق ، وقلمـــه المعروف بالثلث ، تكثر على هوامشه التعليقات ، ناقص الاول ، ويبدأ من فصل الدال [ذرأ] ٠

وجاء في آخره « الخط يبقى زمانا في الكتاب

وصاحب الخط رميـــم في التراب [كذا]

تمت هذه الاوراق بعون الله الملك الخلاق ، عن [كذا] يد الضعيفة النحيفة المذنبة المحتاجة الى رحمة الله تعالى مريم بنت مصطفى غفر الله لها ولوالديها واحسن اليهما واليها ٠٠٠ »

ولعلها حرفت البيت المشهور :

الخط يبقى زمانا بعد كاتبه ٠٠٠

عدد صفحاته = ٦٣٠ صفحة ٠

طول الصفحة = ٢٥سم ٠

وعرضها = ١٦ سم

وعدد الاسطر في كل صفحة ١٥ سطرا ٠

وهو من موقوفات جامع الحيدرخانة ، وهو تحت رقم [١٠٧٤] في مكتبة الاوقاف العامة ٠

٥ ـ سر الصناعة :

للامام ابي الفتح عثمان بن جني النحوى الموصلي المتوفى في سنة ٣٩٢ هـ الجزء الاول فقط ٠

مجلد لطيف ، ورقه اسمر صقيل سميك ، خطه قديم مقروء واضح جاء على الصفحة الاولى منه العبارة التالية « هذا سر الصناعة لابن جني محرر قبل تأريخ الستماية وهو كتاب قليل الوجود كثير الفائدة وكان من كتب العلامة ابن هشام وعليه خطه ولذا اشتريته واوقفته على المدرسة المرجانية كسائر كتبي وانا العبد نعمان بن السيد محمود المفتي الشهير بابن الآلوسي ١٣١٧ هـ » ٠

ولعل خط ابن هشام الذي أشار اليه المرحوم السيد نعمان الآلوسي هو ما جاء في أعلى الصفحة الثانية من المخطوط وهو ما نصه « لشافع بن علي بن عباس عفا الله عنهم ملكه اليـاس بن يوسف بن ناجي الحنفي ثم عبدالله بن يوسف بن هشام الحنبلي ٠٠ » اه

وعليه تمليك باسم عبدالله بن عبدالطاهر بدمشق سنة ٦٦٣هـ والذي يبدو من قدم الخط والورق ورسم الحروف ان الكتاب من مخطوطات القرن الرابع للهجرة ، أوله « بسم الله الرحمن الرجيم ، وبه نستعين ، رسمت أطال الله بقاءك وأحسن أمتاع العلم و ٠٠٠٠ فانك بحمد الله مازلت ٠٠٠٠ له ولهم وقفاً عليه وعليهم ان اظلم شق منه كتب لهم فيه سراجاً أو طمس منار له وجدت اليه منهاجاً أو قعد غيرك عنه قمت بأعبائه مرامياً عن حوزته من أمامه وورائه متقيلا آثار أسلافك الغر الأطايب الذين خصهمالله عز وجل واياك بأرفع المراتب وانتضاهم من سلالة النجباء والنجايب أن أضع كتاباً يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم ٠٠٠ » اه

وآخره « نجز الجزء الاول من الكتاب الموسوم بسر صناعة الأعراب تاليف أبي الفتـح عثمان بن جني والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنـا والصلوة على نبيه محمد وآله وصحبه والسلام ، يتلوه في أول الثاني حرف الميم ان شاء الله تعالى ٠٠ » اهـ ٠

وعدد صفحاته = ٣١٦ صفحة ٠

طول الصفحة = ٢١سم

وعرضها = ١٤سم

وعدد الاسطر في كل صفحة = ١٧ سطراً ٠

وهوتحت رقم [٦٠٢١] في مكتبة الاوقاف العامة ، وهو من موقافات العلامة المرحوم السيد نعمان الالوسي ٠ وقد طبع الجزء الاول من هـذا الكتاب الجليل في القاهرة ٠

٦ ـ مجموعة السيد صالح السعدي الموصلي :

والسيد صالح السعدي هـذا اعجوبة القرن الثالث عشر في ذكائه ومعرفته بآداب اللغة العربية والتركية والفارسية ونظمه بها ٠ وفي حسن خطه وافتنانه به وكتابته باثني عشر قلماً خطا رائعا وكتابته على حبة ارزة الكتابة الدقيقة الفائقة على نحو ما ذاع في أيامنا عن نسيب مكارم الخطاط اللبناني المشهور ٠٠ وكانت خاتمة هذا النابغة مؤلمة جدا ، فقد ذبح في أيام حكومة محمد أمين باشـا والي الموصل سنة «١٢٤٤هـ ـ ١٢٦٣هـ» في مؤامرة استهدفت القضاء على الوالي المذكور ونفر من رجال ولايته منهـم المترجم وكان كاتب ديوان الانشاء فعرض له وهو راكب حصانه رجل من المتآمرين فانزله ، وذبحه بيده فيالطريق، وكان عمره يوم ذبح ـرحمه اللهـ اثنتين وخمسين سنة ٠٠٠(١٣)

والمجموعة تقع في «١٤٧» ورقة

طول الصفحة = ٢٢سم
وعرضها = ١٢سم
وهي بخط هذا النابغة الفذ كتبها وأهداها الى استاذه الامام الجليل أبي الثناء محمود شهاب الدين الالوسي ، وتضمنت لوحات خلابة رائعة من خطوطه مزخرفة بماء الذهب واحتجنت مختارات رائعة من شعر شعراء العربية قدامى ومحدثين ومعاصرين للسيد السعدي ، كما احتوت على بعض القصائد باللغة الفارسية وفي نهـــاية هذه المجموعة الرائعة دائرة قطرها ٣سم كتب فيها سورة (عم يتساءلون) بخط دقيق جدا لايكاد يرى بالعين المجردة . وهذا من أعجب العجب .
وهذه المجموعة النفيسة من موقوفات العلامة السيد نعمان الالوسي وهي تحت رقم [٥٧٣٤] في المكتبة .

٧ ـ أجلة التأييد في شرح أدلة التوحيد :

للشيخ علي بن أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل علاء الدين المهائمي الدكني الهندي الحنفي الفقيه الصوفي ولد في سنة ٧٧٦هـ وتوفى في سنة ٨٣٥هـ .(١٤)

يقع في مجلد لطيف متوسط الحجم يتضمن رسالة اخرى في الانتصار لابن عربي ، ورقها أبيض سميك ، خطها جيد وقلمها المعروف بالرقعة .
وفي الكشاف ص٢٩٥ نسبها المرحوم الدكتور طلس الى « أحدهم » ولم يعرف صاحبها ، وهذه المخطوطة هي النسخة الثانية في جميع مكتبات العالم ، اذ توجد النسخة الاولى في مكتبة جامعة برنستون ضمن مخطوطات (يهودا) وهي تحت رقم [٤٦٠١](١٥) .
وعلـى الصفحة الاولى منـــه تمليك باسم « السيد محمد أمين نجل المرحوم السيد ولي الدين مهنـــدس عساكر محمدية منصورة » مؤرخ في ٢٧ رجب ١٢٥٧هـ . والسيد محمد امين هذا هو مفتي بغداد المعروف بالكهيا والذي تقدمت ترجمته آنفا ، وعنوان الكتاب على الصفحة الاولى منه جاء هكذا « كتاب فيه رسالة في وحدة الوجود » اهـ
أوله « الحمد لله على أن كمل على الانسان نعمه بالعرفان ففتح عليـــه خزائن الكشف والعيان وأيده بأدلة العقل من التمثيل والاستقراء والبرهان بعدما أشار اليها في القرآن الذي هو المعجزة الباقية على ممر الازمان من جمعه بين أسرار المعاملة والمكاشفة مقرونة بأدلتها التي عجز عما يدانيهـا أفكار الفلاسفة والبراهمة وسائر عقلاء أهل الأديان بألفاظ يشترك في فهمها أكثر مراتب الانسان .. » اهـ .
عدد أوراقها = ٧٤ ورقة (١٤٨ صفحة)
طول الصفحة = ٢٠سم
طول الصفحة = ٢٠سم

عرضها = ١٤سم
عدد الأسطر في كل صفحة ١٦ سطراً
وهو من مخطوطات القرن الحادي عشر ، مجهول الناسخ ، ورقمه في مكتبة الاوقاف [٤٩٠٨]

٨ ـ صحيح البخاري :

للامام البخاري ، المولود في بخـــارى سنة (١٩٤هـ ـ والمتوفى في بخزنتك ـ سمرقنة في سنة ٢٥٦هـ ٠

مجلد لطيف ، مزخرف بماء الذهب ، ورقه أبيض صقيل جيـــد ، والنسخة هذه خزائنية نادرة نفيسة ، وخطها تحفة من تحف القرن الثالث عشر ٠ وندرتها تأتي من حيث ان ناسخها هو الامام المفسر الشهير أبوالثناء شهاب الدين محمود الالوسي ٠

انتهى من كتابتها في سنة ١٢٧٠هـ ، وهي من موقوفات العلامة نعمان خيرالدين الالوسي ٠

عدد صفحاتها = ٩٥٦ صفحة ٠
طول الصفحة = ٢٨سم
عرضها = ١٦سم
عدد الأسطر في كل صفحة ٣١ سطراً ٠
وهي تحت رقم [٦٦٩٩] في مكتبة الاوقاف العامة ٠٠٠
هذه جملة لطيفة من بعض نفائس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة ٠

---

(١) راجع : نقد الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الاوقاف ، للاستاذ محمد بهجة الاثرى ، مجلة المجمع العلمي العراقي م/٣ ج/١ ص ١٨٣ ٠
(٢) راجع ديوان الرصافي ، ط سنة ١٩٣١م ص ٥١٣ ٠
(٣) مساجد بغداد للامام الالوسي وتهذيب الاستاذ الاثري ، ص ٨٤
(٤) الكشاف للمرحوم الدكتور اسعد طلس ، ص ٢ ٠
(٥) مساجد بغداد ص ٦٢ ٠
(٦) مساجد بغداد ص ٢٧ ٠
(٧) مساجد بغداد ص ٧٢ ٠
(٨) اعلام العراق ، للاستاذ الاثري ، ص ٥٩/٦٥ ٠
(٩) مساجد بغداد ص ٣٤ ٠
(١٠) مساجد بغداد ص ١٤٠ والكشاف ص ٨ ٠
(١١) مساجد بغداد ص ٤٠ ، واسمه فيه « جامع راس القرية »
(١٢) افادنيه الدكتور الاستاذ مصطفى جواد ٠
(١٣) من المبحث الذي كتبـــه اســـتاذنا السيد محمـــد بهجـــة الاثري في نقـــد كتاب الكشاف للمرحوم الدكتور محمد أسعد طلس ، في مجلة المجمـــع العلمي العراقي م/٣ ، ١/١٨٨ ٠
(١٤) راجع : هدية العارفين ص ٧٣٠ ، وذيل كشف الظنون ١/٣٢ ٠
(١٥) افدت هذا من الصديق الدكتور نقولا مير ، استاذ الفلسفة الاسلامية في جامعة هارفرد ـ امريكا ٠

الله والعالم عند الكندي

الدكتور عثمان عيسى شاهين

محاضر الفلسفة بجامعة الخرطوم

تمتاز نظرية الله والعالم عند الكندي بانها اسلامية متأثرة بارسطاطاليس ولكنها لم تفقد مع هذا التأثر خصائص القوة والاصالة فيها • فما هي اذن هذه النظرية ، وكيف نستطيع ان نتفهمها من ثنايا ما تادى الينا من نصوص محققة ومنشورة ؟ تمتاز براهين وجود الله عند الكندي بانها أقرب ، في صلتها بالعالم ، الى المحتوى الديني الاسلامي ، كما هو الحال عند ابن سينا ، وتتضح براهين الكندي هذه بانها ابعد ، ـ اذا ما قيست بما عند الفارابي ، ـ عن الافلاطونية المحدثة • ولكن ليس من السهولة ان يتجاهل الباحث ، ـ وهو يتحدث عن الهيات الكندي وصلتها بالعالم المحدث ، وهو يحاول ان يتلمس وجه الاصالة فيها ، ـ نظرية المحرك الابدي الاول عند ارسطاطاليس ، هذا المحرك الذي عرفته الفلسفات الالهية جميعها : مسيحية واسلامية • فما هي اذن طبيعة هذا المحرك ، ما هي خصائصه ، والى أي حد اثر في فهم الله عند الكندي ؟

لا يقبل ارسطاطاليس ان يكون هذا المحرك الابدي الاول متكثرا ، بل انه واحد وعلة لما عداه من المتحركات الاخرى • يختلف هذا المحرك عن الموجودات التي تتكون من الاحجام والاجزاء والاعظام ، انه ، وهو يتصف بالوحدة ، ويعتبر مبدأ جميع الاشياء علة الوجود والعدم والتغير في الكائنات ، ولكن من غير ان ينعت بأي من هذه في وجه من الوجوه • وحينما يرى ارسطاطاليس ان الاشياء المتغيرة لا يمكن ان تكون علة حقيقية للحركة ، فانه يفرق ، وفي اصالة ، بين حركات الاجرام العليا ، التي تتحرك بواسطة محرك ازلي لا يتحرك ، وان تغيرها يكون ازليا كذلك ، وحركات

الاشياء الطبيعية السفلى التي تتحرك عن طريق شيء متغير متبدل ، وانها تكون بذاتها متغيرة كذلك . ولكن هذا المحرك القديم ، الذي يطلق عليه الكندي لفظة الله ، والذي يقبل ان يكون عنده علة الاشياء جميعها بتوسط وبغير توسط ، هو عند ارسطاطاليس ابدى بسيط ، انه ، وباستمرار ، في حالة واحدة لا تتبدل ، انه يحرك حركة واحدة وبسيطة(١) .

ان الله الابدى ، والذي هو العلة الاولى ، لا يقبل ان يوصف عند الكندي بالعدم ، انه لا موضوع له ، ولا محمول ، ولا فاعل ولا سبب . يبرهن الكندي هنا ، وكما يفعل الغزالي وابن سينا ، على ان الله الازلي لا تحده التعريفات المنطقية ، يعني انه لا جنس له ، لانه ان كان له جنس فهو نوع ، والنوع مركب من جنسه العام له ولغيره ومن فصل ليس في غيره ، فله موضوع هو الجنس القابل لصورته وصورة غيره ، ومحمول هو الصورة الخاصة له دون غيره ، فله موضوع ومحمول .

ولكن قد ظهر ان الله الابدي ليس له عند الكندي موضوع ولا محمول ولا جنس ... ان الله عند الكندي ، وهو الذي اوجد العالم المحدث ، تام وكامل وموجود ، لا يقبل التبدل والفساد والانتقال من النقص الى التمام ، لان الانتقال استحالة ما ، انه لا يمكن ان يكون ناقصا فيصير الى حال يكون بها فاضلا وكاملا ، انه لا يمكن ان يستحيل الى افضل منه ولا الى انقص منه بتة ، ان الله الابدي ، ــ وكما يبرهن أرسطاطاليس في طبيعة المحرك الاول الذي لا يقبل الامتداد ، ــ لا جنس له عند الكندي ، لا يمكن ان يكون جرما ذا كمية أو كيفية(٢) ، لانه سيتصف بحدود الزمان والمكان والتناهي ، والله الذي خلق العالم وامسكه وابدعه ، هو الفاعل ، الحق الاول ، الازلي ، انه يعلو على كل ما يتصوزه عقل الانسان ...

يحاول ان يربط الكندي في كثير من رسائله ، وفي اصالة ظاهرة بين الحركة والجرم والزمان ، ويدعم بهذا الربط نظريته في تناهي وحدوث العالم . اذا قال الكندي في بادىء الامر ان الزمان مدة تعدها الحركة ، وانه اذا لم تكن حركة لم يكن زمان ، فانه يوحد بينها حينما يقول : ان كان زمان فحركة ، وان كانت حركة فجرم . ان الحركة ملازمة للجرم بوجه عام ، وان الجرم في زمان حي كم متصل . إن الحركة والجرم والزمان لا يسبق بعضها بعضا في الانية ، انها ، ــ وتختلف في هذا عن الذات الالهية ، ــ ذات بداية ونهاية . والجرم ، كالزمان موجود معناه ، انه يقبل الكون والفساد ، وانه ، من حيث انه شيء حادث ، لا يمكن ان يكون لا نهاية له بالفعل(٣) .

يرى الكندي ، في نظريته عن الله والعالم ، ان الحركة موجودة ما دام هنالك جرم ، وقد قيل ان الحركة لا تكون ، اذا كان الجرم موجودا ، وهذا محال حسب رأيه ، لانه اذا كان هنالك جرم كانت حركة اضطرارا ، اذا افترض وجود الجرم بدون الحركة ، فاما الا تكون حركة بته ، واما ان

تقبل الا تكون في وقت ما ، وان تكون في آخر ، يعني الكندي ان تقبل هذه الحركة حالتي الوجود والعدم • ومن الطبيعي انه اذا كانت الحركة ليست موجودة ، وان الجرم موجود[4] ، فسيحدث تناقض واضح حسب مذهب الكندي العام ، لاننا عرفنا ان الحركة والجرم والزمان عنده لا يسبق بعضها بعضا في الانية فهي معا •

ولنتفهم رأي الكندي في عدم قبول انتساب اللاتناهي الى الجرم والعالم ، لابد لنا ان نناقش ، وفي اقتضاب ، آراء ارسطاطاليس في هذا السبيل تلك الآراء التي ستوضح لنا طبيعة ادراك التناهي واللاتناهي بوجه عام • يقول ارسطاطاليس في الكتاب الثالث من الطبيعيات : ان الفيثاغوريين وافلاطون قد اعتبروا اللامتناهي جوهرا وشيئا قائما بذاته ، وان تصور العناصر الاربعة في الفلسفتين الايونية والطبيعية قد اشار الى وجود هذا اللامتناهي ، ـ وهو مبدأ لا يقبل الفناء ، ـ عن متصل ملموس •

لا ينكر ارسطاطاليس اننا سنكون أمام صعوبات جمة حينما نحاول امتحان نظرية اللامتناهي • يظهر ارسطو هنا أمام نظرتين قد لا تبدوان متعارضتين الى حد كبير ، نظرة اوحت بها اليه دراساته الطبيعية التي تعتبر الجسم المكاني متناهيا ، ونظرة ثانية اسعفته بها الدراسات المتقدمة عليه حينما اعتبر مادة العالم القديمة أزلية غير محدودة • ان الكندي لم يقف كثيرا امام هذه الناحية كما سيفعل ابن رشد فيما بعد ، انه لم يفكر في المشاكل الذهنية البعيدة المدى ، تلك المشاكل التي قد تعترض الباحث حينما يتصور فكرة اللامتناهي عند الاقدمين ، وفكرة الحدوث أو التناهي عند المسلمين • واذا لم تستوقف الكندي هذه النظرة العويصة بعض الوقت ، فان استاذه ارسطاطاليس قد أخذ يتساءل عن طبيعة هـذا اللامتناهي : هل هو جوهر ، ام هو محمول ذاتي على طبيعة ما ، ام هو لا هذا ولا ذاك ؟ لا يمكن ان يوجد اللامتناهي بالفعل ••• تلك هي حكمة قال بها ارسطاطاليس حينما نظر الى الجسم المحسوس المحدود ، وأكدها عن طيب خاطر تلميذه الكندي ، لا يتصور ارسطاطاليس ان يوجد اللامتناهي بالفعل كجوهر ، أو كمبدأ ، او كقدر او كعدد ، لانه سيقبل اذن القسمة والتجزئة والتناهي والزيادة والنقصان • ان الجسم المحسوس الذي يتكون من عناصر متناهية العدد ، والذي يوجد بطبيعته في مكان ما لا يقبل ان ينتسب اليه كما يقول ارسطاطاليس ، وكما يتضح هذا بجلاء عند تلميذه الكندي ، فكرة اللاتناهي بأية حال من الاحوال •

ولكن اذا حاول ارسطاطاليس ان ينكر فكرة انتساب اللاتناهي الى الجسم المحسوس الموجود في المكان ، فانه قد يقبل وجود جوهر اللامتناهي بوجه ما • لاننا اذا انكرنا ، وكما تقول نصوص الطبيعيات فكرة اللامتناهي انكارا مطلقا وابديا ، فستكون اذن للزمان ولهذا العالم بداية ونهاية • وكانا بارسطاليس يعبر عن هذا في اسلوب شعري جميل ، وذلك حينما

يقول : ويتحقق اللامتناهي من ان كل شيء يبدو في الوجود من جديد ، من ان كل محدود لابد له ان يظهر في وضع مباين ومغاير ٠ ان يتصور الحركة والزمان اللامتناهيين لا يفهم الا في عالم الامتثال ، هذا الذي يجعلنا نظن الاشياء دائما في وضع يختلف عما هو عليه في الواقع ، ومن هنا فان فكرة الجوهر اللامتناهي قد تتحقق عند ارسطاطاليس والى حد ما ، في جو يقرب من المثل الافلاطونية(٥) ، على حين ان الكندي لم يلجأ الى هذا التصور الجزئي المثالي ، وامن بعالم الاجسام المتناهية وارتباطها بالحركة والزمان والمكان ٠٠٠

ولكن كيف يوضح الكندي ، في نظريته عن الله والعالم ، انه لا يمكن ان يكون جرم لا نهاية له ٠ يبرهن على هذا بنصه : انه ان امكن ان يكون جرم لا نهاية له ، فقد يمكن ان يتوهم منه جرم محدود الشكل متناه ، واذا توهم من الجرم اللامتناهي اخر محدودا ، فقد يقال : هل هذا الجسم المحدود هو متناه ام لا متناه ، فان كان هذا الجسم المحدود متناه فان الجملة ستكون متناهية ، ذلك لان الاعظام التي يعتبر كل واحد منها متناه تكون جملتها متناهية ، ومن المستحيل ، حسب برهنة الكندي ، ان يكون الجرم لا متناهيا ومتناهيا(٦) ٠

لم يشن الكندي ، حينما يقول بتناهي الجرم ، ان يثبت في نظريته عن الله والعالم ، كيف ان الله ، وهو الفاعل الحق ، وغاية كل علة ، يستطيع وحده ايجاد الموجودات عن عدم ٠ انه المبدع الذي لا يتأثر بجنس من أجناس التاثر ، انه وهو الفاعل لا يقبل ، كمخلوقاته ، ان ينفعل بتة ٠ وقد يقرب الكندي ، حينما يناقش طبيعة الفعل والانفعال ، من الغزالي ٠ يقول الكندي : « ان الفاعل الحق الاول لا ينفعل بتة واما ما دونه اعني جميع خلقه ، فانها تسمى فاعلات بالمجاز ، لا بالحقيقة اعني انها كلها منفعلة بالحقيقة ٠ » وهو يقدر بهذا ان الفلك الاعلى هو المفعول الاول ، وانه باختلاف حركات ما فيه من اجرام متحركة على انحاء معينة ، يفعل فيما دونه ، ويعتبر هذا الفلك مبدعا ، ابدعه خالقه ومنشئه ، أي ابدعه الله الذي هو العلة المباشرة أو غير المباشرة لكل ما يقع في الكون(٧) ٠ يرى الكندي ان الاول ينفعل عن الباريء وينفعل عن هذا ثان ، وهكذا حتى ينتهي الامر الى المنفعل الاخير منها ٠ ان المنفعل الاول يسمى فاعلا بالمجاز للمنفعل عنه ، لانه علة انفعاله القريبة ، وكذلك الثاني ، اذ هو علة الثالث القريبة في انفعاله حتى ينتهي الى آخر المفعولات ٠ ويختم الكندي هذه البرهنة التي قد توهم بتأثير افلوطوني ، والتي قد تبدو واضحة عند الفارابي فيما بعد ، الى ان الله ، اي الباريء تعالى هـو « العلة الاولى لجميع المفعولات التي بتوسط ، والتي بغير توسط ، بالحقيقة ، لانه فاعل لا منفعل بتة ، الا انه علة قريبة للمنفعل الاول ، وعلة بتوسط لما بعد المنفعل الاول من مفعولاته(٨) ٠

ان الظواهر المحسوسة لتدل ، كما يرى الكندي ، أوضح دلالة على وجود هذا الفاعل الحق المدبر ، هذا الموجود الذي لم يكتسب وجوده من شيء خارجي عنه ، والذي يعده الكندي الواحد الحق ، والعلة الاولى التي لا تقبل التكثر بحال من الاحوال • انه كما يقول في نصه : « العلة الفاعلة التي لا فاعل لها ، المتممة التي لا متمم لها » ، وانه هو الذي يجعل الاشياء تقبل العلل والاسباب(٩) • وقد رمزت الطبيعة في جميع الاشياء بان علة الكل واحد حق ، هذا الواحد المحجوبة عنه الأعين الجثمانية ، الذي هو تام وكامل ، لا يلحقه النقص والانفصال بجهة من الجهات(١٠) •

والكندي الذي يرى ، في نظريته عن الله والعالم ، ان الواحد الحق تام وكامل ، يبرهن على ان الجرم وكل محمول فيه هو متناه ، انه يقبل الحركة والكم والمكان والزمان(١١) • والعلاقة كائنة عند الكندي بين الجرم ، ــ الذي يحده بانه جوهر طويل عريض عميق ، ذو ابعاد ثلاثة(١٢)• مركب من هيولى وصورة ، ــ وبين الاعظام المتجانسة • يرى الكندي ان الاعظام المتجانسة التي كل واحد منها متناه هي في جملتها متناهية • انه لا يمكن ان يكون جرم لا نهاية له اعظم من جرم لا نهاية له ، على حين ان كل عظيمين متجانسين ، ــ ليس احدهما اعظم من الآخر ، ــ متساويان • ويخلص الكندي من هذا الى ان جرم الكل ، أي العالم ، ليس يمكن ان يكون لا نهاية له بل هو متناه(١٣) •

واذ يحاول الكندي اقامة الدليل على فكرة التناهي يقول : قد يظن انه يمكن ان يكون جرم الكل كان ساكنا اولا وكان ممكنا ان يتحرك ثم تحرك ، وهذا ظن كاذب بالضرورة ، لان جرم الكل ، أي العالم ، ان كان ساكنا اولا ثم تحرك ، فلا يخلو ان يكون جرم الكل موجودا بعد عدم ، أي كما جاء في نص الكندي ، كونا عن ليس ، أو يكون قديما • فان كونا عن ليس ، فان وجوده قد اكتسب اذن الكون عن طريق الحركة ، واذا لم يسبق الجرم الكون كان الكون ذاته ، فاذن لم يسبق كون الجرم الحركة بتة • وقد قيل ان جرم الكل كان اولا ولا حركة ، وهذا ما لا يقبله الكندي ، لانه ان كان جرم الكل موجودا عن عدم ، كونا عن ليس ، فانه ليس يمكن ان يسبق الحركة • واذا كان الجرم لم يزل ساكنا ، أي قديما ، ثم تحرك لانه كان ممكنا له ان يتحرك ، فقد استحال اذن جرم الكل القديم من السكون بالفعل الى الحركة بالفعل ، والقديم ، كما نعرف ، لا يقبل ان ينعت بلفظة الاستحالة ، فهو اذن مستحيل لا مستحيل ، وهذا خلف لا يمكن • ويخلص الكندي من هذه البرهنة الاصيلة على انه ليس يمكن ان يكون جرم الكل قديما أي لم يزل ساكنا بالفعل ، ثم قبل ان يتحرك بالفعل ، لانه اذا كانت الحركة فيــه موجودة ، فهو لم يسبق الحركة بته • ويختم الكندي هذه البرهنة في نص مشرق جميل : « ان كانت حركة كان جرم اضطرارا ، وان كان جرم كانت حركة اضطرارا ، فمدة

الجرم اللازمة للجرم ابدا تعدها حركة الجرم اللازمة للجرم ابدا ، فالجرم لايسبق الزمان ابدا ، فالجرم والحركة والزمان لايسبق بعضها ابدا »(١٤). وفكرة التناهي هذه في الجرم هي التي تميز نظرية الحدوث عند الكندي ، بالاصالة ، وتجعلها ذات طابع يختلف عن الفلسفة الايونية والطبيعية ، وعن استاذه ارسطاطاليس .

ان الجرم المتناهي الذي يقبل التبدل ، عن طريق الحركة المكانية ، بالقرب من مركزه او البعد منه ، يوصف عند الكندي بانه مركب ، لا يمكن تصوره منفصلا عن الحركة والزمان ، لا يقبل الازلية بحال من الاحوال ، انه محدث له خالقه ومحدثه(١٥) . ان الجرم والحركة والزمان ، كما يؤكد الكندي في كل نص ومناسبة ، لا يسبق بعضها بعضا في الانية ، فهي معا ، فاذا كان الجرم لا يسبق مدة تعدها الحركة ، واذا كان الزمان ذا نهاية بالفعل ، فانية الجرم ذات نهاية بالفعل اضطرارا(١٦) . ومن هنا فقد اثبتت نظرية الله والعالم عند الكندي ، حدوث العالم ، زواله ونهايته ، كما انها اكدت خلود الله المحدث ، لا نهائيته وابديته ...

حينما يحاول أرسطاطاليس ان يناقش (كما سيفعل الكندي في تصوره للعالم) ، مبحث الزمان ، من حيث عنصر ، جوهر ، متحرك من نقطة بداية الى نهاية ، انه ينتسب الى المقدار ، حينما يحاول ان يفعل هذا فانه يربطه ، كما سيكون الحال عند الكندي ، بالحركة التي تخضع للاتصال اننا نعرف الزمان حينما نحدد الحركة باستعمال لفظتي التقدم والتأخر ، ولا نشير الى هذا الزمان بأنه ماض الا اذا احسسنا بالتقدم والتأخر في الحركة . وارسطاطاليس الذي يقول ان الحركة انما تعرف بالمتحرك ، وان النقلة انما تعرف بالمنتقل ، والذي يقبل انه لا يمكن تصور الزمان من غير الآن ، كما لا يمكن تصور الآن من غير الزمان ، يعطينا تعريفا خالدا ، وجامعا مانعا ، تعريفا قبلته منه الفلسفات المسيحية والاسلامية ، وذلك حينما يذكر : ان الزمان هو مقدار الحركة بحسب المتقدم والمتاخر ، انه متصل وينتسب الى متصل ...

واذا كان زمان الموجودات الابدية الخالدة لا يحويها ، لا يقيس مقدار وجودها وليس له تأثير عليها فان زمان الكائنات الحسية يعتبر ، عند الفيلسوف اليوناني وفي لحظة تشاؤم ، سبب هدم لا بناء ، لانه مقدار الحركة ، والحركة تضعف وتفني ما هو موجود . ولكن هل يمكن تصور الزمان من غير النفس ؟ سؤال ممتع وجميل سبق ارسطاطاليس الكندي اليه ، جاء ديكارت واقامه نظرية دفعته الى معرفة الله والعالم وجاء برجسون واقامه فلسفة انبنى عليها فهم الحرية والشعور والحدس والوجدان . يرتأي ارسطاطاليس انه ليس هنالك شيء يمكن ان يعد خارج النفس والعقل ، واذا كان الزمان هو مقدار الحركة ، ـ بصفة عامة وكلية وليست حركة ما ، ـ بحسب المتقدم والمتأخر ، واذا كانت الحركة المعدودة لا تقوم

الا بالزمان ، فان الزمان يوجد في داخل النفس(١٧) ٠

والكندي الذي قد تأثر كغيره من فلاسفة المسلمين باستاذه ارسطاطاليس ، لا يستطيع ان يتصور ، في نظرية الله والعالم ، جرما بلازمان - يرى ان الزمان والجرم متناهيان ، ان الحركة هي حركة الجرم ، فان كان جرم كانت حركة ، وان لم يكن جرم لم تكن حركة ٠ واذا كانت الحركة هي تبدل الاحوال ، وان كل تبدل هو عاد كما يقول في نصه ، مدة المتبدل ، فان التبدل سيسري كذلك على الزمان ، هذا الزمان الذي لا يمكن ان يتصور بالفعل لا نهاية له(١٨) ٠

وليبرهن الكندي على انه لا يمكن ان يكون زمان لا نهاية له بالفعل في ماضيه ولا آتيه يقول : اننا اذا قسمنا الزمان الى أجزاء فيجب ان نقف عند فصل متناه لا يكون قبله فصل ، انا اذا افترضنا خلف كل فصل من الزمان فصلا ولم نقدر ان نقف ، ولو في حالة التوهم ، عند حد ما ، فسنكون اذن امام لا متناه ، وسينتج في ذهننا زمان معلوم محدود ، وزمان غير معلوم : اي سنقف أمام لا متناه متناه ، وهذا خلف لايمكن ٠ ان ما لا نهاية له لا تقطع مسافته ولا يؤتى على آخرها ، فانه لا يقطع ما لا نهاية له من الزمان ، حتى ينتهي الى زمن محدود ، والانتهاء الى زمن محدود ، موجود به ، فليس الزمان فصلا من لا نهاية ، بل من نهاية اضطرارا ٠٠٠ ولكل زمان محدود نهايتان : نهاية اول ونهاية آخرة ، فان اتصل زمانان محدودان بنهاية واحدة مشتركة لهما ، فان نهاية كل واحد منهما الباقية محدودة معلومة ، واذا فرض ان جملة الزمانين وهي محدودة تصير ، عن طريق هذا الاتصال لا محدودة النهايات ، فسنكون اذن امام زمان محدود ولا محدود ، وهذا ما لا تقبله نظرية حدوث العالم عند الكندي بحال لانه كما زيد على الزمان المحدود زمان محدود ، فكله محدود النهاية من آخره ، ولا يمكن ان يكون الزمان الآتي وعلى هذا الاساس لا نهاية له بالفعل(١٩) ٠

تجمع مصنفات الكندي ، حينما يحاول ان يفهم تصور الله والعالم على ان الزمان من الكمية المتصلة ، وهي تتفق في هذا مع تعريف ارسطاطاليس ٠ تنفرد الفلسفة الاولى وتضيف على هذا التعريف بان العدد والقول لا يمكن ان يقال عليه وفي ذاته طويل او قصير ، بل ينصب عليه هذامنجهةالزمان الذي هو فيه ٠ يقال عدد طويل ، أي في زمان طويل ، وقول طويل أي في زمان طويل ، ولا يمكن ان يحتمل أي واحد من القول والعدد اسم الطول واسم القصر بذاته(٢٠) أي انه ليس هنالك للاشياء وجود مطلق في ذاتها بل في الزمان ٠ صحيح ، وكما تتفق على هذا المصادر الكندية ، ان افتراض زمان لا نهاية لاوله قد يؤدي الى تناقض لاننا اذا قلنا ان الزمان مكون من انات مفعولة ، وهو من الكم المتصل عنده ، فسنصل الى حد متناه نقف عنده ، وافتراضنا نظرة اللاتناهي ستناقض التناهي ، وسيكون الزمان متناهيا ولا متناهيا في نفس الوقت ، وهذا غير

معقول ولا مقبول · ونظرة ثانية بأن اللامتناهي لا تقطع مسافته ولا يؤتى على آخرها ، وبانه ليس متصلا من لا نهاية اضطرارا(٢١) ·

والله ، الذي خلق العالم والزمان ، يتصف عند الكندي بالوحدانية ، لا تعجز قدرته عن شيء ، انه يستطيع اخراج المعاني الى الكون ، خلق العالم في اتقن واكمل وافضل وجه ، خلق المعاني البسيطة مثل العنصر والصورة ، وابداع الاشياء المركبة · وقد صير الله الجوهر النفساني اما ناطقا واما لا ناطقا ، الناطق مثل الاشخاص العالية والانسان ، والذي لا ناطق هو الحرث والنسل ، وانه هو الذي جعل للحركة كينونتها وبقاءها(٢٢) · ويتساءل الكندي ، مع كل ذهن يعرض له هذا ، وكما فعل ارسطاطاليس بوضوح في الطبيعيات ، عن خالق هذا العالم ومحركه ، هل هو واحد ام كثير ، هل هو بسيط ام مركب ؟ ان الاشياء المركبة لابد ان تقبل القسمة والتجزئة ، والمتكثرة لابد ان تقبل انفصال بعض أجزائها عن بعض · والله ، الواحد ، الفاعل ، الاول ، لا يقبل من حيث انه يتسم بالبساطة ، الكثرة والتركيب ، وكما يقول الكندي في نص له : « ان الكثرة في كل الخلق موجودة ، وليست فيه بتة ، ولانه مبدع وهم مبدعون ، ولانه دائم وهم غير دائمين ، لان ما تبدل تبدلت احواله ، وما تبدل فهو غير دائم » ·(٢٣)

يحاول ان يبرهن ارسطاطاليس في الطبيعيات ، كما يفعل في ما وراء الطبيعة ، على وجود محرك أول قديم دائم غير متكثر ، وغير قابل للحركة · واذا كان انكسا جوارس قد قال ، كما يذكر عنه ارسطاطاليس ، بان العقل منزه عن الاختلاط بشيء ، انه مبدأ للحركة ، فان هذا الاخير قد قال بان المحرك الاول ، الذى لا يقبل التحريك بواسطة شيء سابق عليه يحرك ذاته · ان هذا المحرك هو دائما ، كالله عند الكندى ، بالفعل انه لا يمكن ان يكون فيه جانبان : احدهما يحرك والثاني يقبل ان يتحرك ، لانه اذا صح هذا فسيكون التحرك بينهما بالتناوب ، وسوف لا يكون هنالك محرك أول قديم انه لابد من ان تقف سلسلة الاشياء المتحركة بالغير عند حد ، وان هذا الاخير لابد ان يحرك ذاته بذاته ، ولابد من ان يتسم بصفة القدم والابدية والخلود(٢٤) ·

يتمشى الكندي ، ويرى في نظريته عن الله والعالم ، ان الله الواحد الابدي القديم هو علة كل كائن في هذا الوجود · يتلخص دليله ، في استحالة ان يكون الشيء علة لكون ذاته ، في حصر الاحتمالات الممكنة الآتية التي يحاول ان يبطلهما جميعا · (١) انه ليس ممكنا ان يكون الشيء علة كون ذاته ، وان تكون ذاته معدومة · لا يقبل الشيء ان يوصف بانه علة ومعلول الا اذا وصف بالوجود ، وانه من المستحيل ان يكون علة كون ذاته اذا كان معدوما · (٢) اذا كانت ذات الشيء هي غيره ، والمتغايرات يمكن ان يعرض لاحدهما ما لا يعرض للآخر ، وقد عرض له ان يكون موجودا وعرض

لذاته ان تكون معدومة ، فستكون ذاته اذن هي لا هو ، وكل شيء فذاته هي هو فهو لا هو ، وهو هو ، وهذا خلف لا يمكن • (٣) اذا كان الشيء موجودا وذاته موجودة ، أي حسب تعبير الكندي : ان كان أيسا وذاته أيس ، فهو علة ومعلول • يعني ان يكون علة ذاته ، وعرض لذاته ان تكون معلولته ، فذاته هي لا هو ، وكل شيء فذاته هي هو ، فهو لا هو ، وهو هو ، وهذا خلف لا يمكن •• يخلص الكندى من هذه البرهنة الاصيلة الى انـه من المستحيل ان يكون الشيء علة ذاته بل هو معلول دائما • ان الله وهو الفاعل الحقيقي ، والعلة القريبة والبعيدة لهذا الشيء ، يعطى للمعلولات جميعها وجودها وكمالها وبقاءها(٢٥) •

يعرف الكندي الحركة ، في بحثه عن الله والعالم ، بانها تبدل اما بمكان، واما بكم ، واما بكيف واما بجوهر ، وكل تبدل فالى غير(٢٦) يرى الكندى ان كل حركة اما ان تكون ذاتية واما ان تكون عرضية ، ويعني بالذاتية هى ما تكون من ذات الشيء ، ولا تفارق الشيء الذى هي فيـه الا بفساد جوهره ، ويضرب لهذا مثلا بحياة الحي التي لا تفارق الحي الا بفساد جوهره وانتقاله الى لاحي ، على حين ان الحركة العرضية هي عنده تلك التي ليست من ذات الشيء ، ويعني بما ليس من ذات الشيء ما يفارق الشيء ولا يفسد جوهره ، كالحياة في الجرم ، فان الجرم الحي قد تفارقه الحياة وان الجرمية ثابتة فيه على حالها لم تفسد(٢٧) •

ويكاد الكندى ينقل ، ولكن في شيء من الاصالة ، ما قاله ارسطاطاليس في تصور الزمان في داخل النفس • يقول الكندي : ان الحركة موجودة في النفس ، اعني ان الفكر ينتقل من بعض صور الاشياء الى بعض ، ومن اخلاق لازمة للنفس شتى مثل الفرح والحزن وما كان كذلك • فالفكر متكثرة ومتوحدة ، اذ لـكل كثرة كل وجزء ، اذ هي معدودة ، وهذه اعراض النفس ، فهي متكثرة ايضا ومتوحدة ، بهذا النوع(٢٨) • ومن هنا يتضح لنا كيف يصور الكندى ارتباط الزمان ، وهو في داخل النفس ، بالحركة والجرم ، ولكن هل يمكن تصور جرم من غير مكان ؟ هذا ما ستجيب عليه فلسفة ارسطاطاليس وبراهين الـكندي •••

واذا كان الجرم لا يمكن ان يتصور الا في المكان ، فان الكندى لـم يناقش ، في نظريته عن الله والعالم ، علاقة الحركة والجرم والزمان والمكان ، وكل ما فعله في هذا السبيل هو اشارة عابرة الى آراء الفلاسفة الذين لم يتعرض لاسمائهم ، الى افلاطـون ، ثم الى ارسطاطاليس الذى يقـول ان المكان موجود وبين • لا يقبل الكندى ان يكون المكان جسما ، ولعله يفترض يحتل خلاء ، لان الخلاء الخالي ، كما يقول ارسطو وابن سينا والكندى ، لا وجود له • يرفض الكندى ان يكون المكان جسما ، لان الجسم يقبـل اذن الجسم ، والجسم يقبل ويقبل ، وهكذا ابدا بلا نهاية ، وفكرة اللاتناهي هذه ، وكما نعرف مرفوضة عنده في نظرية حدوث العالم • يرى الكندى

اذن ان المكان ليس جسما ، بل هو السطح الذى هو خارج الجسم الذى يحويه المكان(٢٩) ينظر الخوارزمي الى مكان الشيء بانه سطح تعقير الهواء الذي فيه الجسم ، أو سطح تعقير الجسم الذى يحويه هواء(٣٠) يعرف الكندى المكان بانه نهايات الجسم(٣١) ، وبانـه يتكثر بقـدر ابعـاد المتمكـن ونهاياته(٣٢) ... لا يقبل الكندى ان يكون للخلاء المطلق وجود ، وليبرهن على هذا الرفض يقول ان معنى الخلاء هو مكان لا متمكن فيه . لا يصح وبانه حال من الاحوال ، تصور مكان من غير ان تتبعه اضافة متمكن ، اذا كان متمكن كان مكان اضطرارا ، اذا كان مكان وفيه متمكن ، فان وجود الخلاء المطلق اذن عند الكندي ، كما هو عند ارسطاطاليس ، مستحيل . واذا لم يكن ثمة خلاء مطلق فلابد اذن من الملأ ، وحيث ان هذا يكون جسما ، فلابد من ان يكون متناهيا ، لانه ليس يمكن ، حسب المذهب العام لنظرية الحدوث عند الكندي ، ان يكون شيء لا نهاية له بالفعل(٣٣) .

والكندي الذى يعرف الهيولي اي المادة ، في نظريته عن الله والعالم ، بانها موضوعة لحمل الصور ، وبانها منفعلة(٣٤)، يرى ان الهيولي هي ما يقبل ولا يقبل ، انها ما يمسك ولا يمسك .

يعنى بهذا انها تحفظ الصورة . والمادة التي يتكون منها كل شيء ، والتي تقبل الاضداد دون فساد(٣٥) ، تعطينا تمثلات كلية في النفس ، بحيث تكون هذه التمثلات القائمة في الصورة اشبه بالمحسوسة(٣٦) . وهو لا ينسى ان يفرق ، في نظرته الى المادة ، بين نوعين من المعرفة ، أي الوجود . ينقسم الوجود عنده الى حس يتصل بطبيعة الاشياء الجزئية الهيولانية ، وعقلي ينتسب الى الكليات والاجناس والعقل الانساني(٣٧). والكندى الذي يعرف الصور في رسالته عن الحدود بانها الشيء الذي به الشيء هو ما هو(٣٨) . يراها تنقسم الى قسمين : احدهما يقع تحت الحس والثاني تحت الجنس . واذا كانت الصورة الحسية تميز ، وعن طريق البصر ، الشيء من حيث الجوهر والكيف والكم وبقية الاجناس العشرة(٣٩) ، فان الكندى يرى ان الصورة في النفس هي والنفس شيء واحد ، لا يتغايران تغايرا مصدره غيرية المحمولات ، يعنى بهذا ما تحمله النفس في ذاتها وليس المحمولات المنطقية(٤٠) .

يتضح لنا من فهم لمادة والصو- من ادراك المحمولات والاجناس العشرة في نظرية الله والعـالم عند الكندي ، ان القول اولا بوجود الواحد الحق المبدع ، والقول ثانيا بالحدوث ، يحل مشكلة رئيسة تبدو في صميم العلاقة الكائنة بين الفلسفة والدين . يظهر لنا بجلاء من هذه الصلة ان تدبير العالم المرئي لا يمكن ان يكون الا بعالم لا يرى ، وان آثار العالم ، وما فيه من التناسق والنظام ، تدل على موجده ومدبره(٤١) ، هذا المدبر الابدي الذى وهب العالم الحركة والزمان والابداع ، الذي خلق المحدثات المنفعلات من لا شيء ، والذى أعطى الوجود اصالته وتمامه وكماله ..

(١) Aristote; Physique, VIII, 6, 258b 10-260a 19.
(٢) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ١ ، ص١١٣ ، ١١٤ .
(٣) الكندي : في ماهية ما لا يمكن ان يكون لا نهاية له . جـ١ ، ص١٩٦ الى ١٩٨ .
(٤) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ١ ص١١٧ ، ١١٨ .
(٥) Aristote; Physique; III, 4-8, 203a 30-208a 22.
(٦) الكندي : ايضاح تناهي جرم العالم . جـ١ ، ص١٩١ .
(٧) رسائل الكندي الفلسفية ، جـ١ مقدمة أبو ريده ، ص١٨٠ ، ١٨١ .
(٨) الكندي : في الفاعل الحق الاول التام ، جـ١ ، ص١٨٢ ، ١٨٣ .
(٩) الكندي : في علة الكون والفساد ، جـ١ ، ص٢١٤ ، ٢١٥ .
(١٠) الكندي : السبب الذي له نسبت القدماء الاشكال الخمسة الى الاسطقسات ، جـ٢ ص٦٢ ، ٦٣ .
(١١) الكندي : في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، جـ١ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(١٢) الكندي : في حدود الاشياء ورسومها ، جـ١ ، ص١٦٥ .
(١٣) الكندي : ايضاح تناهي جرم العالم ، جـ١ ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ .
(١٤) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ١ ، ص١١٨ و١١٩ .
(١٥) الكندي في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، جـ١ ، ص٢٠٤ الى ٢٠٧ .
(١٦) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ١ ، ص١٢٠ ، ١٢١ .
(١٧) Aristote; Physique; IV, 218b 10-224a 15.
(١٨) الكندي : في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .
(١٩) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .
(٢٠) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .
(٢١) الكندي : في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ . تعليق ابو ريده ، هامش ٤ .

(٢٢) الكندي : في الابانة عن سجود الجرم الاقصى ، جـ ١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
(٢٣) الكندي : في وحدانية الله وتناهي جرم العالم ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .
(٢٤) Artistote; Physique; VIII; 256a 4-258b 9.
(٢٥) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ١ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢٦) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٣٣ .
(٢٧) الكندي : في علة الكون والفساد ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .
(٢٨) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .
(٢٩) الكندي : في الجواهر الخمسة ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ .
(٣٠) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، القاهرة ، سنة ١٣٤٢ هـ ، ص ٨٣ .
(٣١) الكندي : في حدود الاشياء ورسومها ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .
(٣٢) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .
(٣٣) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣٤) الكندي : في حدود الاشياء ورسومها ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .
(٣٥) الكندي : في الجواهر الخمسة ، جـ ٢ ، ص ١٨ .
(٣٦) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .
(٣٧) الكندي : في الفلسفة الاولى ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .
(٣٨) الكندي : في حدود الاشياء ورسومها ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .
(٣٩) الكندي : في الجواهر الخمسة ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ، ٢٢ .
(٤٠) رسائل الكندي الفلسفية ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ ، هامش ٢ ، تعليق ابو ريده
(٤١) الكندي : في حدود الاشياء ورسومها ، جـ ١ ، ص ١٧٤ .

نازك الملائكة وبداية الشعر الحر

يوسف حسين بكار

كنت قد قرأت كتاب السيدة نازك الملائكة (قضايا الشعر المعاصر) حين صدوره ، ولقد لفت انتباهي في كتابها كلامها على بداية هذه الحركة الشعرية ، حيث تدعي في مستهله ان بداية هذا الشعر الذي تسميه هي حرا كانت سنة ١٩٤٧ في العراق ومن بغداد بالذات ومن ثم « زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربي كله وكادت ... »(١) وتضيف نازك ان اول قصيدة حرة الوزن نشرت كانت قصيدتها (الكوليرا) التي تصور مشاعرها نحو مصر الشقيقة عندما حل بها داء الكوليرا انذاك ، ومن ذلك الوقت تتالت القصائد الحرة في دواوين الشعراء ، ذكرت منهم نازك على سبيل المثال :

بدر شاكر السياب ، عبدالوهاب البياتي ، وسدل طاقة ..وغيرهم .

وما ان صدر الكتاب وتداوله الناس ، والمهتمين بالادب منهم أعني حتى ظهرت على صفحات المجلات الادبية في الوطن العربي كالآداب البيروتية و (الكاتب)المصرية مقالات تعرض فيها اصحابها الى كتاب نازك مبدين ملاحظاتهم حوله ـ وهي كثيرة ـ ، يهمنا منها هنا ما يتعلق ببداية هذه الحركة الشعرية التي نحن بصددها ، ويستشف منها جميعا ان السيدة نازك لم تكن أول رائدة لهذا النوع من الشعر كما تدعي ، وان هناك من سبقها الى قيادة هذه السيارة ـ ان صح التعبير ـ أو قل من ساهم في قيادتها على الاقل ولو الى حين .

ولقد فكرت قبلا في كتابة هذا المقال لسبب قد لا يكون بسيطا هو ان تسجيل بداية اية حركة مهما كان نوعها له اهميته ليس في الزمن الذى تظهر فيه فحسب وانما للمستقبل وللاجيال القادمة التي ستتناول هذه الحركات بالدرس والتمحيص كما نتناول نحن اليوم اثار القدامى ومخلفاتهم وأدبهم بالدرس والعناية . ومما زاد من تصميمي على الكتابة ما تهادى الى سمعي من أن السيدة نازك ترغب في طبع كتابها طبعة ثانية ،

لهذا آثرت أن أضع بين يديها ما اهتديت اليه وما عثرت عليه من أدلة يفهم من فحواها ويستخلص منها ان هناك محاولات قد سبقت نازك الى هذا الميدان ، وليس في ذكر هذه الادلة ـ كما أرى ـ غض من شأن نازك أو انكار لدورها الكبير في نضج هذا النوع من الشعر أما الادلة فهي :

اولا : ورد في مجلة (الكاتب) المصرية في حديث للكاتب القصصي المعروف (نجيب محفوظ) أجراه معه السيد (فؤاد دواره) بمناسبة بلوغ نجيب الخمسين من عمره ، ان نجيب محفوظ كان رائد المدرسة الحديثة في الشعر بلا منازع ، وهذا يرجع ـ على حد قوله ـ الى سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦ م ٠ واليك ما قاله نجيب بالحرف الواحد « واذكر انني في هذه الفترة ـ فترة بدء الكتابة عنده ـ كتبت الشعر ٠٠ كنت اكتبه في بادىء الامر موزونا ، ولكن كانت بعض الابيات تنكسر مني ٠٠ وحينما وجدت الابيات المكسورة كثيرة اطلقت الشعر وحررته من الوزن ، فكنت رائد المدرسة الحديثة في الشعر بلا منازع !٠٠٠ لان هذا يرجع الى سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ »(٢) ٠

ثانيا : نشرت مجلة (الآداب) اللبنانية مقالا بعنوان (ملاحظات حول كتاب قضايا الشعر المعاصر) للاستاذ علي الحسيني من العراق ، ذكر فيه كاتبه ان الاديب (علي احمد باكثير) قد ترجم رواية « روميو وجوليت » لشكسبير في عام ١٩٤٧ وفقا للطريقة الجديدة في كتابة الشعر ، ثم تساءل كاتب المقال قائلا « هل سبقت الشاعرة نازك الاديب باكثير في اكتشاف الشعر الحر ؟ ان نازك تقول وكأنها على ثقة تامة من قولها هذا انها كانت السباقة في هذا الاكتشاف الادبي الجديد ، ومع اني لا أريد أن أتجاهل دور نازك وباقي شعراء العراق المجددين في ظهور حركة الشعر الحر ، الا اني في نفس الوقت لا أستطيع أن أتجاهل كليا دور الاديب باكثير في هذا الصدد كما فعلت الشاعرة نازك في كتابها مهما كان هذا الدور صغيرا »(٣) ٠

ثالثا : قرأت في مجلة (الكاتب) المصرية (عدد مارس ١٩٦٣) مقالا بعنوان (نازك الملائكة والشعر الحر)(٤) للاستاذ الشاعر (صلاح عبدالصبور) تطرق فيه الى ادعاء نازك المذكور وقال بان محاولات كثيرة قد سبقت نازك الى هذا التجديد ، ومثل على هذا بالدكتور (لويس عوض) الذي كتب في عام ١٩٣٧ قصيدة بعنوان (كيريا لايسون) اقتطف منها :

أبي أبي

أبي أبي

احزان هذا الكوكب

ناء بها قلبي الصبي

الشوك في جبيني جراح الهدب

الرزء تحت الرزء في صدري خبي .. الخ

كما ان للشاعر (لويس عوض) نفسه قصيدة اخرى في ديوانه (بلوتولاند) الذي صدر عام ١٩٤٧ استعمل فيها تفعيلة بحر الرمل (فاعلاتن) بطريقة حرة ، وأرجو أن تعلم نازك ان لويس عوض كمايقول عبدالصبور « ليس مبتدعا من العدم ، بل متبع للموشحات وصهاريسج اللؤلؤة للسيد توفيق البكري والترجمات التى قام بها فريد ابوحديد...»

هذا ما عندي من أدلة وددت أن أذكر بها شاعرتنا الملهمة .وهي تقدم على اعادة طبع كتابها غير ناس دورها الكبير في هذا الميدان والى نازك مني كل تقدير واعجاب .

كلية الآداب ــ بغداد



(١) مستهل كتاب (قضايا الشعر المعاصر) لنازك الملائكة .
(٢) مجلة الكاتب المصرية . العدد (٢٢) يناير ١٩٦٣ .
(٣) مجلة الآداب اللبنانية . العدد الاول . كانون الثاني ١٩٦٣ .
(٤) مجلة الكاتب . العدد (٢٤) . مارس ١٩٦٣ .

العائدة

محمد اسماعيل الاسعد
كلية التجارة

أقبلت طيفاً كالسراب وموجة … خضراء تضحك في الشعور المزبد
روحاً كأغماء الضباب بريئة … تطفو على لج الحياة الأسود
في جفنك المأسور ألف حكاية … حملت على الأيام موردها الصدي
أهنا على صدري انشدت نهاية … أم في جراح كالشروب المنشد ؟
لملمت أيامي برفسة بسمة … همست بلحن كالصبا متورد
فسمعت صوتاً بالحنين مخضباً … ينساب من جرح الزمان الأبعد
أصغي فينثال الشعور وينتشي … في لجة من همسك المتجرد
من أنت ..؟ ضيعت الهواجس برقها … وطفا الحنان على شفاه الموعد
فرش الخيال بساطه في لمة … وخطرت وسنى كالظلال بمعبدي
يوماً رأيتك .. كنت أحلم بالندى … وأضيع في درب الرياح واهتدي
واعاكس الاقدار في غلوائها … واصيد خيطاً من شعاع الفرقد
وأظل أرقب في الفصول سحابة … لاغيب بين رذاذها المتبدد
ومررت بي .. مر الربيع بروضتي … وتطلعت أوتار شوق في يدي
فملاحمي علق السفاء جناحها … وأزاهري قبل الهوى لم توجد
ومضيت مثل الحلم في غبش الضحى … وعلى جبيني منك خاطرك الندي
نبعاً تدفق في انتشاء وارتمى … حيران يبحث عن ضفاف المورد

ثم انطوت رهن الشحوب على يدي ... روح بذوب عبيرها لم تعقد
وبقيت وحدي والظلام وخاطر ... يخبو ، وينأى في الظلام المجهد
متلفعاً بالذكريات أعيدها ... آهاً فآهاً للشعور المربد
من أنت ..؟ ضيعني الزمان بدربه ... وأطال في حلك الدجون تشردي

* * *

ها أنت بين تالقي ترنيمة ... تذكي الرجاء بقلبي المتوقد
أرجعت ما جمعت من صور وما ... أودعت في ذاك الزمان الابعد
فعلى جبينك نجمة من خاطري ... وعلى شفاهك نبأة عن موعدي
فتلمسي درب الرجوع لخافقي ... أمواج لحن بالنقاء مغرد
أنا لم أزل ذاك الصبي فرنقي ... كأس الشباب لحلمه المتمرد
عربت قلبي من شكوك مرة ... ورجعت من أبد الظنون الاسود
وعبدت فيك طهارة عذرية ... ضلت عن القلب الغريب المسهد
انت الصبا .. ولأنت ما ضيعته ... يوماً فلا أغلقت دونك معبدي



دخان في قلبي

بين أدب الاثارة وادب الثورة

فوزي عبد القادر الميلادي

الادب الذي يعتمد في جوهره على الاثارة ، اثارة المشاعر والغرائز سواء كان أدب مغامرات بوليسية او تجارب جنسية ·· قد يلقى رواجا في فترات معينة من حياة الشعوب مثل تلك الفترات التي تعقب الحروب ·· وقد يلقى اقبالا من فئات معينة من القراء مثل الشبان المراهقين والفتيات المراهقات ·· لكن هذا اللون من الادب لا يمكن أن يأخذ مكانا ولو ضئيلا في ركب الشوامخ الادبية التي تبقى على الدهر وتكفل لها قيمتها الفنية أسباب الخلود ··

كان ذلك ملء خاطري وأنا اطالع الصفحات الاولى من كتاب « دخان من قلبي » للاديب الجزائري الاستاذ الطاهر وطار وأجد وجه الجزائر العربية المجاهدة يكاد يختفي وراء قصص تروي تجارب جنسية يمارسها فتيان وفتيات ليس لهم رصيد من ثقافة ولا وعي ولا أخلاق ·· ولا يمتون بصلة الى واقع بلادهم وامانيها واحلامها ·· وانما قد يمتون بصلة أو صلات الى واقع الحياة في بعض أزقة باريس وحواريها وحاناتها ·

ولكنني لم أيأس وآثرت أن أقطع الشوط الى النهاية علني أرى وجـه الجزائر المكافحة الابية ولو في نهاية الطريق · وفي منتصف الطريق وجدت المؤلف يتحول من الصور المهزوزة عن الحياة العابثة اللاهية الى صور شائقة ومشرقة عن حياة الكفاح والنضال ووجدت الاسلوب الواهن الضعيف يتحول الى اسلوب راق ممتاز ·

وقبل أن انتقل الى عرض الكتاب أود أن أطرح هذا السؤال : ماذا يعني هذا الضعف البادي في قصص الاثارة وهذه القوة الكامنة في قصص الثـورة والمؤلف هو هو لم يتغير ···

ان ذلك يعني دون شك أن المؤلف عندما كتب قصصه العاطفية بقصد الاثارة كان يحاول أن يحاكي في سذاجة بعض كتاب الغرب من الدرجـة الثالثة ايمانا منه بأن هذا اللون قد يفتح أمامه أبواب الشهرة ويمثل بداية التطور في الادب العربي في شمال أفريقيا وعندما كتب عن الثورة الجزائرية كان يكتب من واقع الحياة الجزائرية نفسها ومن واقع ايمانه بعدالة الكفاح المرير الذي خضب أرض بلاده بالـدم أكثر من سبع سنوات ٠٠ وفـرق كبير بين أن يكتب الاديب مقلدا وبين أن يكتب من وحي عاطفتـه وضميره وايمانه ٠٠٠ وليأذن لي القارىء في أن أمر سريعا على القصص العاطفية حتى انتقل معه بعد ذلك الى جو عبق بشذى الثورة وما اقترن بها من بطولـة وتضحيـات ٠٠

قصة « حبة اللوز ٠٠ » أولى قصص المجموعة تصور حياة شاب يعيش وحيدا في منزله ومغرم بصيد الفئران ومشاهدتها وهي تصارع الموت وكلما رمى بفار منها بادر الى المصيدة يضع فيها حبة لوز وينتظر وصول ضحية جديدة تخر صريعة بين جدران المصيدة وهكذا ٠٠٠

وتلتقي به جاره له تسكن في مواجهته وتبدي له عواطف الغرام الكاذب حتى يسقط في حبائلها وتتردد عليه في منزله من وقت لآخر تقضي معه جانبا من الليل ٠٠ وقد فوجىء في المرات الاخيرة بوالدتها تطرق بابه منادية عليها كلما احتواهما المنزل وما ان يخرج ليفتح لها الباب حتى يجدها قد عـادت ادراجها ولا يعثر لها على أثر ٠

وفي احدى الليالي كانا على موعد لتقضي عنده الليل كله بعد أن غادرت والدتها المنزل وافهمت أباها أنها ستبيت عند خالتها ، وفي الموعد المحـدد العاشرة مساء تحضر الفتاة وتطرق الباب فلا يجيبها الفتى الا بعد لأي ٠٠٠ ويخرج اليها غاضبا ثائرا وبدون مقدمات يصفعها ثلاث مرات ويغلق الباب في وجهها ٠

وتمر ساعات من الليل ويطرق بابه مفتش من البوليس ما يكاد يفتح له الباب حتى يقتحم المسكن باحثا عن جارته فلا يعثر لها على أثر ولما ينكر الفتى وجود اية علاقة له بجارته تلك يقول له مفتش البوليس في رفق بعد أن أعياه البحث (امها تقول انك استوليت على لبها واستهويتها وانها تبيت عندك كل ليلة وانك تعدها بالزواج ٠٠ قل الحقيقة) ويفهم الفتى ويفهم القاريء ان المسألة لا تعدو أن تكون مؤامرة احكمت حلقاتها لكي تضبط الفتاة ليلا في منزل جارها فيتقي الفضيحة بالزواج ويدخل المصيدة كما يدخلها الفـأر بحثا عن حبة اللوز ٠٠٠

وفي قصة « صحراء أبدا » ثاني قصص المجموعة « تصوير لخواطر شاب يعيش وحيدا حياته رتيبة خالية من التجديد باردة خاليـة من الحنان ٠٠ ويتوق الى قلب يخلص له ويخفق له وحده بدلا من سعاد تلك الغانية اللعوب التي تتردد عليه من وقت لآخر تشرب معه ثم تنزع ثيابها ثم ثم ٠٠ وتتقاضى

الثمن وتمثل في الغد نفس الدور مع غيره وهكذا ... وبينما هو يفكر في تغيير مجرى حياته يجد يده قد خطت دون وعي منه « سأبقى في الصحراء الى الابـــد » .

ويختم المؤلف قصته هكذا « وبدون شعور نهض مصطفى وفتح الباب حتى تتمكن سعاد حين تأتي في الساعة الثامنة مساء من الدخول بسهولة فلا يتنبه اليها الجيران .. وكانت الساعة السادسة حين استلقى في مضجعه .. وقد أخذ الضوء يتسرب من النافذة يبدد الظلام الذي كانت تبدو فيه الحروف الجهنمية كاللهب ولم يطل الوقت حتى داهمه نوم عميق كالموت » .

ولا أود أن استرسل في عرض باقي القصص العاطفية فهي جميعا تسير على هذا النهج ... افكار مراهقة .. وتصوير مبتذل ومطروق لعلاقة الرجل بالمرأة مع فقدان كل مقومات البناء القصصي من موضوع وعرض واسلوب..

وفي قصة « نوة » يرسم المؤلف صورة شائقة لحياة اسرة جزائرية ذهب عائلها « جبار » الى الجبل حيث التحق بجيش التحرير الوطني وتبقى زوجته « نوة » في القرية ترعى شؤون المنزل وولديها الصغيرين عمار وابراهيم .

وذات صباح تفيق نوة من نومها على أمل باسم هو أن يحضر زوجهـــا لزيارتها بعد أن تلقت رسالة تفيد هذا فتقضي سحابة النهار وجزءا من المساء في نشاط دائب وحركة لا تعرف الفتور تنقل الحجارة المتراكمة في فنـــاء المنزل وتقتلع ما نبت من أعشاب وبقايا تبن وترتب الغرفتين وتنفض ماتراكم عليهما من تراب وتنثر بعض الحب في الفناء بينما كان عمار وابراهيم يجمعان الدجاج ويدفعان به الى الفناء ويتقدم « القايد » رافعا رأسه الى السماء مصعرا خده يتيه عجبا ويتبعه « الخوجه » بخطوات حذرة ونفس نافرة ويلحقهمـا « الشامبيط » في حركته الخفية والتفاتاته السريعة العديدة وتقول نوة :

ــ اغلقا الباب واسرعا لالقاء القبض على القايد

كان القايد هو الديك الاحمر الكبير والخوجه هو الديك الابيض الهزيل أما الشامبيط فانه الديك الازرق الصغير وقد أطلقت عليها هذه الاسماء منذ نما ريشها وكانت الثورة اذ ذاك قد أولت عنايتها الى القضاء على الخونـــة وأذناب الاستعمار فلا يكاد يمر يوم دون أن يصبح قائد أو خوجه أو شامبيط مذبوحا أو مقتولا .

وتطهو الام بعض الدجاج وهي تتمتم انه يحب العيش كثيرا ولا شك أنه تعبان منهوك القوى خائرها في حاجة الى طعام دافىء حار ويفطن ابراهيم الى كلامها فيبادرها : من الذي يحب العيش يا امي ؟ أهو أبي ؟

وتجيبه وهي تتفرسه : الضيف.. سيزورنا الليلة ضيف كريم ياعزيزي سيحملك بين ذراعيه ويقول لك : كبرت كبرت يا حبيبي ثم يضمك الى صدره ويشبعك لثما وتقبيلا

ويهتف الصبي الصغير من أعماقه : مثلما سيفعل أبي حين يعود ياأمي ؟

ــ نعم يا عزيزي تماما .. وهو أيضا يحب العيش بلحم الدجاج

ـ لكن متى سيعود ؟ ألا يمكن أن يحضر الليلة ؟
ـ من يدري فقد يحضر ؟ ادع الله ان يحضر سالما ..
وبصوت متهيج يرفع ابراهيم يديه الى السماء
ـ يا رب ، يا سيدي ربي ، اجعل أبي يحضر سالما ..

وتشتد كثافة الظلمة ومن خلالها تلمح فارسا يقترب من القرية يطوي الارض طيا وهو يتنقل بين المجاهدين يوصل رسالة لهـذا يصدر تعليمات لذلك وبعد أن يمر بمجموعة من الابطال يعملون في صمت ودأب على تخريب أعمدة التليفونات .. يلفت نظره شهاب ينطلق على بعد عدة كيلومترات .. رصاصة .. رصاصات .. انه اذن هجوم على المركز العسكري القريب من القرية ويتمتم ..

ـ الاخوان .. هاه .. هاه .. ايها الشجعان في النهار .. اخرجوا الآن عوض ان تدخلوا في المخابيء قابلوا الرصاص بالرصاص أيها الاوغاد أم لا تبحثون عنا الا في النهار ها هي الفرصة مواتية .. اخرجـوا جربوا فقط ولا تنتظروا الغد لتسألوا المدنيين ثم تتوجهون الى الجبـل وتعودون بخفي حنين .

وظل يتابع الرصاصات .. كانت كثيرة كثيرة جدا .. لا ريب ان الفرقة كبيرة ، ان الطلقات تنبعث من ثلاث جهات المركز محاصر .. وبينما هو كذلك اذ بشهاب قوي جدا ينبعث قرب المركز يعقبه دوى هائل لم يألف سماعه، شهاب آخر .. دوي آخر .. حريق يشب في المركز وارتفعت ألسنة النار الى عنان السماء وأضحى كل ما حول المركز يظهـر بوضوح : الاشـجار الطاحونة ، البئر حتى البئر تبدو واضحة اما الطلقات فانه لم يعد يراها انما الانفجارات تتوالى .

وتهدأ المعركة ويلتقى ببعض الابطال الذين شاركوا في الهجوم وفي طريق العودة يدور الحوار الآتي :

ـ دمر المركز وقضى على من به لقد غنمنا اسلحة هامة .
ـ تتبعت المعركة من أولها لقد استعمل الاخوان سلاحا لم أره من قبل ولم أسمع مثل دويه مذ بدأت الثورة كأن انفجاره مهولا جدا .
ـ لعله « البازوكا » التي كثر الحديث عنها فهم قادمون من الشرق ـ لقد بدأنا ندخل مرحلة جديدة فمن كان يتصور ان هذا المركز سيدمر بمثل هذه الحالة ؟ منذ أقام العسكر به وعطلوا الطاحونة عن العمل بعد أن قتلوا الشيخ « حمانة » المسكين والرصاص ينهال عليه لكن دون جدوى سنتان كاملتان لم يتحقق فيهما ما تحقق في ليلة واحدة .
ـ بل في لحظات قلائل ..

ويتمتم احدهم وكأنه يخاطب نفسه : والفرنسيون ؟ سيفزعون غدا من كل حدب وصوب ترى كيف سينتهي النهار يجب الا ننسى أى نعم أن لا ننسى كنتما صغيرين ولا ريب ابان مجازر « قالمة » و « سطيف » ولكن لماذا نذهب

بعيدا فكم من دوار أبيد عن آخره وكم من قرية لم يبق فيها الا النساء والاطفال ..

ويلتقى المجاهدون في طريقهم ببعض الجزائريين الفارين من خدمة الجيش الفرنسي رغبة في الالتحاق بجيش التحرير الوطني فيصطحبونهم الى قيادة المنطقة وتبتلعهم جميعا الظلمة .

تشرق شمس اليوم التالى على القرية ويطرق باب نوة احد المجاهدين يناولها رسالة وهو يقول احرقيها حالما تنتهين من قراءتها .. حافظي على سريتها ..

وتنطلق نوة الى دار الحاج العربي الوحيد الذي تثق فيه وهي تغني بأغنية جزائرية «ما تبكوش يا وليداتي باباكم راه جاي» ويقرأ الحاج الرسالة وتعود نوه الى منزلها والدنيا لا تتسع لفرحتها ...

تمسك نوه بابنها ابراهيم بعد أن غسلت أطرافه بالماء والصابون والبسته حذاءه الضيق وتخاطبه : أياك أن تجلس على التراب فتلوث ثيابك يجب أن تبدو نظيفا أمام الضيف . لا تقل لاحد اننا ننتظر ضيفا .. حذار . هيا قبلني يا عزيزي ويقبلها الطفل وتتحول هي الى صندوق ملابسها فتنتقى منه أجملها وتسرح بخواطرها الى الماضي يوم بدأت قصتها مع جبار منذ كانا حبيبين غريرين لا يفهمان من أمور الحياة شيئا يجلسان جنبا الى جنب أمام والده الذي كان يحفظهما مع صبية الدوار القرآن الكريم مدة سنتين كاملتين ثم انقطعت صلتهما بانتقال جبار الى القرية ليدخل المدرسة وذات يوم يعود جبار الى القرية شابا فتيا فيستيقظ حب كل منهما في قلب الآخر ... ويطلب يدها وتعارض زوجة أبيها في اتمام الزواج حتى تزوجها من أخيها .. وتأبى نوه وتهرب ذات مساء مع جبار على ظهر فرس تلاحقهما طلقات رصاص متفرقة وبعد أيام تعود الى دار ابيها ويتم الصلح ويرضى أبوها بجبار زوجا لها وتبتسم الحياة لهما وينجبان عمار وابراهيم .. وتمر الايام ويلتحق جبار بالثورة .

وتفكر نوه في ارتداء ثوب العرس لتستقبل به الزوج العائد.. وتتساءل

— أليس الاولى أن لا أتزين .. لكن ما يضير بعد سنتين لم يرني خلالهما جبار ...

وفجأة يدخل عمار لاهث

— أمي .. آه يا أمي العسكر .. العسكر .. الطائرات الدبابات العربات هيا .. هيا الجبل .. الى الجبل ..

وتتساقط القنابل وتشتعل الحرائق ويغادر القرية أهلها وتضرب نوه خديها بكلتا يديها ثم تطلق ساقيها للريح لا تعي من أمرها شيئا ولا تفكر حتى في ولديها ابراهيم وعمار وتشق السنابل تثب هنا وهناك تماما مثل تلك الليلة التي لاحقتها فيها رصاصات ابيها وقد اصم الازيز اذنيها فلم يبلغها نداء عمار خلفها .

— اماه ... اماه ... يا رب يا اماه

ووراء صخرة كبيرة في سفح الجبل تنبطح وتتذكر ولديها فينفطر قلبها اسى وحزنا يطل عليها عمار دامي الوجه ممزق الثياب حافي القدمين ـ مثلها تماما ـ ويرتمي بين احضانها ·

وتقبل الطائرات والدبابات نحو الجبل تطارد من نجا من الهول وفجاة تنبعث نيران المدافع والرشاشات من كل مكان · وتبصر نوه طائرة تحترق في السماء وعدة دبابات تتطاير شذر مذر والعربات تولى الادبار وتعرف انهم المجاهدون قد خرجوا يردون الصاع صاعين ·· فلا تملك الا ان تطلق زغرودة تتبعها بثانية وثالثة ·· ويدور في أعماقها هذا السؤال ـ

الا يكون زوجها من بينهم ؟ وتلتفت وراءها وتفغر فاها مشدوهة ·· انه هو ··· هو بعينه زوجها قائد الفرقة التي حطمت البارحة المركز وردت الصفعة اليوم للعدو ، هتفت نوه :

ـ جبار وأردف عمار ـ ابي ·· ويستطرد المؤلف (لو كان ابراهيم معهما ولم تلتهمه النيران لهتف بدوره ـ ابى)

وهناك نقطتان أود أن أقف ماهما قليلا قبل ان ابدى رأيا في القصة بصفة عامة الاولى : ذكر المؤلف في ختام صفحة ١٠٩ وبداية صفحة ١١٠ وهو يصف مشاعر (نوة) وهي تجتر ذكرياتها مع جبار (ولم يكدر صفوهما أمر حتى وفاة ابويهما الى ان كانت تلك الليلة المشئومة ليلة ودعها جبار والتحق بالثورة) ·

وأود أن أسأل السيد المؤلف دون ان اتجاهل طبيعة الانثى وشوقها الى رجلها كيف يتسنى ان تكون الليلة التي انضم فيها جبار الى الثورة « ليلة مشئومة » والقصة تدور حول الثورة وبطولة أبنائها والزوجة نفسها ليس في سلوكها ما يشتم منه اي خور أو ضعف ؟

والنقطة الثانية : هي هروب الام دون ان تصطحب ولديها ··

فقد جرد المؤلف الام في هذا الموقف من عاطفة الامومة العارمة وما يصحبها من تضحيات وان كان يشفع له بعض الشيء هول الموقف وما قد يصيب الام في مثل هذه الظروف من ذهول وفقدان لكل قدرة على التفكير ··

وأعود الى القصة فاقول انني كنت أود لو لم أعمد الى تلخيصها على هذا النحو لولا انها تقع في نحو ثلاثين صفحة ···

ففي القصة تصوير رائع جميع للحياة الجزائرية من زواياها المختلفة تصوير للحياة المنزلية في القرية حيث تعيش الام مع ولديها ترعى شئون المنزل تربى الدجاج وتعد الطعام وتصوير لحياة الثوار في الجبال يواجهون الموت في كل خطوة وفي كل لحظة ومع ذلك فلا يلين لهم عزم ولا تفتر لهم همة وتصوير لجو المعركة بما يشيع فيه من رهبة وتحفز كل ذلك في اسلوب سلس رشيق يتخلله حوار عربي سليم ·

أما شخصيات القصة فقد رسمت بعناية ·· شخصية الزوجة ·· والزوج ·· والثوار ··

حتى الطفلان الصغيران ·· شخصياتهم جاءت واضحة تمام الوضوح متفقة مع الدور الذى رسمه المؤلف لكل منهم في مجرى الاحداث ··· وقد أبدع المؤلف في تحليل مشاعرهم وعواطفهم جميعا ·

والقصة بعد ذلك جيدة البناء زاخرة بالمواقف واللمحات الانسانية تسير أحداثها في رفق وتسلسل دون ما ثمة افتعال ولا اضطراب حتى تصل الى غايتها المنشودة ·

ومن أسباب نجاح هذه القصة ان المؤلف استطاع ان يجنبها الطابع الخطابي وينأى بها عن الاسلوب التقريري ·

فالطابع الخطابي والاسلوب التقريري ولا سيما في القصص الوطنية يسلبان القصة أعز مقوماتها لمسة الفن وطرافة الموضوع وجمال العرض ويخرجان بها الى آفاق لا تمت الى الفن القصصي الرفيع بصلة ···

وقصة « محو العار » وهي آخر قصص المجموعة وأطولها ـ اذ تقع فيما يزيد على ستين صفحة ـ تصور حياة الشباب الجزائري الذي خدع وانخرط في سلك القوات الفرنسية ·· ولما انزاحت الغشاوة عن عينيه صمم على أن يثأر لوطنه من جلاديه ويمحو عن نفسه العار ··

بلخير شاب جزائري في ربيع العمر تلقى قسطا ضئيلا من التعليم ويعمل في خدمة سيدة فرنسية عجوز تملك نزلا يضم عشرين حجرة ، وتحوط العجوز الفتى برعايتها ولا تضن عليه بارشاداتها وكان من بين هذه الارشادات ما القت اليه به في يوم من الايام بصوت خافت يكاد يكون همسا (رغم اعتنائي بتربيتك تربية حسنة فانني لا أخفي عنك ان مجهوداتي اعتبرها ذهبت أدراج الرياح والحق انه لا يليق بك ان تربى الا في الجيش الفرنسي فالعسكرية وحدها هي الكفيلة بتربية من لم يترب في مدرسة الحياة) ·

ويخلو الفتى الى نفسه وتدور رأسه بالخواطر ومن خلال هذه الخواطر نعرف أن أباه مات وهو في المهد ولم تجد أمه وسيلة لضمان القوت سوى العمل عند هذه الفرنسية العجوز ويتساءل الفتى في حيرة ماذا يحدث لو ينهار هذا الاساس الواهي وتطرده العجوز هو وامه ···

ويلتقي الفتى في المنزل بجندي فرنسي يرتدي بزة أنيقة فيسأله أن يعطيه المعلومات عن العسكرية ويضحك الجندي ويلقي اليه بحكمة متداولة (يا ذاهبا للهند الصينية هنالك الحرب فاما أن تعود بأسنان ذهب أو بساقي حطب) ·

وبعد يومين تمر بقرية جلفة حيث يعيش الفتى قافلة من الضباط والجنود الفرنسيين تحث الاهالي على التطوع في الجيش الفرنسي مقابل ألفي فرنك للكيلو من وزن المتطوع ··· ويستمع الفتى الى نداءات الضباط الداعين الى التطوع ويتقدم أحد أهالي القرية فيهش له الضابط ويبش ويبارك تطوعه وفجأة تنطلق من بين شفتي بلخير كلمة « أنا ·· أنا » وهو لا يدري كيف انفلتت منه هذه الكلمة التي تلقفها الضابط فرحا (أتقول ؟ هيا تقدم أيها الشجاع ـ تعال) ·

وتحزن أم الفتى ٠٠٠ وحتى العجوز الفرنسية تحزن أيضا فقد كانت تود أن يلتحق بلخير بالجيش الفرنسي بعد أن يطوي القدر صفحة حياتها أو عندما تصبح في غير حاجة اليه ٠٠٠ لكن الآن يا لخسارتها من سيقوم بعمله بنفس الهمة والكفاءة ٠٠

ويحيا بلخير حياة الجنود في المركز العسكري بـ (سور الغزلان)

وذات صباح يحس بحركة غير عادية في المركز نقل وتشريد للجنود والضباط ويعرف السر عندما يقع بصره على جريدة فرنسية تتحدث عن اشتباك القوات النظامية مع عصابة من المتمردين الذين لا يتجاوز عتادهم بنادق الصيد ٠

ويستدعيه قائد المعسكر ويتلطف معه ثم يعرض عليه الذهاب الى الهند الصينية ويعده بالرد في اليوم التالي ٠٠ ومرة ثانية يلقي بنفسه في عالم المجهول ٠

ويقضي ليلته في وهران وفي الصباح الباكر تقلع الباخرة الى الهند الصينية ومن نافذة الباخرة يتابع النظر الى المباني والاشجار والشاطيء الى أن اختفى كل ما على الارض الحبيبة ولم يعد يحيط بالباخرة التي تشق عباب الماء سوى الزرقة وقبل ان يستلقي تسآل : هذا الوطن الكبير الثري ما الذي يجعلنا محرومين منه ٠

ومنذ الساعة الاولى التي وطأت فيها قدماه أرض الهند الصينية ما فتيء يرن في اذنه هذا السؤال ؟ متى يحين يوم العودة ٠٠ العودة الى الوطن ٠٠ لو لم تضع الحرب أوزارها قبل حلوله بخمسة أشهر لكان ممكنا أن تكون الحياة غير ما هي عليه الآن من الرتابة والركود ولشغلته أهوال الحرب وويلاتها عن نفسه وعن وطنه ولما وجد الهم الى نفسه سبيلا ٠٠ ولربما اراحته دفعة واحدة من عناء حياته ٠

وتمر الايام وبعد تسعة شهور يحل موعد عودته وللمرة الاولى يسافر دون ان يلتفت الى الوراء ٠

وتصل السفينة الى وهران ويطول بقاء الجنود في السفينة وينبري شاب يلقي ضوءا على الموقف ـ أنسيتم ان بلادنا في حرب ؟ ألم يبلغكم شيء عن الثورة التي يقوم بها شعبنا انها مثل تلك التي كنا نحارب الصينيين من أجلها ٠

ويعجب الجزائريون من هذه الانباء وقد كان كل نصيبهم من العلم ان هناك تمرد وعصيان يقوم به جماعة من الخارجين على القانون ٠

وغادر الجنود السفينة وشحنتهم العربات الى حيث لا يدرون ٠

وينقل بلخير الى منطقة « الحراش » ويكلف باصطحاب الفرقة التي تحرس قوافل نقل البترول من حاسي مسعود ويشعر بأن هناك حراسة محكمة مضروبة حوله من طرف الجنود الفرنسيين ٠

ويحن الفتى الى أمه فيقدم طلبا لمنحه اجازة قصيرة الامد وبعد اسبوع

يأتيه الجواب من القيادة ·· تقرر نقله الى فرنسا وتمور نفسه بالغضب كيف يجازى على اخلاصه بالنفي والنقل ؟ ولكنه يعود فيفكر ·· المقصود من ابعادنا هو ابعاد رؤوسنا عن افكار الثورة ·· هذا هو جزاؤك على اخلاصك بلخير ·· النفي والابعاد ·· انك في نظرهم لست الا عدوا ·· شكرا ·· شكرا يافرنسا ·· أنا أيضا عدو ؟ أنت أيضا عدو ·· وسنرى ··

وفي فرنسا يحس بالثورة تجيش في صدور الجنود الجزائريين يود معظمهم لو تتاح له فرصة الالتحاق بالجبل حالما يعود الى الجزائر ·

ووجد بلخير جوابا على الاسئلة طرحها على نفسه منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات ·· لماذا كتب لي أن أخرج من مسقط راسي في هذه السن المبكرة ؟ لماذا لا اكسب من ثروات قريتي الجميلة الا كوخا حقيرا ؟

أهكذا كتب علي أن أمارس وجودي ، هذا الوطن الكبير الثري ما الذي يحرمنا منه ؟

وجد بلخير الجواب : الاستعمار هو الذى طردني من جلفة الجميلة وهو الذي حرمني من ثرواتها وحرم علي وعلى الآلاف من أمثالي وطني الكبير ؟ الجزائر الجزائر التي أقسمت على الالتحاق بجبالها حالما أعود اليها ·

وتنتهي مدة تطوع بلخير ويعود الى أمه وقريته ويجد نفسه محاطا برقابة دقيقة ··· وعندما يرخي الليل سدوله ويضمه وامه الكوخ القديم تحدثه أمه عن الثوار حديثا مستفيضا تطرب له نفسه فيتهي اليها عزمه على الانضمام الى الثورة فتصمت وتترك له الخيار ··· لكن كيف السبيل ومن الذي سيثق به وهو العائد التو من الجندية وكيف يتخلص من الرقابة المفروضة عليه ؟

وذات صباح وبعد عودته باسبوع يرى في مركز (عين وسار) العسكري وهو يرتدي البزة العسكرية والحذاء الخشن وعلى كتفيه رتبته (سارجن) ·

ويفكر بلخير في وسيلة للهرب وتضيق نفسه بعجزه تارة يخطر له ان ينهض في الليل ويحمل البندقية ويتسلل الى الباب فان اعترض سبيله معترض تخلص منه ومن نفسه وتارة يخطر له أن يلتفت الى من معه في الداورية ويطلق عليهم النار ثم يطلق ساقيه للريح فان نجا فحبذا والا فالراحة الابدية أولى من وجود لا ينطوي الا على العدم ··· وتارة يفكر في أن يرتدي لباس ضابط من الضباط الكبار ثم يمتطي عربة ويفر الى الجبل الدرب الذي اختاره شعبه ·

وينقل فجأة الى « بوحجار » ويبدو الفرار سهلا ميسورا لكن هل فراره وحده له معنى لماذا لا يفر معه الجنود الجزائريون ، ويفاتحهم همسا في هذا الموضوع فيجد نفوسهم توافة الى ذلك لكنهم يرتابون فيه وما يكاد يتفق معهم على موعد لتنفيذ الخطة ··· الفرار ونسف المركز حتى ينادى عليه من قبل رؤسائه ويستجيب للنداء ويفاجأ بقرار نقله الى مركز اخر فتبدو عليه الدهشة

والالم وعندما يعود الى زملائه بهذا الخبر وهو مهموم محزون يتلقونه ساخرين مستهزئين : ابحث عن ضحايا آخرين أيها العميل ٠٠ ايها الخائن ٠٠

وفي المركز الجديد يفهم كل شيء من الكولونيل الكورسيكي ٠٠ لقد وشا به زملاؤه الجزائريون لينقل الى مركز اخر ويتخلصوا منه لقد فسروا جميعا من المعسكر على أثر ذلك ٠

ويطلب بلخير من الكولونيل نقله الى حيث الحرب متفاقمة حتى يمكنه أن يقوم بعمل حقيقي يخدم به فرنسا فينقله الى خط شال ٠

وهناك يعاود التفكير في الهرب ولكنه يؤثر أن يقدم هدية للثورة ولو عملية صغيرة

وفي احدى الامسيات يأتيه أحد الجنود « حبايبية » ويهمس في اذنه ان الزبير « يفكر في الفرار ويخيل ل « بلخير » ان الفرصة مواتية لهربهم جميعا فيعرض على حبايبية الفرار ٠٠٠ فيغتم هذا الاخير ويصارحه انه سيخبر الرؤساء بما سمعه منه فيتحول بلخير في مقدرة عجيبة الى التظاهر بشدة الاخلاص للجيش الفرنسي والولاء له ٠٠ أما غرضه فكان مجرد محاولة لاستكشاف نفس حبايبية هذا والتعرف على مدى اخلاصه ويستدعي بلخير الزبير فينكر هذا بداهة ما نسبه اليه الخائن ويسير بلخير في الشوط الى النهاية فيبلغ القائد أمر الاثنين امعانا في التضليل ويحضرهما القائد ويرغي ويزبد ويقول للزبير وحبايبية : لا أريد الأساطير العربية في السرية أبدا منذ اليوم أفهمتم ؟

ويلتقي الزبير وبلخير ويقرأ كل منهما مكنون نفس الآخر ويتصارحان ويتعاهدان على الفرار وعلى محو العار بعملية يسجلها التاريخ ٠

ويكلف بلخير بنصب كمين لقافلة من المجاهدين فيرقص طربا ويقسم الجنود الذين عهد اليهم بالمهمة فريقين ويزود كل فريق بأربعة ممن وثق في اخلاقهم من الجزائريين وفي الموعد المحدد يتفقد الجنود ويقف فجأة عند رأس حبايبية الخائن ويلقي نظرة خاطفة عليه وعلى المدفع الرشاش ٠٠ انه ينبطح ويداه في جيبه والمدفع بعيد عن متناول يده فرصة سانحة اذن فليغتنمها ٠

وضع قدمه على المدفع ثم شهر مدفعه الرشاش الذي على كتفه في وجه حبايبية قائلا ـ ارفع يديك أيها الخائن ٠٠

قهقه الخائن ـ دعنا من الهزل ، الناس لا يهزلون بالسلاح يا سرجان ٠

ـ قلت لك ارفع يديك والا اطلقت النار ، هيا

لم يرفع يديه ولم يأخذ كلامه مأخذ الجد وحمله محل الهزل والمداعبة ولكن بلخير لم يكن لديه متسع من الوقت للهزل والمداعبة فاصدر الامر الى اخوانه ٠

ـ أوثقوه بالحبال : اسرعوا اما انت فأياك ان تتحرك ولو قيد انملة ٠

ارتمى الشبان الاربعة على حبايبية يشدون وثاقه فبادر بارسال

صرخة استنجاد .. فقضوا عليه ويواصل بلخير تفقد الكمين فيسأله ضابط فرنسي :

ـ ما هـذا الانين

ـ كلب حاول الفرار فضربته

ـ وماذا يفعل الآن ؟ هل أخبرت عنه

ـ اخبرت فقيل احرسوه حتى يأتيكم الامر ولكن ليست لي ثقة في الذين يحرسونه والاولى ان تحرسه بنفسك هيا معي بالكلب البوليسي .

ـ اذهب معه يا مالافال وخذ الكلب معك

ولما عاد بلخير بـ (مالافال) التفت اليه مشهرا مدفعه

ـ ارفع يديك حالا بلا تردد ورفع الفرنسي يديه ويسلمه بلخير الى زملائه الذين جردوه من السلاح وأمرهم بالانصراف به ثم عاد الى الضابـط الفرنسي فوضع السلاح الذي على كتفه في الارض ثم ارتدى المعطـف وعبأ القنابل اليدوية في جيوبه وأعاد السلاح الى كتفه ووضع اللاسلكي اليدوي في كتف اخرى وأصدر امرا الى القذاف ان يحضر له قهوة من جرابه هو ولما عاد بالقهوة احتساها بهدوء ... التفت الى الضابـط وضغط باصبعه على الزناد ...

تأوه الفرنسي ثم سقط طريح الارض تنزف منه الدماء وفي تلك اللحظة بالذات التفت الى القذاف يأمره بأن يرفع يديه الا أنه اسرع وانبطح عـلى بطنه ، فضغط على الزناد مرة أخرى وجمد القذاف ثم التفت الى الآخرين في سرعة عجيبة فاطلق النار على من صمم قبلا قتله أما لانه ميئوس منه واما لانه ارتكب ما يستوجب قتله من الجرائم وبينما هو يخير البعض بين الالتحاق بالثورة أو الموت اذ بالقذاف يزحف على بطنه نحو المدفع كأن لم يمت بعد ... فضغط بلخير مرة أخرى على الزناد فتطاير رأس القذاف ولكن في تلك اللحظة انبعثت آهه من صدر يضم قلبا حبيبا الزبير ... مسكين الزبير ... لقد ذهل فبقى جامدا لا يعي شيئا مما يدور حوله فاصيب بدوره .

أطلق بلخير النار على من تردد أو رفض ان يمحو العار ثم اطلق ساقيه للريح نحو الجبل وعند منتصف الليل تبادل الاشارات الضوئية مع بقيـة اخوانه وعلم منهم ان الاسير أبى المسير فقتلوه .

وواصل الجمع السير وفي الغد بانت مراكز المجاهدين في قلب الجبـل فتنفس الشبان الصعداء وهمس من همس منهم مثل بلخير .

ـ لقد انمحى العار ..

هذه القصة تعالج قضية هامة من قضايا الشعب الجزائري .. ماساة الشباب الجزائري الذي جندته فرنسا في صفوف قواتها المسلحة .. كيف تمت المأساة ... وما هو شعور هذه الفئة من الشباب وهم يعملون في صفوف أعداء وطنهم .. وكيف أمكن لهم بعد ذلك محو العار ..

بعيدا عن ضجيج الالفاظ الطنانة والعبارات الخلابة .. تزيح القصة الستار عن المأساة من جذورها ... لقد عمدت فرنسا الى افقار الشعب الجزائري واذلاله وضعت خبراته بين يدي فئة من « المعمرين » وتركت الشعب يتضور جوعا .. ومن بين اشباح اليأس التي تتراقص أمام أعين الشباب الجزائرى يبرز ضابط فرنسي كأنه مبعوث العناية الالهية لانقاذ ذلك الشباب .. يعرض عشرين ألف فرنك وهو ما يوازى عشرين جنيهـا نظير الكيلو الواحد من جسم المتطوع . ولا تخجل الدولة الباغية من أن تشتري الشباب هكذا بالكيلو .. كما يشتري الانسان الخراف والماعز ... وبجانب ذلك يضمن المتطوع المأكل والمشرب والملبس .. الخ .

وتكشف سطور القصة عن عنصر آخر من عناصر المأساة أشد خطورة وأكثر أهمية من مشكلة العوز والحاجة ذلك هو فقدان الامل قبل ١٩٥٤ في امكان بعث الكيان الجزائري واستقلال الجزائر عن فرنسا ..

كان الشباب حتى ذلك الوقت ـ جل الشباب ولا أقول كلهم ـ ينظرون الى الجنود الفرنسيين فوق التراب الجزائري كأنهم قدر هذه الامة ولا راد له.

وقد أشار المؤلف الى هذا العنصر بمهارة .. عندما جعل بداية التحول في تفكير الشباب الجزائري المجند في الجيش الفرنسي مرتبطا بسماع انباء الثورة التي اندلعت في نوفمبر ١٩٥٤ وقد حاول الفرنسيون جاهدين في بادىء الامر أن يخفوا أنباءها عنهم ثم وصفوها بأنها عصيان .. مجرد عصيان وتمرد من فئة خارجة على القانون .

ان قيمة ثورة ١٩٥٤ كما أبرزتها تلك القصة ـ تكمن ـ ليس فيما قدمته من تضحيات وأظهرته من بطولات .. وانما في كونها ايقظت الجزائر بأسرها من سباتها وردت ايمانها بوطنها وعزته وكرامته ... وبعثت فيها الامل في التحرر والاستقلال ... وسقطت الاسطورة القائلة بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ولم يعد الجنود الفرنسيين في نظر الجزائريين قدرا لاراد له وانما اصبحوا رمزا للغصب والعدوان يقتنصونهم كلما سنحت لهم الفرصة بالليل او النهار ..

وفي القصة بعد ذلك تحليل عميق ودقيق لمشاعر البطـل وعواطفه ومواقفه ... حنين جارف لمسقط رأسه حيث تعيش امه العجوز وحيث مرتع صباه وصراع عنيف يدور في اعماقه عندما افاق من غفوته فوجد نفسه وهو مثال الشاب الجزائري النبيل النفس الكريم الخلق وجد نفسه يخدم تحت راية الدولة الباغية .. وأسف وحزن عندما يجد جانبا من زملائه واخوانه الجزائريين لا يثقون فيه ويتهمونه وهو في قمة الوطنية بالخيانة والعمالة .. وهدوء عجيب يستطيع ان يخفى وراءه مشاعره واتصالاته عن أعين الخونـة والرقباء وذكاء شديد يجمع به قلوب الجزائريين المخلصين ويعدهم لليوم الموعود .. ووطنية حارة تتدفق في عروقه تجعله يأبى أن يفر بمفرده ..

ويوطن العزم على أن يقترن فراره بعملية بطولية تضاف الى رصيد الثـــورة من انتصارات ·

هذه القصة نموذج طيب لما يطلق عليه « أدب المعركة » وهو أدب تزخر به المكتبة الاوربية الحديثة ··· ولكن المكتبة العربية لا زالت تفتقر اليـــه افتقارا شديدا ··· ومما يزيد من قدر هذه القصة انها كتبت والمعركة لاتزال على أشدها ولم تكن قد بدت في الافق بعد أشعة النصر ·· وهي بهذا الوضع تعتبر سلاحا من اسلحة النصر في المعركة ·

وكم أتمنى ان يواصل المؤلف كتابة مثل هذا اللون من الادب الجـاد الذي يسجل مرحلة هامة من مراحل كفاح الشعب العربي في الجزائر فهذا اجدى عليه وعلى القراء وعلى الادب ذاته من تسجيل مشاعر وخواطر الشبان اللاهين والفتيات العابثات ·



رسالة الى صديق

عزة كبة

عندما يقفل امرء سمعه او بصره فجاة ، تتصلب مشاعره كلها فيعجز عن الاحساس عجزا تاما • ثم ، يبدأ الشعور بالعودة اليه رويدا رويدا ؛ وأول شيء يحس به ألم غامض جاف ، لا ترطبه دموع ولا تنفثه حسرات • واليوم ـ ياصديق ـ حدث لي مثل ذلك تماما •

كنا نسير معاً جنبا الى جنب في طريق طويل ، وكانت آمالنا تبتسم لنا في تلك اللحظة بسمة رقيقة هادئة • وتلاشى كل وجـــود من حولنا ، البيوت ، الاشجار ، البشر ، كل شيء ، بينما انتصبت حقيقة وجودنا معا في تحد واصرار • وثمة حقيقة أخرى كانت تهمس بخفوت ان النجمة البعيدة ـ التي أحببناها معا ، وتطلعنا اليها معا ـ أقرب بكثير من احتمال انفصالنا عن بعضنا •

يا صديقي ؛ يهبط الليل ويزحف الظلام في مهل • الظلام لا يهجم فجأة ابدا فهو رفيق بنا عالم بأعماقنا • والجراح لا يمسك مبضعه ويقطع بــه ساق مريضه أو يده على حين غرة منه وبدون تحذير وابلاغ سابقين •

ولكن الحياة لا تعترف بذلك أكثر مما تعترف انت به • فلقد امتدت يد كبيرة ، أكبر من كل شيء في الوجود ، امتدت تــلك اليد التي كانت تمسك بسكين رفيعة وحفرت في اعماقي جرحا وسمته بانه لن يندمل ابدا ابدا •

وتلفت يا صديقي أبحث عن وجهك الدافيء الذي ترفرف عليه اجنحة حزن غامض خفي ، فلم أعثر عليه • اختفيت يا صديقي فجاة وتركتني أتخبط وأحاول عبثا الهروب من اليد والتواري عنها ؛ فلقد كانت قد سدت علي كل طريق ولم تنس فجوة واحدة •

ومرة أخرى جعلت اتلفت • وواجهتني نظرات غريبة لم يسبق لي ان عرفتها من قبل ؛ نظرات كانت تنبعث من عينين غريبتين لا تشبهان عينيك الدافئتين الحانيتين • وتفرست في الوجه الغريب مرة أخرى ، واذا بي اتعرف

عليه شيئا فشيئا • وفي تلك اللحظة بدأت ادرك ان ثمة شيئا غامضا كان يربط الوجه الغريب بوجهك الحاني الحزين •

ومرت فترة ، نسيت خلالها اليد والسكين الرفيعة والجرح الذي لن يندمل الى الابد • نسيت كل هذا وتطلعت الى الوجه الغريب والى الشيء الغامض الذي كان ينتصب في سخرية ويشير اليك في اصرار •

وفجأة انطلقت من اعماقي شرارة شديدة الوهج جعلتني ابصر الحقيقة العارية التي لم أكن إجرأ على مجرد التفكير فيها • يا صديقي ؛ لم يكن ذلك الوجه الا وجهك انت ، وتلك العينين كانت لك انت •

نسيت الجرح يا صديقي ، فلم يعد يسبب لي ألما ، ربما لان الالـم قد نضب معينه وجف كما يجف نهر بعد أن تنضب مياهه العذبة • لكني لا استطيع أن أنسى الوجه الغريب ، ولا استطيع ان انسى وجهـك انت • صديقي الذي عرفته وعشت كل لحظة معه • انهما يربضان في أعمـاقي ويصطرعان ، ولكن لايقو أحدهما على تحطيم الآخر تحطيما نهائيا •

عندما تتسلل نسمة من أرض صديقة ، وتحمل معها بضع ذرات من رمل ، تنجرح أعيننا وتتمزق أرواحنا ألما • لكن عاصفة رملية هوجاء تأتينا من أرض جف منها الحب لا تكاد تؤذينا أو تلفت انتباهنا •

* * *

يا صديق ؛ عندما تمر بعينيك بسرعة وبلا اهتمام على هذه السطور التي خطتها يد انسانة جرحتها الحياة جرحا غائرا ، لا تبتئس • انني لن اطيق اية ريح تأتي منك •

لقد تلاشى الطريق الطويل يا صديقي ، وانتصبت حقيقة وجود البيوت ، الجدران ، والبشر بالرغم منا •

• • •

الطوربيد

محمد نسيم الذويب

فرغت الاسرة من تناول طعام العشاء ، ومما اعتاد افرادها احتساءه من كؤوس الشاي اللذيذ ، في مجلسهم المعهود كل ليلة ٠٠ وأخذوا يتحدثون عن هذا الهجوم الغادر الذي قامت به (اسرائيل) يوم أمس على سيناء ، وكيف قامت لهذا النبأ مدينة دمشق وقعدت ، بل ان الامـــة العربية بأقطارها الممتدة من بحر الظلمات حتى خليج العرب ، قد ارتاعت لهـــذا العدوان الاثيم المفاجىء ٠

ومدت الأم يدها لتدير مفتاح المذياع فقد آن وقت اذاعة نشرة الاخبار من محطة دمشق ، وبدأ المذيع ينقل الى المستمعين نبأ الانذار الذي وجهتـه الحكومتان البريطانية والفرنسية الى جمهورية مصر طالبة اليها الانسحاب الى مسافة عشرة كيلومترات غربي القناة ، وكانت مدة الانذار قصـيرة لا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة ٠

وقالت الأم لولدها :

– اني لأخشى أن يتطور الامر ، اذا رفض المصريون هذا الانذار ، فتنشب الحرب بينهم وبين الدولتين الكبيرتين ، فيصيبنا بعض رشاشها ، وربما امتدت الى هذه البلاد ٠

ونظر اليها ولدها قائلا :

– سواء امتدت الحرب الى سورية أم اقتصرت على مصر وحدها فالامـر سيان والنتيجة واحدة ٠

فقالت له أمه :

– كيف تكون النتيجة واحدة ، اذا لم تشترك حكومتنا في القتال رسميا، واحمد الله على انك بعيد عن الخطر يا ولدي ٠ والا ٠٠٠

فقاطعها قائلا وكأنه يخاطب نفسه :

– لست بعيدا عن الخطر يا اماه ٠٠٠

قالت :

– كيف لا وانت سوري الجنسية ، ولست من رجال البحرية المصرية ٠

فقال بحدة :

— ولكني عربي يا اماه • وانت ادرى بايماني الشديد بالقومية العربية ، فانا لا افرق بين دمشق والقاهرة ، ولست ادعو مسقط رأسي وطنا ، بل ان وطني كل بقعة من البلاد العربية •

قالت :

— اني اعلم انك مؤمن بعروبتك ايمانا عميقا • ولكن الاعتداء موجه نحو الكيان المصري الحالي بصورة خاصة ، وقد سمعت باذنيك صيغة الانذار وهو يدعو اليهود كما يدعو المصريين الى الانسحاب عشرة كيلومترات شرقي القناة ، أي ان القوم يحاولون — على ما يبدو — التدخل بين المتخاصمين حفظا للسلام •

فضحك ولدها ضحكة قصيرة وقال :

— ما هذا الهراء يا أماه •• ان طيبة قلبك وصفاء نيتك تدفعان بك أحيانا الى التفوه بهذا الكلام المضحك •

قالت :

— اني لأربأ بك يا ولدي ان تتخذني هزوا • وتخاطبني بهذه اللهجة التي هي أقرب الى التوبيخ منها الى النقاش بين أم وولدها •

قال :

— معاذ الله ان اقصد اهانتك يا والدتي العزيزة • فما لهذا قصدت علم الله • ولكني أحطت بما لم تحيطي به من أمر هؤلاء القوم الذين اتخذوا من الدولة اليهودية المسخ تكأة لهم ، وجعلوا من هجومها الغادر — الذي جرى بتدبيرهم — حجة للتدخل في شؤون دولة عربية متحررة لا تسير في ركابهم ، ليعودوا الى استعمارها من جديد ، فاذا نجحوا في خطتهم هذه — لا سمح الله — ولوا وجوههم شطر سورية ليصنعوا بها صنيعهم بمصر • وهكذا سيضربون كل دولة من هذه الدول العربية على حدة ، وليثيروا الواحدة على الاخرى ، فتعلن الحرب الباردة بين حكامها ، ولا يستفيد من ذلك الا الاستعمار وصنيعته اسرائيل •

وتدخلت اخته التي كانت ساكتة طوال هذا الوقت في الحديث قائلة :

— ان اخي على حق يا أماه ، فالعرب امة واحدة — كما كان يردد ذلك والدي المرحوم — ولا عبرة بهذه الحدود التي اصطنعها المستعمرون ، ليفتوا في عضدنا ويفرقونا شيعا واحزابا ، وكل حزب بما لديهم فرحون •

وعلق بصر الام بصورة زوجها المثبتة على الجدار المقابل • فتنهدت واستنزلت على روحه الرحمة ثم قالت :

— أطال الله عمرك يا ولدي لتعوضنا عن ابيك خير عوض ، فقد رباك واختك فأحسن تربيتكما ••

ثم اردفت قائلة :

– لقد ارعبتني بحديثك هذا · فماذا نفعل اذن – اصلحك الله – لدر، هذا الخطر · فقال ولدها بحماس شديد ·

– علينا نحن العرب في جميع أقطارنا من المحيط الى الخليج ، ان نقف وقفة رجل واحد مؤيدين وناصرين شقيقتنا الكبرى ، ففي نصرها انتصار لنا وفي خذلانها هزيمة لنا ، نحن العرب على اختلاف طوائفنا واديانا لنا رسالة خالدة ، علينا أن نؤديها كاملة يجب ان نتم رسالة اجدادنا العظام ، يوم اجتمع منهم الشمل وتوحدت الكلمة ، فدانت لهم الدنيا شرقا وغربا ، وانتصروا على أقوى دولتين كانتا قد اقتسمتا العالم القديم ، فاصبح في حوزتهم ايوان كسرى وملك قيصر ·

قال هذا وأخذ يمسح العرق المتصبب من جبينه ، فقد أخذ منه الحماس حتى نسي نفسه وحسب انه يخطب الناس في حفل كبير أو مؤتمر قومي ·

ثم نظر الى امه واخته وقال بصوت خفيض :

– واذا نشبت المعركة في مصر فسأكون أول المتطوعين للذهاب الى هناك مشاركا اخوتي في القتال من أجل هدفنا الواحد ·

فارتاعت امه لقوله هذا وصرخت به :

– يا ولدي ماذا تقول ·· كيف اسمح بذهابك وانت وحيدي ، واعز مخلوق لدي ومعبودي بعد الله ·

فقال لها بحزم :

– ان الوطن أعز من الولد ·· الوطن العربي الحبيب ·· الوطن الأكبر الذي يناديني ان هيا للجهاد ·· هيا للفداء ·· فمن له غيرنا نحن الشباب يا أماه ·· الشباب المثقف الواعي ؟!

ولزمت اخته الصمت ·· وانحدرت الدموع من عيني الأم الارملة وقالت وهي تلفظ الكلمات ببطء شديد :

– وخطيبتك يا جول ·· ماذا عسى أن تفعل حين ننهي اليها الخبر ؟!

قال :

– ان خطيبتي لا تقل عني ايمانا بعروبتها وسوف تشجعني على التطوع ، وتنتظرني على رصيف الميناء في اللاذقية كل يوم ، حتى اعود اليها واليكم جميعا مكللا بالغار فرحا بالنصر المبين ·

فقامت اليه امه تعانقه وتقبله قبلات الاعجاب ، داعية اياه واخته الى النوم فقد انتصف الليل أو كاد ·· وذهبت هي الى فراشها ولكنها لم تنم

تلك الليلة الا غرارا نوما متقطعا مليئا بالاحلام المزعجة ٠

● ●

امتلأت سماء (بورسعيد) بالطائرات يكاد ازيزهـــا يصم الآذان ، متجهة الى البر المصري ، وعلى حين غرة فتحت ابوابها وقذفت برجال المظلات المسلحين بمدافعهم الرشاشة ليهبطوا على الارض رويداً رويدا ٠٠ وقد امتلأ الجو بمظلاتهم تلتمع في اشعة الشمس وتلعب بها الرياح يمينا وشـــمالا كأنها طيور بيض ٠

ونفر سكان المدينة الباسلة بجموعهم الحاشدة نساء ورجالا وشيبا وشبانا ، حتى الاطفال الصغار ، كل يحمل ما تيسر له من سلاح ، هـــذا يحمل بندقيته وذاك يحمل سيفه أو سكينه ، وآخر فأســـه أو محراثه ٠ وهاجموا العلوج النازلة عليهم من الجو ، قبل ان يسترد هؤلاء انفاسهم ، وقبل ان تعود اليهم عقولهم التي لعبت بها الرياح في أعالي الجو ٠ فقضـــوا عليهم جميعا ، افنوهم عن بكرة ابيهم ، وانتصر الابطـــال العـــرب وعادوا يهتفون :

الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ والنصر للعرب ٠

وتناقلت اسلاك البرق نبأ الانتصارات الباهرة ، ودهش الناس في أقطار العالم المختلفة ، واعاد المعتدون التجربة وأصاب الوجبة الثانية مـــا أصاب الاولى ، وترددت في اذهان المواطنين الآية الكريمة :

« وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين ٠ »

وأخيرا عمد الخونة الماكرون الى الحيلة والخداع ، واستعملوا الدهاء والمكر ، وقذفوا بمظلات تحمل اكياسا من الرمل بدل الجنود ، وحين هاجمها المدافعون البواسل امطرتهم الطائرات برشاشاتها وقنابلها تحصد جموعهم حصدا ، ولكن الابطال ثبتوا في ميدان المعركة لم يستسلموا على الرغم من عظم الخسائر التي تكبدوها وعمدت بريطانيا وفرنسا الى ارسال اساطيلها البحرية لتقذف بحممها ساحل أرض الكنانة دونما رحمة ، وتقدمت البارجة الفرنسية الكبرى لتنسف الميناء من أساسه ، فتجعله قاعا صفصفا ٠وبينما هي في طريقها الى غايتها الدنيئة ، اذا بالمعجزة تحدث على أيدي ثلاثة من الشباب السوريين ٠ جاءوا من هناك متطوعين ليلبوا نداء الوطن ٠٠ وطن العرب الاكبر ٠ وركبوا زوارقهم الصغيرة وهرعوا الى ميدان المعركة ليقاتلوا البارجة الفرنسية الكبرى ٠ وليمنعوها من تدمير الميناء المصرية الحبيبة ٠

وقذفوها بالطوربيد غير مرة فلم ينالوا منهـــا منـــالا ، ونظر الشاب الجميل الذي ترك امه واخته تذرفان الدمع السخين على فراقه ، وخطيبته تنتظره كل يوم على رصيف الميناء تتعجل أوبته ٠ نظر هـــذا الشاب الى رفيقيه وقال :

ـ يجب أن يصيب هذا الطوربيد من البارجة مقتلا ، يجب ان نغرقها ، يجب أن تغوص في قاع البحر بركابها بزبانيتها الذين جاؤا يرسلون الدمار الى بلادنا دون ذنب جنيناه ، يجب أن يسمع العالم كله ان دولة عربية صغيرة انتصرت على دولتين من الدول العظمى وعلى ربيبتهما المسخ اسرائيل • يجب ان نهاجمها هجوما انتحاريا ، فيتوجه احدنا بالطوربيد حتى يقترب من البارجة ، فيقذفها لينفجر في وسطها •

ونظر الثلاثة بعضهم الى بعض صامتين ثم قال احدهم :

ـ لنقترع •• أينا يقوم بالمخاطرة •

فقال الشاب :

ـ ان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك •• ان البارجة دنت ، والثمرة نضجت وآن قطافها واني لصاحبها •

وتوجه بالطوربيد نحو البارجة التي كانت تتهادى في سيرها على الامواج الصاخبة واقترب منها ، وامسك الآخران انفاسهما هلعا ، وتوقف الزمن لحظة ، واخترق الطوربيد هيكل البارجة العظيمة وشقها الى نصفين وغاصت في البحر ، والقى بحارتها بأنفسهم في اليم فكانوا من المغرقين •

واستشهد بطل عربي اسمه (جول جمال) •• اذ تغلبت عروبته على مسيحيته وبرهن على ان الدين لله والوطن للجميع ، واثبت بعمله ان العرب بتضامنهم وتراحمهم وتوادهم مثلهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى •

وبقيت خطيبة جول جمال تقف كل يوم على الرصيف في ميناء اللاذقية تنظر الى البحر ساعات ، مستمطرة شآبيب الرحمة على شهيدها البطل الذي لن يعود •

وبقيت امه يحج اليها الناس من كل مكان • يقدمون لها التهاني على هذه البطولة النادرة التي قام بها ولدها • وأخذت تنهال عليها ارفع الاوسمة وأغلى الهدايا من رجال الدولة العربية الكبرى • وهي صابرة صامدة •• لا تشكو ولا تنوح بل تحمد الله على ما اصابها •• شأنها شأن اختها العربية •• التى قالت يوم استشهد اولادها الاربعة في صدر الاسلام ••

ـ الحمد لله الذي شرفني بقتلهم •

تلك هي الخنساء وهذه أم جول جمال •• والتاريخ يعيد نفسه كل حين •

مَوْعِد

عبد الصاحب ياسين

طويت النهــار كمــا تعلمين
حنــين وصــمت ووجــه حــزين
وطيف بلــون الامــاني يحــوم
عــلى قلبــي الشــائر المستكين !

* * *

أنقــل طــرفي عبــر الطــريق
رجــاء شــذى عــابر أو بريق
وأدعــم يأسي بواهــي الرجــاء
عســاك تلوحــين في العابرين !

* * *

اذا قلــتُ : أخلفــت الموعــدا
وحملت احــلام يومي الغــدا
أسر لي الوهم : مهــلا .. فقد
توافيــك باســمة بعــد حــين !

* * *

وان مـــاج قلبـــي بالـــكبرياء
تكـــاد تثـــير بقـــايا إبـــاء
وتصرخ بي : أرضيت الهوان ؟
غضبت .. ولـكن بعزم طعين !

* * *

أسأتِ .. فماذا عساني أقول ؟
وما خير شكوى كئيب تطول ؟
أأنكأ غيظـاً دوامي الجـراح ؟
بل الصمت أجمـل بالخائبين !

* * *

أهـذي أماني حامتْ عليـك ..
عذاب الطيوف .. وقرت لديك ؟
سيرعاك صفحي .. فـلا تحفلي
بمـــا تعــدين ومـــا تخلفين !

* * *

سيرعاك صفحي .. ولولاه مـــا
رضـيت لقلبـــي أن يهضمـــا
ولا كنـــت مخلفـــة موعـدي
ولا كنت أرســل هــذا الانين :
طويت النهـار كمـا تعلمـين '



قصة المخطوط النادر

الدكتور حسين علي محفوظ

أطلعت في (دار الكتب الرضوية) بمدينة مشهد مركز خراسان في ايران ، أوائل خريف سنة ١٩٥٧ على نسخة خطية قديمة نادرة ، لعلها وحيدة ؛ كان خازن المخطوطات الفاضل يظن انها كتاب « اخبار مكة » للأزرقي . وقد استطلع رأيي فيها ؛ لانه لم يطلع عليه .

فأعجبت بالكتاب ؛ ونبهت طائفة من أفاضل الباحثين الى الاستفادة منه ، وصورته وأعلنت نبأ عثوري عليه ، وظللت مستمرا على تصفحه وتحقيقه .

رقم هذا المخطوط (٥٧٥١/ تاريخ) وعدة أوراقه ١١٦ ؛ طول كل ورقة ٢٣ سنتيمترا ، في عرض ١٨ سم . وفي كل صفحة ١٩ سطرا ، مكتوبة بخط نسخي قديم .

وهو ناقص من أوله بضع أوراق ، والمظنون أنه تام الآخر .

والنسخة غير مؤرخة ، ولكن يخيل الي انها اكتتبت في أوائل القرن السادس الهجري تقريبا ؛ أي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . وعلى ظهرها ختم مؤرخ في ٩٥٧هـ/١٥٥٠م . وكانت ملك بعضهم في القرن التاسع ؛ فقد ملكتها يده سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م .

اهتممت منذ سبع سنين بهذا المخطوط القيم ، وفضلته على كثير من النوادر ، التي كنت أطلعت عليها — حينئذ — في ايران ، ومنها كتب ورسائل بخط حنين بن اسحاق ؛ المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م ، ومنظومة في صور الكواكب لابن (ابن الصوفي) المعروف ؛ المتوفى سنة ٣٧٦هـ/٩٨٦م .

ثم أتيح لي الاطلاع على أوراق بخط شيخنا العلامة الفهرسي « الببلغرافي » الكبير (اقابزرگ الطهراني) نزيل النجف ؛ مصنف كتاب (الذريعة الى تصانيف الشيعة) دون فيها أسماء بعض الكتب كمسودة لكتاب الذريعة المذكور . ومنها كتاب (منازل مكة) .

وكان الشيخ اقابزرگ الطهراني عثر على هذا الاسم ، في كتاب (المنقذ من التقليد والمرشد الى التوحيد) المعروف ب (التعليق العراقي) ؛ تاليف سديد الدين أبي الثناء محمود بن علي بن الحسن الرازي الحمصي ،

المتوفى في حدود سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ؛ الذي فرغ من تأليفه سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ؛ فقد نقل الحمصي من كتاب (غرر الأدلة) تأليف أبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي المتوفى سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤ ؛ انه قال : « قرأت بخط ابن الكوفي في كتاب منازل مكة » وهذه الكلمة ، هي التي دعت (اقابزرگ) ان يثبت اسم كتاب منازل مكة ، وينسبه الى ابن الكوفي ، في كتابه (الذريعة) ـ فقلت : ربما كان هذا المخطوط « منازل مكة » ولعل مؤلفه « ابن الكوفي » .

وقد أشرت الى ذلك في فهرست تاليفاتي المطبوع على ظهر كتابي «تاريخ الشيعة المنشور سنة ١٩٥٧ » ووضعت تجاه اسم الكتاب والمؤلف حرف (ظ) علامة الظن .

وقد حضني هذا على تتبع ترجمة ابن الكوفي ، والفت رسالة مفصلة في سيرته ظهرت في سلسلة مطبوعات كلية الآداب ، بجامعة بغداد سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م . كما دعوت الى احياء (ذكرى ابن الكوفي) الألفية ، واعلنا مهرجانه الألفي ، في كلية الآداب بجامعة بغداد ، في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٦٠ ، وعرفت به في راديو بغداد ؛ عشية ٢٢ حزيران سنة ١٩٦٠ ، ووصفت النسخة الخطية في مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين بموسكو في صيف العام المذكور ، وفي (الندوة الثقافية) بتلفزيون بغداد عشية ٣ تشرين الأول سنة ١٩٦٤ ، وعرفت بابن الكوفي ـ أيضا ـ في العدد ال ١٤ و١٥ من مجلة بغداد .

أما ابن الكوفي ـ وهو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد بن الزبير ، الأسدي ، القرشي ؛ المعروف بابن الكوفي ، وابن الزبير ؛ فقد ولد بمدينة الكوفة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، واستوطن بغداد ، وتوفى بها سنة ٣٤٨هـ/٩٦٠م ؛ فاكتفي ـ الآن ـ بالاشارة الى أني أكاد اعد هذا النابغة العراقي من أوائل المحققين العرب ؛ الذين اتبعوا الطريقة العلمية الصحيحة في التأليف والكتابة ، والنقل والجمع .

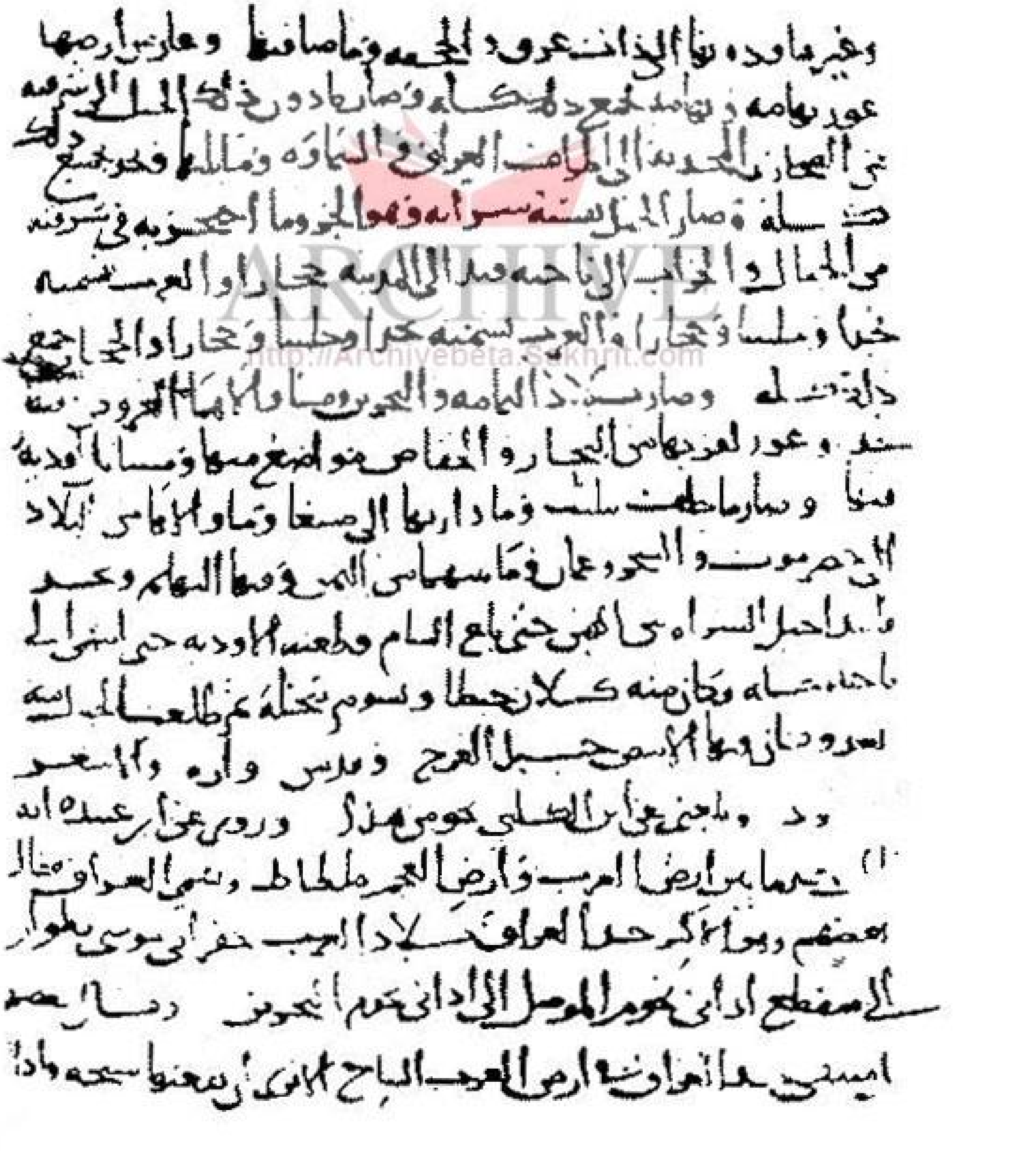
وكان خطه معروفا بالصحة والجودة ، والاتقان والضبط . وكانت تاليفاته غاية في الدقة . وقد رتب خزانته على العلوم ترتيبا خاصا بارعا ، مع تعيين أمكنتها . كما انه سبقنا الى استعمال البطاقات والجزازات ـ وهي الرقاع والوريقات التي تعلق فيها الفوائد ؛ التي تسميها اليوم (فيش Fiche) ـ في التاليف والجمع .

وقد بيعت رقاعه ـ بعد وفاته ـ كل بطاقة بدرهم . والدرهم يساوي ٢١٥ فلسا عراقيا ؛ بحسب عملتنا ، وفق تكسير سعر الدينار الذهب العراقي القديم ، في زمن ابن الكوفي ، على عشرة دراهم .

وقد اعتمد ابن النديم على مباحث ابن الكوفي . ولقد أحصيت مآخذ ابن النديم في كتابه (الفهرست) من خط ابن الكوفي ؛ فوجدته نقل فصولا طوالا في ٢٩ موضعا من الكتاب ، ربما اوشكت ان تبلغ مقدار عشر الفهرست تقريبا .

ومما يزيد أهمية ابن الكوفي ، انه كان واسطة نقل التراث العلمي ، الذي تم طوال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الثقافة الاسلامية • وقد حسبت ما وصلت الينا أسماؤه ، مما رواه عنه واحد من تلاميذه فقط ، وهو ابو عبدالله احمد بن عبدون المعروف بـ (ابن الحاشر) ، المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م فوجدته ٦٠٠ كتاب في اللغة ، والأدب ، والخطب ، والتاريخ ، والأنساب ، والتفسير ، والفقه ، والشعر ، وسائر العلوم الاسلامية • فقد أوصل الينا ٤٠٠ أصل من كتب الحديث ، كما أوصل الينا آثار ١٩ عالما من رجال الفكر الاسلامي ، والثقافة الفقهية •

أما هذا الكتاب ، الذي أتكلم عليه ؛ فأكاد لا أشك ان اسمه « منازل مكة » فان مؤلفه صنفه في صفة منازل مكة • وقد صرح بالاسم عدة مرات • ولقد وصف الطريق غاية في الدقة من الكوفة الى مكة ، ثم طريق المدينة • ثم ذكر مسجد النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – الذي بناه حين قدم من



مكة ، والمسجد الذي بناه لما قدم من خيبر • وقد وصف مسجده في المدينة ، وبين زيادات الخلفاء ، وذكر القبر ، واختلاف الناس فيه ، واشار الى مساحته •

وذكر – ايضا – الكتابة التي حول المسجد ، وزينته ، وتوسيعه أيام الخلفاء والولاة • ثم ذكر حد جدار النبي ، ومساجده في المدينة ، ومساحتها ، وذكر المنبر •

ثم بين حد المدينة ، وجبالها ، ومياهها ، وما حولها من الجبال ، واقسامها ، وقبور الشهداء بأحد وأسماءهم •

ثم ذكر طريق بدر ، والطريق بين المدينة ومكة ، ووصف المنازل الى مكة ، وذكر آداب الحج •

وذكر – من بعد – مكة ، وأسماءها ، وسبب تسميتها • والمسجد الحرام ، والصفا ، والمروة ، والكعبة ، وبنيانها ، وزمزم ، ومساحة المسجد الحرام والكعبة •

وذكر الطريق الى منى ، والمشاعر ، ومسافاتها ، والطريق القديمة بين خيبر والمدينة ، ومسافاتها ، وطريق سلمان •

وأفرد فصلا جغرافيا لوصف الحجاز ، وجزيرة العرب ، ونجد ، وتهامة • ثم أثبت منظومة طويلة في ذكر المنازل على طريق مكة لأحمد بن عمرو – الذي كان مع أم جعفر سنة حجها ، ووصف سفرها من بغداد الى الكوفة • ثم الى مكة ، ثم الخروج في الطريق الأول الى مدينة السلام بغداد • ومنظومة أخرى في وصف الطريق – أيضا – ومنظومة ثالثة ، انشدها أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن الضحاك بن عمر ، الجماني الكوفي •

ومنظومة رابعة للمؤلف في وصف طريق العودة الى الكوفة •

ثم ذكر طريق البصرة ومياهه ، والطريق التي يسلكها الناس في عصره ، وطريق البحرين •

واثبتت قصيدة وهب بن جرير بن حازم الجهضمي في الطريق والمناسك•

وأورد أخيرا الطريق الى مكة من اليمن ، وتهامة ، وحضرموت ، وعصر ، والساحل ، والشام ، والطائف ، وجدة •

وهو يروي كل ما يأتي به ، عن الرواة الثقات باسنادهم • ويصف الأمكنة والمنازل ، ومن ينزلها من القبائل ، وأسماءها ، وأسباب تسميتها • ويعين مسافاتها ، وبعدها عن البقاع المحيطة بها ، وما فيها من قصور ، ومساجد ، وبرك ، وأحواض ، ومشارب ، ومصافي ، ومسايل ، ومجاري ، وآبار •

وكذلك الهضاب ، والعقبات ، والرمال ، والرياض ، والبساتين ، والحدائق • ويعين أنواع الأرضين ، وارتفاعها ، والآبار المطمومة ، والمعطلة ، والعذبة ، والمالحة • ولم ينس اثبات ما قيل في ذلك كله من الشعر ، وما ورد فيه من الأخبار •

فالكتاب – اذن – مجموع أدبي ، تاريخي ، نسبي ، جغرافي ، طبغرافي ، فقهي • وقد روى المؤلف في كتابه هذا عن جماعة زادوا على مائة من العلماء والأخباريين ، استطعت ان أعرف حياة نيف وأربعين منهم ، هم :

أبو اسحاق الكاتب ، المتوفى سنة ٢٥٤هـ
أبو حذافة السهمي ، المتوفى سنة ٢٥٩هـ
أبو جعفر الياس ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو عمرو التميمي « العطاردي » ، المتوفى سنة ٢٧٢هـ
أبو سعيد القطان البصري ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو صالح الحنظلي المروزي ، المتوفى سنة ٢٥٧هـ
أبو بكر الرمادي ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
أبو جعفر الكرابيسي ، المتوفى سنة ٢٥٩هـ
القطان المخرمي ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ
أبو الفضل الطيالسي ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ
ابن شاكر ؛ الصائغ ، المتوفى سنة ٢٧٩هـ
أبو محمد التميمي ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ
أبو علي الزعفراني ، المتوفى سنة ٢٦٠هـ
أبو محمد الزيات ، المتوفى سنة ٣٢٩هـ
أبو علي البزاز ، المتوفى سنة ٢٧٤هـ
الزبير بن بكار ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ
أبو عثمان الثقفي البزاز ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
سعيد بن أحمد بن عثمان • كان حيا سنة ٢٦٦هـ
أبو العباس العبدي الدورقي ، المتوفى سنة ٢٧٦هـ
أبو شعيب الأموي الحراني المؤدب ، المتوفى سنة ٢٩٥هـ
أبو محمد الوراق ، المتوفى سنة ٢٧٤هـ
أبو محمد الكاتب الدينوري ، المتوفى سنة ٢٧٠هـ
أبو البختري العنبري ، المتوفى سنة ٢٧٠هـ
أبو الحسن التميمي القنطري ، المتوفى سنة ٢٧٢
أبو الحسن السمسار الطوسي ، المتوفى سنة ٢٥٣هـ
أبو الحسن الطوسي ، المتوفى سنة ٢٥٣
أبو العباس الأنصاري الاهوازي ، المتوفى سنة ٢٨٨هـ
أبو العباس الأعرج ، المتوفى سنة ٢٥٥هـ
أبو عبدالله الواسطي الحساني ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو عبدالله الكاتب السمري ، المتوفى سنة ٢٧٧هـ
أبو عبدالله الأعرز المروزي ، المتوفى سنة ٢٨١هـ
أبو يحيى العطار الضرير ، المتوفى سنة ٢٦١هـ
ابو جعفر المخرمي ، المتوفى سنة ٢٥٤هـ

أبو جعفر الصيرفي ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
أبو بكر ، ابن زنجويه ؛ المتوفى سنة ٢٥٧هـ
أبو عبدالله العلوي ، المتوفى سنة ٢٨٧هـ
أبو بكر ، الصائغ المخرمي ، المتوفى سنة ٣٢١هـ
أو أبو جعفر الصائغ ، المتوفى سنة ٢٩٧هـ

وهؤلاء كلهم ممن كان يعيش في بغداد في أواسط القرن الثالث ، أواخره ، وأوائل القرن الرابع الهجري (٩ و١٠م) ، وهو عصر ابن الكوفي ٠

أما مؤلف الكتاب ؛ فأكاد أظن أنه عراقي - سواء كان ابن الكوفي أم لم يكنه - لأنه خص العراق بالجزء الأكبر من الكتاب ، ووصف طريق العراق مفصلا ، وقد أوجز في الكلام على الطرق الأخرى ، واكتفى أحيانا بالأسماء ٠

كما نستطيع أن نقول : انه عاش في القرنين الثالث والرابع (٩و١٠م) لأنه روى عن رجال من أهل ذينك القرنين ٠ وربما صح أن نقول أيضا انه كوفي ، لأنه اهتم بالكوفة وخصها بكثير من العناية والكلام في قصيدته التي وصف بها الطريق ، وكانت آخر مراحل سفره ، وهو بغدادي المنزل (ط) لأنه روى عن علماء كانوا جميعا ببغداد ٠

ولا أدري كيف دلت كلمتي - التي تلي هذه الأسطر - بعض الأفاضل على « افتراض المؤلف ابن الكوفي » وترجيح نسبة المخطوط اليه ٠ فقد نسب ذلك الي - مثلا - بلدينا الأخ الشيخ الجليل محمد حسن آل ياسين (أطال الله بقاءه وادام تأييده) ٠

لقد قلت في ص ٢٠ ع ٣ من مجلة كلية الآداب : « ٠٠ وظننتها [أي النسخة الخطية] (منازل مكة) ولكن نسبتها الى ابن الكوفي أمر ما ازال اتظناه ٠ فالرجل كثير الاستنساخ ، والنقل من منتسخاته شيء معروف ٠

ومهما يكن من شيء ؛ فان مصنف منازل مكة هذا ؟ رجل كوفي ، قريب من عهد ابن الكوفي - ان لا يكنه - فأكثر الرواة الذين روى عنهم من طبقة مشايخه ، وممن يوافق زمانهم عصره » ٠

وأنا أشكر لمجلة الاقلام استطلاع رأيي ، ولا أنسى الثناء على الشيخ الفاضل الذي رأى أن ينعم علي فيذكرني - استطرادا - في مقاله النفيس ؛ وهو عجاب من أهل العصر فقد تعودت أن يغمطني حقي كثير ممن نقل عني ، واستفاد من آثاري ٠ واليه (حفظه الله) يعود فضل دلالتي على مقالة الدكتور صالح أحمد العلي - في مجلة المجمع العلمي العراقي - التي هدته الى اضافة الكتاب الى ابي عبدالله محمد بن أحمد الأسدي وهو أمر أوسعته بحثا وتتبعا في مقالتي « أثر جغرافي طبغرافي قديم في صفة بلاد العرب لمؤلف عراقي قبل عشرة قرون ، في العدد القابل من مجلة كلية الآداب - ان شاء الله - » ٠

جان جاك رسّو

رائد الديمقراطية الاشتراكية الأول

ابراهيم الخال

في عام ١٧٩٤ ، وقبل مائة وسبعين عاما بالتمام ، خرجت باريس بشيبها وشبابها ، رجالها ونسائها ، ثم بقادتها الرسميين ومفكريها لتشييع الى البانثيون ، مدفن عظماء فرنسا ، علما من أعلام الحرية الكبار ، كان قد توفي قبل ذلك التاريخ بستة عشر عاما في غرفة فقيرة متواضعة بعد أن طعن في السن وشهد من مظالم أعداء الحرية والديموقراطية الشيء الكثير .

ذاك هو « جان جاك روسو » ، أبو الديمقراطيات المعاصرة الذي زلزل بكتاباته الارض تحت أقدام الحكم الاوتوقراطي الاستبدادي الظالم في فرنسا ، وأشعل مع معاصريه من المفكرين الاحرار ، نار الثورة الفرنسية الكبرى التي اعتبرها المؤرخون أولى الفتوحات الديموقراطية العظيمة التي شهدها الجنس البشري في القرون الحديثة .

ولد « روسو » في الثامن والعشرين من حزيران عام ١٧١٢م بمدينة جنيف في سويسرا ، وكان أبوه اسحاق روسو ساعاتيا انحدر من عائلة فرنسية كان رأسها أحد أصحاب المكتبات في باريس ، وقد هاجرت الى سويسرا بسبب الاضطهادات المذهبية العنيفة التي كانت تجري في فرنسا خلال القرن السادس عشر . أما امه ، فهي سوزان برنار ، ابنة أحد القساوسة البروتستانت الذين كانوا يشتغلون بالتعليم ، وقد احتمى جده لأمه بدوره بالجمهورية السويسرية هربا من اضطهاد الكاثوليك .
وكان زواج والدي جان جاك من بعضهما قد حصل نتيجة غرام عنيف ،

أشار اليه روسو في اعترافاته ، وذكر بأنه تم شريطة أن يتزوج خاله من عمته .

ولقد رزق اسحاق روسو بولد من سوزان ، ثم غادر جنيف عام ١٧٠٥ ليشتغل ساعاتيا في قصر السلطان العثماني في القسطنطينية . وبعد غياب دام ست سنوات ، رجع الاب ثانية الى جنيف عام ١٧١١ بالحاح من زوجه التي حملت منه هذه المرة جان جاك الذي كلفها حياتها ، اذ ماتت متأثرة بآلام الوضع يوم مولده عام ١٧١٢ .

وهكذا استقبل روسو الدنيا محروما من عطف الأمومة ونعمها . ولقد أمضى السنوات الخمس الاولى من حياته دون أن يشعر بما كان يجري حوله من أحداث . غير اننا نراه في اعترافاته يذكر بأنه كان موضع رعاية أبيه البالغة في سن السادسة ، وكذلك رعاية عمته التي كانت له بمنزلة الأم . وكانت عمته هذه جميلة الصوت ، تحفظ الكثير من ألحان ذلك العصر الموسيقية ، وهي نفسها التي طبعت روسو وأنشأته على حب الموسيقى ، وقد بقي يذكرها بكل خير الى آخر سني عمره ، ويقول عنها بأنه يكاد يبكي كالطفل كلما جال بخاطره لحن من الحانها القديمة بعد أن نالت منه الهموم والمحن وأصبح شيخا كبيرا .

ثم بدأ أبوه يعلمه القراءة في تلك السن . وهو بعد أن أتقنها بعض الشيء ، راح يقرأ معه سوية ما خلفت له والدته في مكتبتها من قصص وكتب تاريخية وغير . وكان أحب الكتب الى نفس روسو في بيت أبيه تلك الأيام ، كتاب « بلوتارك » عن عظماء اليونان والرومان ومشاهيرهم . وفي ذلك يقول روسو : « ان هذه القراءة الممتعة ، والأحاديث التي كانت تترتب عليها بيني وبين أبي ، قد ثبتت في نفسي الروحية الجمهورية الحرة .. والطابع الأدبي الذي يأنف احتمال العبودية والاستعباد ... فلقد شغلت بلا انقطاع بأفكار عن روما وأثينا وكأنني أعيش بين عظمائها.. فضلا عن انني كنت بحكم مولدي من رعايا جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته أقوى عواطفه ، فاذا بي أغدو متقد المشاعر مثله ، فكنت أخال انني يونانيا أو رومانيا عندما أفقد شخصيتي في شخصية من أقرأ سيرته من هؤلاء العظماء » .

ثم تحرمه الأيام من حنان الابوة اذ يضطر أبوه على مغادرة جنيف بعد أن تشاجر مع أحد الضباط الفرنسيين من ذوي النفوذ فيها ليقيم في « نيون » مؤثرا الحرية على السجن ، والاغتراب على تحمل الاهانة . عند ذلك يكفله خاله برنار الذي ارسله مع ابنه الى مدينة « بوسي » لدراسة اللاتينية وأشياء أخرى وصفها بأنها « تفاهات تدعو الى الأسف » ، في دار قس بروتستانتي يدعى « لامبرسييه »

ولقد أمضى روسو وابن خاله في « بوسى » خمس سنوات كانا خلالها موضع رعاية معلمهما واخته التي كانت تعاملهما معاملة الأم . لكن روسو ،

رغم كونه في العاشرة من عمره ، قد تعلق بحب مدموازيل لامبرسييه التى كانت في الاربعين • وعندما شعرت هذه بميول روسو نحوها ، أبعدته عن غرفة نومها بعد أن كانت لا تجد حرجا في أن ينام هو وابن خاله حتى فى سريرها أيام الشتاء • وفي بوسي ، تعشق روسو الطبيعة وحياة الريف لاول مرة ، اذ كثيرا ما كان يقوم مع ابن خاله برنار بالنزهة سيرا على الاقدام في الرياض والحقول • ثم انتهت تلك السنوات الهادئة من حياة روسو بعد ان أتهم بكسر مشط لمدموازيل لامبرسييه ، وهو ذنب تافه شاءت عقلية ذلك القس ان تضخمه فيستدعى الخال برنار لاستلام الغلامين •

ثم أمضى روسو مع خاله حوالي ثلاث سنوات في جنيف ، كان يتردد خلالها على أبيه في بلدة نيون • وكان أبوه قد عاش محترما محبوبا في هذه المدينة ، لذلك لقي جان جاك من أصحاب أبيه الترحيب الكثير ، لاسيما من قبل بعض النساء ، فادى ذلك الى تعلقه بمدام فيلسون ، ثم بمدموزيل جوتون ، وهن من اللواتي كن يغمرنه بعطف خاص • ولقد كان حب روسو لهما مشوبا بالخيال والخجل في وقت كان فيه مقبلا على سن البلوغ • لذلك كانت علاقته بهما هادئة بريئة طاهرة تشوبها الغيرة والتأثر عندما كان يراهما صحبة بعض الرجال •

وفي تلك الأيام ، كان يخطط لمستقبل جان جاك في جنيف • كان خاله برنار يريد أن يتحقق ما اذا كان بالامكان أن يصبح ابن اخته ساعاتيا أو أو محاميا أو قسا من القساوسة البروتستانت • وكان روسو يميل الى المهنة الاخيرة بتأثير التربية المستقيمة التي تلقاها على أبيه أيام طفولته الاولى • لكن ذلك كان يكلفه بعض المال والنقود • لذلك أرسله خاله للعمل في مكتب المسيو ماسيرون ليتعلم مهنة المحاماة • غير أن روسو شعر بكره شديد لهذه المهنة اذ كان يرى فيها ضربا من ضروب الاحتيال لاغتصاب الاجور من الناس • ثم بدأ يظهر كسولا مهملا في نظر ماسيرون الذي راح يزدريه ويعيره بالخمول والغباء ويردد على مسمعه أمام بقية موظفي المكتب ، من الاهانات الكثير •

ثم ترك روسو العمل لدى ماسيرون ، وأرسله خاله ليتعلم مهنة الحفر على المعدن ـ الزنكوغراف ـ لدى شاب عصبى المزاج غليظ القلب يدعى ديكومين • وكان روسو كما شهدنا ، قد عاش مدللا من قبل ، لم يعرف معنى الاهانة والتحقير قبل أن يرى وجه ماسيرون • ثم جاء ديكومين هذا ليمسخ روحية الصبى ويكيف شخصيته بخشونة لم تكن لتخطر لروسو على بال • ويقول روسو نفسه عن هذه الفترة البائسة التى شهدها في مطلع حياته : « لقد استطاع ديكومين في زمن قصير أن يطفىء كل تألق أوتيته فى طفولتى ، وان يخمد فطرتى المطبوعة على الحب والنشاط ، وان ينحدر بى روحا وجسما ، الى مرتبة « الخادم » في أحد

محلات اصحاب الحرف ، فقدر لما تعلمت من اللاتينية ، ومن سير الاقدمين ، والتاريخ ، أن تغدو منسية لاجل طويل ٠٠ ولم يعد ابي يستطيع ان يسرى في شخصى الأصيل حين ذهبت لزيارته ، كما لم أعد جان جاك « اللبق الظريف » في تقدير السيدات ، وأيقنت ، عند التأمل في واقع الحال ، ان لامبرسييه واخته كانا خليقين بأن يعجزا عن أن يعرفا في تلميذهما ، فاستحييت ان أزورهما ، ولم يقدر لي أن أراهما منذ ذلك الحين الى الابد ٠٠ ثم حلت أدنى الرذائل وأحط اخلاق السرقة محل موایاتی البسيطة ، حتى لقد محت كل ذكرى لها ٠٠ »

هكذا كانت المعاملة السيئة والاهانة والتحقير والضرب المبرح لابسط الاخطاء ، قد خلقت من روسو الوادع اللطيف صبيا شريرا راح يسرق الاشياء التافهة العديمة القيمة انتقاما من سيده الذي راح يشدد عليه النكير كلما ازداد في الغش والعناد ٠

وكان روسو قد تعود الخروج أيام العطل للعب فى المروج خارج أسوار جنيف مع زملائه العمال الصغار ٠ ولقد حدث أن تأخر أحيانا فى العودة الى المدينة التى كانت تغلق أبوابها مع الغروب ، فكان يقضي الليل نائما خارج السور ليتلقاه ديكومين فى الصباح بالضرب المبرح وسوء العذاب ٠ وفى مساء يوم من أيام الاحاد وقد عاد متأخرا لا يستطيع دخول المدينة التى أغلقت بابها بوجهه ، قرر ألا يدخلها مطلقا وأن يهرب من الحال البائسة التى كان عليها لدى ديكومين ، فغادر جنيف مرغما بدافع من خياله الذى صور له بأن الدنيا ستكون طوع أمره أينما توجه او أقام ٠

وكان روسو فى السادسة عشرة عندما هام على وجهه وزار المسيو دى بونفير ، مطران مدينة كونفنيون التي تبعد قليلا عن جنيف ٠ وكان هذا المطران كاثوليكى النزعة وقد حاول أن يهدي روسو الى الكثلكة فتحدث له عن « زندقة » أهالى جنيف ، وأقنعه بالذهاب الى مدينة « أنسى » ليلقى المساعدة اللازمة من سيدة ذات مركز اجتماعى محترم فيها بعد أن بسط الملك « فكتور أماديو » حمايته عليها بسبب دخولها المذهب الكاثوليكي ، وقد كانت بروتستانتية من قبل ٠

تلك هي مدام دى فارانس ، السيدة التى أحبت روسو وأحبها بشغف منقطع النظير مدة سنين طويلة من حياته الحافلة بالحب الرومانتيكى والعواطف المستعرة الاوار ٠

ولقد حاولت مدام دى فارانس استبقاءه الى جانبها حيث وقع من نفسها موقعا عزيزا منذ اللقاء الاول ٠ لكنها خوفا على مركزها من الأقاويل والشبهات ، وما قد يظن بها حول عقيدتها الكاثوليكية الجديدة ، هيأت لروسو أسباب السفر الى مدينة تورين ٠ وكان المطران « بونفير » قد زوده برسالة الى رئيس أحد أديرتها ، فاستقبله هذا ، وأدخله الدير تمهيدا

لتعميده وهدايته الى الكثلكة . وكان في الدير بعض المشردين ممن جاءوا لغرض المتاجرة بالدين . ويروي روسو في اعترافاته الحال الجنسية البائسة التي كان عليها ذلك الدير عندما راوده أحد هؤلاء عن نفسه وحاول أن يفسق به ، وكيف أن الراهب المسؤول وقف الى جانب الرذيلة عندما أذاع روسو ما أراده ذلك الشرير به ، وراح يوحي له ـ لروسو ـ بأن مثل هذه الافعال ليست بالشيء المؤذي أو المهين !

ثم غادر روسو الدير بعد أن أصبح كاثوليكيا ليهيم على وجهه من جديد .. ولقد ضاقت الدنيا بهذا الصبي البائس لدرجة انه أصبح يبحث عن العمل كخادم في البيوت . ثم زاول هذه المهنة الحقيرة في هذا البيت وذاك . وكان أن وقعت في هذه الايام من حياته تلك الحادثة التي بقيت تهز كيانه هزا الى آخر أيام عمره ، والتي كان لها تأثير بالغ على فلسفته وآرائه في الكثير مما كتب من بعد . ذلك ان روسو كان قد أقدم على سرقة شريط مطرز بالفضة يعود الى احدى قريبات الكونتيسة « فيرسيللي » التي كان خادما صغيرا في قصرها يوم وفاتها . وعندما وجد الشريط بحوزة جان جاك ، انكر سرقته اياه واتهم طاهية بريئة كان يحبها وقال بأنها هي التي أعطته الشريط . وكان روسو في الواقع قد سرق الشريط كي يهديه لها نفسها لتعلقه بها ، غير ان اتهامه اياها بالسرقة قد ادى الى طردها من العمل وتحطيم سمعتها ، وهو في ذلك يقول في اعترافاته والألم يعتصر قلبه اعتصارا : « لقد خرجت من دار الكونتيسة وحملت معي ذكريات باقية لجرم ، وحملا لايطاق من الندم الذي لا يزال يجثم على ضميري رغم مرور أربعين عاما ، وان مرارته لتزداد فعالية بمرور السنين ... اذ انني ربما كنت قد تسببت في هدم فتاة لطيفة شريفة كان من المؤكد انها تفوقني جدارة ... واذا كانت هذه الجريمة مما يجوز التكفير عنه على ما أعتقد ، فلابد انني كفرت عنها بكل الشقاء الذي عصف بي في السنوات الاخيرة من عمري . » .

ثم يترك روسو الخدمة في البيوت بعد أن يحاول أحد مخدوميه تحريم زيارة « باكل » له ، وهو أحد اصدقائه من الشبان ، ويعود الى مدام دي فارانس في مدينة أنسي ، فترحب به هذه من جديد ، وتفرد له غرفة مطلة على الرياض والبساتين مما يتلاءم مع مزاجه وحسه الشاعري .

ولقد كانت علاقة روسو بمدام دي فارانس في تلك الفترة أشبه ما تكون بعلاقة الولد بأمه اذ كان يناديها بكلمة « أمي » رغم غرامه المشبوب بالخيال والخجل . ثم تحاول هذه السيدة التي غمرته بحبها وعطفها أن تجعل منه قسا فيفشل ، ثم موسيقيا فيفشل ، وأخيرا ترسله في مهمة لمساعدة « لميتر » استاذه في الموسيقى ، على الوصول الى باريس بعد أن غادر كاتدرائية المدينة مغاضبا . وهو اذ يصل مع « لميتر » الى ليون ، يصاب هذا الاخير بنوبة صرع فيتركه روسو لرحمة الناس دون ان

يواصل معه الرحلة ، وهو موقف بقي روسو يعاني من وخز الضمير بسببه حتى نهاية عمره بالاضافة الى عذابه المستديم الذى لازمه بعد اتهام الطاهية « ماريون » بسرقة الشريط مار الذكر .

واذ يعود روسو الى مدينة أنسي ، يجد مدام دى فارانس قد غادرتها الى باريس لبعض اشغالها فيحزن الحزن كله ، ثم لا يلبث أن يبدأ حياة بوهيمية تنقل خلالها في أحداث غرامية رومانتيكية بين بعض الفتيات ثم يحاول الارتزاق من الموسيقى والغناء فى مدن أخرى غير أنسى فلايوفق ، وأخيرا يصبح سكرتيرا لراهب ايطالى كان يجمع المعونات والتبرعات لغرض استعادة ضريح السيد المسيح . ولقد منعه المركيز « دى بوناك » ، قنصل فرنسا فى مدينة سوليير ، من مواصلة السفر مع ذلك الراهب بعد أن اجتمع بهما ، لاعتقاده بعدم جدوى ما يبذلانه من جهود ، ثم أرسله الى باريس ليكون سكرتيرا لأحد أقاربه من الشبان العسكريين ، غير ان عائلة هذا الشاب استقبلته بجفاء بالغ ، فغادر باريس بعد أن علم بأن مدام دى فارانس قد غادرتها قبله . ثم يستمر في البحث عنها الى أن يجدها في مدينة « شامبيرى » مع عشيقها « كلود آنيه » . ولقد استقبلته دىفارانس فى هذه المدينة بعطفها المألوف ، وراحت ترعاه كعهده بها ، ثم حاولت ان تخلق منه شخصية مرموقة ، فنجح الى حد ما فى الموسيقى واصبح له تلاميذ وتلميذات من السيدات البارزات . واذ تخاف دى فلورانس عليه من شرور تلك النسوة واحابيلهن ، فانها تتخذه عشيقا جديدا الى جانب « كلود آنيه » الذى لم يلبث أن توفى بعد زمن قليل .

هذه الفترة من حياة روسو الذى جاوز سن العشرين الآن ، هى التى تفتحت فيها مواهبه الأدبية وبدت ميوله نحو القراءة والتطلع الى آفاق المعرفة واضحة للعيان . ذلك انه كان بين تلامذته الذين يدرسون عليه الموسيقى ، أديب نابه يدعى « دى كونزييه » راح يحدثه كثيرا عن « فولتير » وعلاقته بولي بروسيا . وكان فولتير آنذاك من الادباء المغضوب عليهم الذين استأسروا قلوب الشباب بعد أن بدأوا يزلزلون الأرض تحت أقدام الطغيان والاستبداد الذى شهدت أهواله أوربا مدة قرون طويلة . ويقول روسو عن « الرسائل الفلسفية » لفولتير بأنها كانت أقوى ما اجتذبته اليها من دراسات ، وانه منذ قراءته لها عند ظهورها تلك الأيام ، لم يفتر ميله نحو الدراسة قط .

وبعد حياة سعيدة قضاها روسو مع دى فارانس ، ثم بعد تجوال وأسفار هنا وهناك مما يجد القارىء تفصيله فى الاعترافات ، تتخذ دى فارانس لها عشيقا جديدا ، ثم يغادرها روسو الى مدينة ليون التى سبق له أن اشتغل فيها مدرسا لابناء حاكمها « دىمابلى » . ولقد استقبله هذا الحاكم بكرم بالغ ، كما تعرف هذه المرة على الدوق ريشيليو الذى مر بالمدينة وتوقف فيها لبضعة أيام . وأخيرا ، فقد حصل روسو على رسائل

توصية من وجوه مدينة ليون الى معارفهم من شخصيات العاصمة الفرنسية التي توجه اليها وفي خياله انه سيصبح موسيقارها الاكبر ٠

ولقد وصل روسو باريس في خريف عام ١٧٤١ وهو خالي الوفاض لايملك غير خمسة عشر جنيها وروايته «نرسيس» ومقترحاته الموسيقية التي جاء بها لعرضها على اكاديمية الفنون ٠ ولكي لايطول انتظاره ، فانه سارع الى ايصال رسائل التوصية التي معه الى وجوه باريس فتعرف بواسطتها عليهم ، وكان من بينهم المسيو بوز الذي عرفه بدوره على المسيو « رومير » ٠ ولقد ساعده رومير في عرض مقترحاته الموسيقية على الاكاديمية فكان ان رفضتها بعد مناقشتها معه ٠

وكانت خيبة روسو عظيمة عندما رفضت مقترحاته ، وقد وضع كتابا لغرض اقناع الرأي العام لمساعدته في الموضوع دونما جدوى ٠ بعد ذلك اقتصر نشاطه على زيارة من تعرف عليهم من الشخصيات المرموقة ، فكان يزور مارينو وفونتنيل ٠ وكان مارينو قد اطلع على روايته « نرسيس » فعرضها على اديب شاب كان يتردد على مجلسه فاعجب بها ، ولم يكن ذلك غير « دنيس ديدرو » الذي انغمر مع روسو في صداقة عميقة منذ ذلك التاريخ ٠

ثم يبدأ روسو حياة بطالة وافلاس في باريس ، فكان خلال هذه الفترة من حياته يتردد على بعض سيدات الصالونات اللواتي تعرف بهن فكن يحطنه ببعض الرعاية ، كما كان يقضي اغلب اوقاته في مقهى « موجي » مع ديدرو وغيره من الادباء الشباب وقد عقد العزم هذه المرة على ان يصبح بطلا لامعا في لعبة الشطرنج فيفشل في تحقيق هذه الامنية ايضا ٠ بعد ذلك يتملص من حياة الافلاس اذ تساعده مدام « ديزنفال » على اشغال منصب سكرتير قنصل فرنسا العام في البندقية ، فيشد الرحال الى ايطاليا تاركا ديدرو وصحبه من « الادباء الاشرار! » لرعاية سيدات الصالونات ، ولنقمة الساخطين عليهم من القساوسة والكتاب الرجعيين ٠

ولقد اشتغل روسو في القنصلية باخلاص منقطع النظير فكسب بذلك عطف الجالية الفرنسية والاجانب على حد سواء ٠ غير انه اختلف مع القنصل « مونتيجي » الذي اتصف بالحماقة وضيق العقل فعاد الى باريس وعرض شكواه بسبب تصرفات القنصل ، على المسؤولين فلم يجد اذنا صاغية من أحد ٠

ثم تضيق مسالك الرزق وتسد بوجه روسو ، لكنه يقرر بعزم ثابت الاستفادة من مواهبه وكسب رزقه بكده وتعبه دون الاعتماد على أحد ٠ وهو اذ يعود الى سكنى فندق سان كينتان المتواضع ، يلتقي بفتاة ريفية ساذجة هي « تيريز ليفاسير » التي اتخذها عشيقة ثم زوجة انجبت له عدة اطفال اودعهم جميعا ملاجيء اللقطاء ٠

وفي هذا الفندق ، بدأ روسو يكمل « اوبرا » كان قد بدأ تاليفها قبل

سفره الى البندقية ·

ولقد اكمل روسو الاوبرا بأقل من ثلاثة اشهر بفضل تأثير تيريز على مشاعره كما يقول ، ثم عرضها على الموسيقار الكبير « رامو » في دار احد ذوي النفوذ من معارفه ، لكن « رامو » لم يشجعه بل راح يستهين بقدره مع الايام غيرة وحسدا · ثم تعرف تلك الاوبرا امام الدوق ريشليو في نفس تلك الدار بالحاح من صاحبها المسيو « دي لابوبلينيير » ، ويعجب ريشليو بها ويعد باخراجها في قصر فرساي · ولقد اقيمت في قصر فرساي عدة حفلات في شتاء عام ١٧٤٥ · وكان بين المسرحيات المنوي اخراجها آنذاك ، مسرحية فولتير « اميرة نافار » التي وضع الحانها الموسيقار رامو · وقد رأى ريشليو أن تجرى تعديلات في اشعار المسرحية وكذلك في موسيقاها في وقت لم يكن فيه لا فولتير ولا رامو في باريس · وعندما عهد ريشليو باجراء هذه التعديلات الى روسو ، كتب هذا الى فولتير مستأذنا حول الموضوع فأجابه فولتير بأولى رسائله اليه حيث قال :

« فيك تتحد ميزتان كانتا منفصلتين دائما ، وهما سببان وجيهان لكي اجلك وأقبل على حبك · واني لأسف من أجلك اذ تستخدم هاتين الموهبتين في مؤلف لا يليق بمقامك ··· واني لسعيد اذ انها بين يديك ، فلك أن تفعل بها ما يحلو لك ··· واعتقد انني لن ألبث أن أتشرف بشكرك ··· » ·

ولقد نجح روسو في تعديل المسرحية والحانها · غير انه لم يحصل بعد اخراجها على شيء من الاجور ، كما اهمل ذكر اسمه وفضله في تعديلها أمام الجمهور بكيد من رامو وأصحابه فآلمه ذلك كثيرا ، وانصرف الى البحث عن عمل جديد يستطيع بواسطته اعالة تيريز وعائلتها التي اتكلت عليه ، فاشتغل سكرتيرا لمدام « دوبان » والمسيو « فرانكوي » اللذين عهدا اليه بكتابة بعض ابحاثهما العلمية ·

وخلال اشتغاله مع مدام « دوبان » ، تعرف على الكاتب الالماني كرم الذي أصبح في الاخير يناصبه العداء سوية مع ديدرو · وكان روسو منذ عودته من ايطاليا على علاقة دائمة بصديقه ديدرو · ولقد نشر ديدرو في تلك الفترة من علاقته بروسو كتابه « أفكار فلسفية » الذي أصبح بسببه موضع مضايقات الكثير من أعداء الفكر · وعندما نشر رسالته المعروفة « لمصلحة من يبصر العميان ؟ » ، القي في سجن « فانسان » عام ١٧٤٩ ، اذ رأى فيه بعض المتنفذين مساسا بأشخاصهم · وقبل أن يسجن ديدرو ، كان يجتمع سوية بروسو مع الراهب الاديب « دي كوندياك » وصديقه الآخر « دي لامبرت » ، وقد اتفق مع روسو على اخراج مجلة باسم « الساخر » صدر منها عدد واحد فقط بسبب تحول ديدرو الى اصدار دائرة المعارف الفرنسية التي كتب روسو القسم الخاص بالموسيقى فيها ·

الى هنا وقد أصبح روسو في السابعة والثلاثين من العمر ، تنتهي سيرته التي عاشها متشردا مغمورا فاشلا في كل ما أقدم عليه من مشاريع

موسيقية وغير • لكن هذا العبقري الذي كان يتفوق على موسيقار عصره الكبير « رامو » لولا الغيرة والحسد ، قد قدر له بعد ذلك الفشل ان يتربع على عرش الفكر فتسلط عليه الانوار القوية في معركة فكرية جبارة خاض غمارها ضده عباقرة العصر ومشاهيرهم وعلى رأسهم شاعر فرنسا الاكبر فولتير •

وخلاصة القصة ان اكاديمية ديجون قد طرحت على المفكرين موضوعا على شكل سؤال يقول : « هل ساعد تقدم الآداب والعلوم على افساد الاخلاق ، أم على تهذيبها ؟ » وقد خصصت لذلك جائزة لاحسن مقالة حول الموضوع • وكان روسو في طريقه الى زيارة ديدرو في سجنه عندما اطلع في احدى المجلات التي كانت معه على سؤال الاكاديمية • ولقد أخذ السؤال بمشاعره ومجامع فكره وراح يهز كيانه هزا ، حتى اذا وصل الى سجن فانسان شعر ديدرو بما يعانيه صديقه من حال نفسية مرتبكة ، وفي ذلك يقول روسو : « ولمح ديدرو مابي ، فذكرت له السبب ، وقرأت عليه ما كتبته بالقلم الرصاص ، تحت شجرة البلوط في الطريق ، فشجعني على ان أطلق لافكاري العنان ، وأن اشترك في المسابقة ••• وقد كانت المصائب التي ملأت بقية عمري ، نتيجة لا مفر منها لجنون تلك اللحظة • » •

ثم انتهى روسو من وضع الرسالة ، وحاز جائزة الاكاديمية ، لا لواقعية الافكار التي تضمنتها ودقتها العلمية ، انما لسيطرته بها على عواطف قرائها ومشاعرهم في مجتمع استقطب فيه شيئان متناقضان : الترف المفرط ، والحرمان القاتل •

لقد دعا روسو الناس في هذه الرسالة الى العودة الى الطبيعة وحال الجهل التي كان عليها الانسان في المجتمع الخالي من العلم والفن • انه رأى في العلوم والفنون نتيجة من نتائج الشر وعدم المساواة التي سحقت حرية الانسان وسعادته وسببا كبيرا في هلاك الحضارات ، وهو يضرب على ذلك الامثلة فيقول مثلا : « انظروا الى مصر ، مدرسة العالم ذات الارض الخصبة والسماء الصافية • انظروا الى هذه البلاد المجيدة التي خرج منها سيزو ستريس ليحكم العالم • انها ما لبثت أن أصبحت أم العلوم والفنون حتى أغار عليها قمبيز ثم اليونان ثم الرومان ••• وانظروا الى اليونان التي كانت من قبل مسكن الابطال الذين هزوا آسيا مرتين ، مرة حين شنت فارس الغارة على طروادة ، ومرة حين غزا اليونان أنفسهم آسيا أيام لم تكن الآداب قد أفسدت نفوس الغزاة بعد • لكن تقدم الفنون وتحلل الاخلاق ونير المكدونيين قد تعاقب عليها كله ، فلم تكسب اليونان من كل ما قامت به من ثورات بعد أن تورطت في علمها وشهواتها وعبوديتها غير تغير وجوه المتحكمين في أمرها ، وقد عجزت بلاغة ديموستين كلها عن تجديد الحياة في جسمها الذي هزله الترف وانهكته الفنون • » • ولقد هاجم روسو الترف أيضا ، ورأى فيه سببا كبيرا من أسباب العبودية ، ويتخذ من سبارطة التي

كافحت الترف مثلا للمجتمع الفاضل الحر السعيد فيقول عنها بأنها كانت : « المدينة المجيدة بجهالتها ، السعيدة في مجدها . انها الجمهورية التي بلغ من رفعة فضائل أهلها ان كانوا أنصاف آلهة أكثر منهم اناسا » .

وعلى الرغم من عدم واقعية الكثير من الظروف التاريخية القديمة التي أشار اليها روسو في هذه الرسالة ، فاننا نعتقد بأن الافكار التي بناها عليها والتي طالع العالم الحديث بها قد جعلته رائد الاشتراكية الاول في العصور الحديثة ، يتضح ذلك من جوابه على نقد ستانسلاس ، ملك سردينية ، للرسالة . قال روسو :

ربما قيل ان الثروة وليس العلم – في كل زمان ومكان – هي أصل الترف . لكنني لم أقل ان العلم أصل الترف ، انما قلت انهما ولدا معا ، وان أحدهما لا يعيش الا مع الآخر . واليك كيف رتبت المسألة : فالاصل الاول للشر هو « عدم المساواة » . وعن عدم المساواة تنشأ الثروة . والثروة تولد الترف والفراغ . والترف أصل وجود الفنون ، بينما الفراغ أصل وجود العلوم » .]

فاذا اقتنع ستانسلاس وغيره ممن شنوا الحرب على الرسالة بهذا الرد ، فان شاعر عصره الساخر ، فولتير ، لم يقتنع . لقد ركز فولتير هجماته على آراء روسو في الرجوع الى الطبيعة قبل أي شيء آخر فافتتح المعركة الفكرية التي استغرقت بقية حياة الفيلسوفين العظيمين بسخرية لاذعة اذ وصف الرسالة بأنها تدعو الناس « الى المشي على أربع ! » .

ان الذي يدرس ردود روسو على ستانسلاس وغيره بعناية ، يرى في الواقع بأن روسو كان يركز في هجومه على « عدم المساواة » قبل تركيزه على « العلوم والفنون » . ولقد بقي موضوع عدم المساواة من مشاغل تفكير روسو الى آخر سني حياته وقد عقد له فصلا في كتابه « العقد الاجتماعي » تحت عنوان « الملكية الحقيقية » ، كما وضع له رسالة خاصة به عندما طرحت اكاديمية ديجون على كتاب ذلك العصر مسألة « الاصل في عدم المساواة ، وما اذا كان القانون الطبيعي يقرها » .

وفي هذه الرسالة يبدو روسو اشتراكيا يقدس الحرية الى الدرجة التي يفضل معها الرجوع الى حالة الطبيعة حيث يعيش الناس سواسية في الحقوق بحرية ليس لها نظير في المجتمع المدني . لكن اشتراكية روسو في هذه الرسالة كانت متطرفة للغاية ، وخالية من الرزانة التي اتصفت بها اشتراكيته في العقد الاجتماعي ، فهو يدعو الى تحقيق المساواة بنبذ الحياة المدنية التي يراها العامل الاكبر في ايجاد التفاوت وعدم المساواة في الملكية بين الناس . يقول روسو :

ان اول من فكر ، حين أحاط قطعة أرض بحدود ، في ان يقول « هذه لي » ، ثم وجد قوما بلغ بهم العمى درجة صدقوه معها ، هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني . وكم من الجرائم والحروب والدماء ، وكم من التعس

والبؤس ، كان يوفره على الانسانية ذلك الذي يتقدم ساعتئذ فيقتلع الاعلام ، أو يردم الخندق المحيط بتلك القطعة من الارض ويصيح في قومه : اياكم والاستماع لهذا الكذاب ! » .

والتطرف عند روسو هنا واضح أيضا فهو يميل الى الغاء الملكية الخاصة، لا عن طريق الثورة المسلحة أو غير، انما بالعودة الى الطبيعة. انه لم يكن يعتقد بأن باستطاعة الثورة أن تحقق للناس السعادة المنشودة في الحياة المدنية التي يتميز الانسان بها بخاصية التفكير في مشاكل الغد ، وان مجرد التفكير في هذه المشاكل هو مما يفسد على الانسان سعادته التي كان يتمتع بها في أحضان الطبيعة عندما كان يعيش لحاضره دون التفكير في الماضي والمستقبل ، وفي ذلك يقول :

« لو ان الطبيعة كتبت للناس ان يكونوا سعداء في الحياة المدنية لحق لي ان اؤكد ان حال التفكير مناقضة للطبيعة ، وان الرجل الذي يفكر انما هو حيوان فسد مزاجه .

وهو اذ يتحدث عن الثورات في هذا المجال يقول بأنها يمكن أن تخفف من ويلات الاستبداد غير انها لا تؤدي الى المساواة ما دامت حالة الحياة المدنية قائمة . لكن آراء روسو الجريئة هذه كانت في الواقع تهيء الناس لثورة كبرى دون أن يشعر ، وقد أصبحت من بعده كما وصفها المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، « بعض قرآن ذلك العصر الملطخ بالدم . » . ولقد كانت المساواة كمبدأ ، من أكبر الاغراض التي رمت اليها الثورة الفرنسية .

وفي عام ١٧٦٢ أصدر روسو كتاب العقد الاجتماعي . وهذا الكتاب على الرغم من عدم واقعية نظرية العقد التي احتواها فانه يعتبر كنزا من كنوز الفكر الانساني الهادف الى الحرية وخير المجتمع . والكتاب جملة وتفصيلا يؤكد على حرية الفرد وحرية الشعب وسيادته وقوانينه النابعة من « الارادة العامة » ، ارادة الشعب التي يرى روسو بأن السيادة يجب أن تكون لها وليس لاي فرد أو طبقة .

على ان الغريب بالنسبة للكثير من دارسي العقد الاجتماعي هو اهتمامهم بما جاء فيه من مبادىء في الحرية والسيادة والقانون والديموقراطية وغير ، دون أن يعيروا بالغ اهتمام لما جاء فيه من نزعة اشتراكية واضحة المعالم جعلت روسو رائد الديموقراطية الاشتراكية الاول في العصور الحديثة .

وروسو لا يؤمن بامكان تحقيق الحرية في المجتمع دون تحقيق المساواة حتى في المجال الاقتصادي . لكن المساواة التي أصبح يرمي اليها في العقد الاجتماعي هي غيرها التي قصدها في رسالته عن « الاصل في عدم المساواة » عندما أشار الى الغاء الملكية ، اذ الظاهر ان تسع سنوات من التفكير في الموضوع بعد تلك الرسالة قد جعلته اكثر رزانة واعتدالا فراح يدعو الى مساواة أخلاقية شرعية يكون جميع الناس فيها متساوين في الحقوق ، وهو

ما تسميه الديموقراطية الاشتراكية الحديثة بمبدأ « تكافؤ الفرص » ، بالاضافة الى القضاء على الملكيات الكبيرة التي يعتقد بأنها من أسباب الفقر والعبودية والاستعباد في المجتمع .

يقول روسو بان الدولة تصبح صاحبة السلطة على كل الملكيات فور قيام الاجتماع بموجب العقد الاجتماعي . لكنه يعود ويقول بأن من حق الانسان الفرد أن يحصل بعد ذلك على كل شيء يحتاجه ، ومن ثم ليس له الحق في مطالبة المجتمع بما لا يحتاجه من الملكيات .

ان أكبر ما تعتز به الديموقراطيات الاشتراكية الحديثة من آراء روسو في موضوع الملكية الخاصة ، هو رأيه الذي سدد به الضربة التي قصمت ظهر الاقطاع في العالم اذ قال وهو يتكلم عن حق الفرد في تملك الارض ، أن هناك شروطا معينة يجب توفرها كي يصبح هذا الحق واقعيا ، وتلك هي :

« أولا : ان تكون تلك الارض غير مشغولة من قبل أحد حتى وقت الامتلاك .

ثانيا : ان يشغل الانسان من مساحة تلك الارض ما يكفي لمعيشته وسد حاجاته فقط .

ثالثا : ان يبرهن على حقه في امتلاك تلك المساحة بالقيام بفلاحتها والعمل فيها ، اذ ان ذلك هو الطابع المحترم الوحيد للملكية ...

وفي العقد الاجتماعي أيضا ، يشير روسو الى عدم المساواة بين الناس في القابلية الفكرية والبدنية ويقول ان ذلك من الامور التي فرضتها الطبيعة على البشر ، لذلك فهو يدعو الى مساواة أخلاقية شرعية تمنح الجميع فرصا متكافئة . بعد ذلك يؤكد على ان هذه المساواة سوف لا تكون أكثر من ظاهرة وهمية في ظل الحكومات غير الصالحة التي تبقي الفقير على فقره ، والغني على جبروته .

ويؤكد روسو على ضرورة وجود الملكية الخاصة التي لا تمثل خطرا على الآخرين فيقول « ان الحال الاجتماعية ستكون مفيدة للناس ما دام الجميع يملكون شيئا ، وما دام لا يملك البعض منهم كثيرا » .

ثم يستمر في ايضاح هذه الافكار في مكان آخر من الكتاب فيقول : « ان المساواة في الثروة هي أن لا يكون لاي مواطن منها ما يستطيع به شراء غيره من المواطنين ، وان لا يوجد بين المواطنين في المجتمع من هو فقير لدرجة يضطر معها على بيع نفسه للآخرين » .

وروسو اذ يتكلم عن هذه المساواة ، فانه يرى في عدم وجودها خطرا على الحرية وحياة الدولة والمجتمع ، وهو يفلسف ذلك ويقول :

« اذا كانت الغاية ان تعطي الدولة رسوخا وثباتا ، فاجمع بين طرفي النهايتين ـ نهاية الفقر ونهاية الغنى ـ جهد الامكان . عند ذلك سوف لاتجد لا ثريا ولا شحاذا . ان كلا هذين النوعين المتلازمين مع بعضهما من الملكية

(الفقر والغنى) ، قدر مميت للصالح العام : احدهما ينتج لنا اصدقاء الطغاة، وينتج الثاني الطغاة انفسهم • وان الحرية العامة توضع في البيع بالمزاد العلني بينهما دائما ، أحدهما يشتري ، والاخر يبيع • »

تلك هي اشتراكية روسو الهادئة النازعة نحو صيانة الحرية وتعضيد الخير العام • ومن افكار روسو هذه بالذات ، استمدت الديموقراطيات الاشتراكية الحديثة فكرة «محو الفوارق بين الطبقات» بدلا من اقامة الديكتاتورية الطبقية بتنصيب طبقة معينة تكون صاحبة السيادة في المجتمع بالعنف وإراقة الدماء ، وهو ما ترمي اليه الماركسية •

وكان روسو قد اصدر مع العقد الاجتماعي عام ١٧٦٢ كتابه داميل» أيضا ، فأصبح الكتابان موضع سخط رجال الكنيسة والحكومة ، وصودر «أميل» في فرنسا وهولندا ، واحرقت النسخ التي وصلت منه الى جنيف •

ثم فر روسو من وجه السلطات الفرنسية ، وبقي يتنقل متخفيا بين المدن السويسرية ، ولجأ الى نيوشاتل التي كانت تابعة لفريدريك الثاني الذي عرف بتسامحه • بعد ذلك قبل الدعوة التي وجهها له الفيلسوف الانكليزي « هيوم » وسافر الى انكلترا حيث عكف على كتابة قسم كبير من « الاعترافات » •

ولقد اختلف روسو مع اصدقائه من الانكليز أيضا وعاد متخفيا الى فرنسا ، وقد بقي يتنقل فيها تحت اسماء مستعارة مدة من الزمن ، ثم حصل بواسطة بعض معارفه من ذوي النفوذ على اذن من السلطات بالاقامة في باريس على ان يترك الكتابة في موضوع الحكومة والدين •

وكان روسو عصبي المزاج للغاية وقد سيطرت عليه الوساوس لدرجة لم يعد يفرق معها بين العدو والصديق ، فكان في سني حياته الاخيرة يتصور بأن الدنيا ومن عليها قد اصبحت من اعدائه ، لذلك كان يصاب بنوبات عصبية أثرت في صحته تأثيرا بالغا ، كما فقد من جراء هذه الوساوس جميع اصدقائه بما في ذلك ديدرو وكرم •

وفي كوخ صغير يملكه احد الاثرياء من معارفه ، وجد روسو يوم ٣ تموز عام ١٧٧٨ ميتا بعد نوبة عصبية لم يستطع جسمه الواهن مقاومتها، وهناك من يعتقد بأنه انتحر ، لكن ذلك لم يثبت بصورة باتة •

وكان العقد الاجتماعي قد أصبح من بعده انجيل الثورة الفرنسية ، كما انعكست اراؤه بصورة واضحة على وثيقة « حقوق الانسان والمواطن » التي أصدرتها تلك الثورة • أما جنيف التي أحرقت له « أميل » ، فقد أقامت له تمثالا يشهد عليها بأنها كانت في جهالتها تظلم ابناءها من العباقرة والنابهين •

من مراجع البحث :

١ ـ روسو : العقد الاجتماعي •
٢ ـ روسو : الاعترافات •
٣ ـ روسو : رسالة في العلوم والفنون •
٤ ـ روسو : الأصل في عدم المساواة •
٥ ـ محمد حسين هيكل : جان جاك روسو •

الشاعر أبو المحاسن في ديوانه

بقلم : سلمان مهدي الطعمة

للمحدث الكبير والشاعر الشهير الشيخ محمدعلي اليعقوبي أياد كبيرة على الادب العربي في كافة مجالاته ، وله الكثير من الافضال على احياء هذا التراث والقاء الاضواء القوية عليه وتعريفه وتخليد سير رجالاته ٠٠ فما من قارئ عربي يستطيع ان ينكر ما لصاحب (البابليات) وغيرها من أثر كبير على سير الحركة الادبية في بلدنا ، وتدعيم هذه الحركة بكل ما نعهده فيه من همة قعساء وعزيمة لا تدانى ٠٠

ولعل أهم ما قدمه من عمل جليل في الآونة الاخيرة هو اخراج ديوان شاعر الثورة العراقية المرحوم محمد حسن أبي المحاسن ووضعه بين يدي القارئ العربي ، وبذلك نفض غبار النسيان عن اثر خالد يصور لنا جانبا من الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠م ، ولا غرو في ذلك فديوان ابي المحاسن يعتبر (حماسة) تلك الثورة بدون مغالاة ٠٠

وقد عنى الشيخ اليعقوبي بوضع ترجمة كاملة لصاحب الديوان لم يدع شاردة ولا واردة من دقائق حياة هذا الرجل العظيم الا وأوردها ، وبذلك عرفه للقارئ تعريفاً حسناً ٠ اضافة الى سرد الحوادث التاريخية التي عاصرها صاحب الديوان سواء كان له ضلع فيها أم لم يكن ، وهذا لا يخلو من فائدة للقارئ اضافة الى المتعة التي يجدها عندما يستعرض أهم ما حدث في بلده في الماضي القريب ٠

ونسخة الديوان التي اعتمد عليها الشيخ الجليل اليعقوبي هي من محتويات مكتبته الخاصة ، والمعروف عن مكتبة الشيخ انها معين ثر يحوي نفائس المخطوطات ، وحبذا لو شمر (أبو موسى) عن ساعد الجد ، فاخرج لنا هذه النفائس تباعاً ، وأملنا وطيد به ، حيث لا يغفل متى واتته الظروف وساعده الوقت عن ذلك مطلقاً ٠

وقد حقق اليعقوبي ديوان أبي المحاسن وشرح مفرداته ورتبه على حسب أحرف الهجاء .. فجاءت القصائد مختلفة الاغراض ، متباينة . فتجد قصيدة في المديح تليها أخرى في الغزل والثالثة تكون وطنية وهكذا .

ويحوي الديوان زهاء الخمسمائة صفحة من غير المقدمة وترجمة حال صاحبه ، واكثر قصائد الديوان هي وطنية وليدات احداث الثورة ، كما لا يخلو من اغراض اخرى كالغزل والاخوانيات والمراسلات والرثاء والمديح .

وشعر ابي المحاسن على العموم قوي جزل ، متين السبك ، رائع النظم ، ويمتاز بسلاسة وعذوبة الى جانب قوة الابداع وحبك الديباجة . ففي الوطنيات نار وحمم ، وفي الغزل رائق كالخمر ، وفي الاخوانيات يتسم بصدق الاخلاص . ولكنك في عمومه تلاحظ ان الرجل ينظم الشعر بطلاقة ويقرضه على السليقة ، فلذلك قلما تجد فيه معنى جافاً أو كلمة صعبة .

وشعر ابي المحاسن بركان ثائر يتقد حمما ويقذف جمرا على الاستعمار والمستعمرين وأذنابهم ، ويستنهض من ناحية اخرى همم ابناء الوطن ويدعوهم الى الوحدة والتفاهم والوقوف صفاً واحدا بوجه الغاصب الاشر وطرده الى غير رجعة ، وكانت هذه القصائد تفعل فعلتها في نفوس الناس ، حيث كانت كنار تلقى في كتل البارود ، حيث كان يداعب أوتار قلوب الناس ويثير فيهم المواطن الحساسة من عواطفهم . استمع في هذه القصيدة التي قالها عند انسحاب الاتراك عن البصرة واستيلاء الانكليز عليها في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حيث يقول :

الشعب يهتف بالعرب ... اين الحماة اولو الحسب
ايــن الأولى بسيوفهم ... تطفي الوغى وبها تشب
الواردون عــلى المكا ... رم صفو ماء لم يشب

ومنها قوله :

انــي نــذير الانكليز ... فيومهم منــا اقتــرب
يوم بفيض دم الطـلى ... وجه البسيطه يختضب
شمس الضحى بدخانه ... وهــي المضيئة تحتجب
في لنــدن زحل بــدا ... والمشتري عنهــا غرب
قد اصبحت غرض الخطوب ... فمــا عسى تجدي الخطب

وأبو المحاسن في شعره الوطني حرب على اذناب الاستعمار ، فكان يلهب بسياطه ظهور الخونة من العملاء وأذناب الاستعمار . استمع في هذه القصيدة التي يخاطب احد شيوخ العشائر الخونة :

تخــذل ديــن الله مستنصراً ... من سفه الرأي لدين الصليب
وتسلم الثغــر لأعــدائه ... أسلمك الله ليــوم عصيب

ومنها قوله :

من سـفه الرأي ومـن افنـه ... يا شيخ ان تدعى فـلا تستجيب
فـلا سقاك الله الا القـذى ... بعد ولا أرعـاك الا الجديب

وكان شاعرنا المبدع يدعو في شعره الى نصـرة البلاد العربية والاسلامية ، ويستنهض همم العـرب والمسلمين للذود عن حياض هـذه البلاد ، فلذلك كانت نظرته غير ضيقة وغير اقليمية ٠ استمع في هـذه القصيدة التي قالها في الحرب الطرابلسية الايطالية سنة ١٣٣٠هـ اذ يقول :

شـربت ايطـاليا كأس العطب ... في طرابلس بأسياف العـرب
حدثتهـا كـذباً آمالهـا ... انهـا تبلـغ بالحرب الأرب
فصدقناهـا بضـرب علمت ... منه ان الصدق للبيض القضب

ومنها قوله :

رب معصـوب بتـاج منهم ... عـاد معصوباً بسيف ذي شطب
جزعت (روما) على مصرعـه ... انهـا احدى حظيات النكب

ويغني الشاعر فرحاً عندما يسمع بأن الجيوش الانكليزية والفرنسية ولت هاربة من الدردنيل في ٦ شباط سنة ١٣٣٠ مارية ، ويعتبره انتصارا للمسلمين على قوى الشرك ، كما تلاحظ في هذه القصيدة :

ما الذي تبتغيه منك العداة ... ومن الأسد في حماك حماة
طمعوا منـك بالمحال فخابوا ... وقصارى المطـامع الهلكات
اقبلوا والرجاء طلق المحيـا ... ووجوه المنى لهـم باسمات
وانثنوا عنـك والفنـاء ينادي ... فيهم أين يا جناة النجاة ؟

وقصيدة (الحقوق والشعوب) خير ترجمان صادق على مدى وطنية شاعرنا واخلاصه لوطنه ودعوته للثورة على الظلم والطغيان والاستعمار ودعوته الى تآخي الشعوب كلها لطلب الاستقلال ومنها قوله :

وردت شعوب الارض باستقلالها ... عـذب الرجاء ورويت بزلاله
أفيحرم الشعب العراقي المنـى ... والشيء محمول على أمثـاله ؟

وكان الشاعر عوناً للناس في شعره ، متحسساً لآلامهم ، يتألم معهم ويبكي عليهم ، فكان شعره بلسماً شافياً لقلوبهم ٠

ولأبي المحاسن قصـائد كثيرة أخرى ينتصر فيهـا للبلاد الاسلامية الواقعة تحت نفوذ الغرب ويدعو لنصرتها باسم الاسلام .

اما المديح في شعر ابي المحاسن فلم يكن للتكسب والعيش ، وهو في ديوانه نوعان ، النوع الاول هو مديح للنبي وآله الكريم ، وهو يمتاز بصدق العقيدة وقوة الولاء وصفاء القلب ، فان مدح الرسول وآله فهو محب لهم واله في حبه ، ولذلك نشاهده يبدع في هذا الغرض ، استمع اليه في هذه القصيدة التي يمتدح بها رجل الرجال الامام علي بن ابي طالب (ع) :

لك ذات قد ابدع الله فيها صنعه وهو صانع ما يشاء
عبقت من اريجها نفحات فاستطابت بنشرها الارجاء

والنوع الثاني هو مدح رجالات العرب والاسلام من أصحاب الأيادي البيضاء على الامة والدين كما في هذه القصيدة التي يمدح فيها شاكر باشا بطل ادرنه :

أشاكر قد اضحى لك السيف شاكرا ضرائب قد جلت عن الوصف والجد
لألبستنا من صنع عزمك حلة من الفخر لا تبلى على قدم العهد

وله قصائد أخرى في مدح اصدقائه وذوي وده ، وتعد من اخوانياته كما في هذه القصيدة التي يمتدح صديقا له وقال عنها ناشر ديوانه انها من عيون أشعاره :

أبا احمد انت المؤمل ان عدت عوادي زمان بالكرام تجور
ونعم الربيع الطلق انت اذا التظت محول وهبت شمال ودبور

وغزل شاعرنا من النوع الرقيق دون ركة ، وعفيف في نفس الوقت ، ونستطيع ان نسمي غزله غزلا عرفانيا محضا ، فهو لا يتعدى وصف الحبيب والتغني بجماله والتشكي من فراقه والتشوق اليه كما في هذه القصيدة :

وغيداء ريا الردف ضامية الحشى لها الحسن يعزى والملاحة تنتمى
اذا خطرت غنى الوشاح بخصرها فافصح والخلخال اصبح اعجما
وتشدو بالحان الغرام صبابة فتعرب عن اسحاق فيها ترنما

ورثاؤه نوعان أيضا ، الاول في رثاء آل البيت الكريم ووصف ما نزل بهم من بلاء على ايدي اعدائهم والتوسل اليهم في حسن العقبى ، كما في هذه القصيدة العامرة في رثاء الحسين بن علي (ع) :

ويقدح لي الأسى يوم اصيبت به ابناء فاطمة الكرام
وخطب فادح في كل قلب بفادحة الجوى فيه ضرام
فيا ابن الضاربين رواق فخر سمت فوق الضراح له دعام

أيخضب بالسهام وبالمواضي محياً دونه البدر التمام
فليت البيض قد فلت شباهاً وطاشت عن مراميها السهام
كأنك منهل والبيض ظمآى لها في ورد مهجتك ازدحام

والنوع الثاني في رثاء اهل الفضل والعلم والوطنية من اصدقائه ، كما في هذه القصيدة في رثاء قائد ثورة العشرين الشيخ محمد تقي الشيرازي :

أحييت مجداً للعراق وأهله لله محي المجد وهو رمام
فالشعب يحكم نفسه في نفسه وعليه عترة أحمد حكام

وامتازت اخوانيات أبي المحاسن بالمداعبات مع التحفظ ، فدعاباته ونكاته ظريفة تبعث المتعة والسرور في نفس القاريء والسامع

وقد حوى ديوان شاعرنا بعض الفنون التقليدية كالتشطير والتخميس وما الى ذلك ·

هذه نظرة عاجلة في ديوان الشاعر محمد حسن أبي المحاسن ، أرجو أن اكون قد وفقت في عرضه على القاريء الكريم تتمة لما قمت به سابقا من اصدار كتاب موجز عن حياته وشعره · أرجو ان اكون قد أسديت بعض الجميل لشاعرنا الفحل ، وان كان عملي هذا لا يداني استاذنا الجليل في طبع ديوانه ونشره ؟



آراء وتعقيبات

تعقيب حول موضوع
خواطر حزينة في واقعنا الأدبي

للاستاذ عبدالوهاب الأمين

لدى مطالعتي لموضوع (خواطر حزينة في واقعنا الادبي) للاستاذ عبدالوهاب الامين المنشور في الجزء الرابع من مجلة (الاقلام) الغراء وجدت نفسي تتوق الى قراءته مرات عديدة مما حدا بي الى تلبية رغبتها بقراءة الموضوع مرات عديدة اخرى • شعرت – نفسي – بارتياح عظيم وذلك لانها استطاعت الغور في اعماق هذه الخواطر الحزينة والتي اوردها الاستاذ الفاضل فوجدتها منطبقة فعلا على واقعنا الادبي المعاصر ، فمن خلال تلك الخواطر يمكن للباحث المنقب عن الاسباب الرئيسية لتاخر النهضة الادبية في بلادنا بعد ان كانت مهدا للحضارة الادبية في فترات زمنية خلت من تاريخنا الحضاري الادبي واصبحت تفتقر الى الادباء بعد ان كانت تعج باعداد كبيرة منهم وهذا ما يقر به الجميع وما تشهد به آثارهم الادبية الرائعة والتي مازال الكثير منها مطبق عليه النسيان كأن لم يكن الى عهد قريب مرجعا من مراجع الادب والتاريخ والسير ، فمن هذه الحقائق يلمس الباحث المنقب اسباب ونتائج هذا التاخير والخمول الادبي ••

وقد استطاع الاستاذ عبدالوهاب الامين ان يعبر بصدق عن مكنونات خواطره الحزينة هذه فالكثير من غذاءنا الادبي والفكري أصبح يردنا من الخارج وهذه دلالة واضحة على خمول الادباء في بلادنا او خمول الحركة الادبية بصورة عامة •• هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، ان الاستاذ الجليل انحى باللائمة على الادباء وحدهم في هذا الجمود الادبي ولم يتطرق الى الاسباب التي ، ادت اليه ••

فهنالك عوامل كثيرة كان – ومازال – لها الاثر البعيد في تطور الحركة الادبية ونهوضها اذكر منها على سبيل المثال مايلي :–

١ – الصعوبات التي يلاقيها المؤلف لدى اصحاب المطابع – فيما لو تيسر له طبع كتاب ما – اثناء الطبع والتوزيع وفيما لو تاخر اصدار الكتاب او تاخر تصريفه ••

٢ ـ ارتفاع اسعار الطبع واسعار الورق في المطابع الاهلية والشركات احيانا ورداءة الطبع احيانا اخرى ..

٣ ـ ارتفاع اسعار المطبوعات الداخلية مما يجعل الانصراف الى اقتناء المطبوعات الواردة الينا اكثر منه بالنسبة للمطبوعات المحلية ..

٤ ـ بالاضافة الى المساعدات المادية او المعنوية التي تمنحها وزارة التربية او رئاسة جامعة بغداد او المجمع العلمي العراقي لبعض المطبوعات العلمية او الادبية نجدها مرتفعة الاسعار نسبيا ـ كأن يذكر (ساعدت على نشره وزارة التربية) ـ وثمنه دينار او يقل عنه ..

ترى ! اذا لم يلق الكتاب مساعدة ما .. فكم سيكون ثمنه حينذاك؟!

هذه عوامل معرقلة الى حد ما تطور الحركة الادبية ، أليس كذلك ؟

فاذا ما اردنا ان ننهض الحركة الادبية العراقية من سباتها علينا ان نبحث عن سبل ايجابية لتطويرها اولا ومن ثم المباشرة بعملية التطوير هذه ـ ان صحت التسمية ـ حتى تسترجع حركتنا الادبية ما فاتها من مجد غابر عريق ولتأخذ مكانها اللائق بها بين الحركات الادبية العالمية .

اما الاسباب الايجابية لتطوير الحركة الادبية والتي ذكرتها آنفا فتتوقف على التعاون المثمر بين الدوائر الرسمية المعنية وبين الادباء من ناحية، والتعاون بين الادباء انفسهم من ناحية اخرى ..

اما مجال التعاون بين الدوائر الرسمية والادباء فانه يتحتم على تلك الدوائر ـ السلطة ـ القيام بتأسيس مطابع رسمية مهمتها القيام بطبع كتب اللغة وكل ما يتعلق بالحركة الادبية من كتب مؤلفة او مترجمة وغيرها اسوة بـ (الدار القومية للطباعة والنشر) في الجمهورية العربية المتحدة للحد من ارتفاع اسعار مطبوعاتنا الداخلية لاسيما وان انخفاض اسعار مطبوعات الدار المذكورة يغري باقتناء مطبوعاتها دون الكثير من مطبوعات المطابع الاخرى .. وهذا مما يساعد على تداولها لدى عامة الشعب دون استثناء فعند ذلك استطيع ان اجزم بان حركتنا الادبية ستخطو خطوات كبيرة جدا في مجال التطور والازدهار وستكسب ـ الحركة الادبية ـ ادباء جددسيكون عليهم عبء تطويرها الى اعلى مراحل التطور ..

ولا يسعني في هذا المجال الا ان اثني على وزارة الثقافة والارشاد على ما بذلته وما تبذله من جهود في تطعيم مكتباتنا بالكتب الثقافية وغيرها وارجو لها كل تقدم وازدهار في هذا المجال كما ارجو للاستاذ عبدالوهاب الامين كل توفيق ..

ختاما اتوجه الى الله العزيز الجليل ان يسدد خطانا لازالة هذه الخواطر الحزينة في واقعنا الادبي انه سميع مجيب ..

مهدي معتوق الادريسي
الكاظمية

في الحياة الأدبية

مؤتمر الأدباء العرب الخامس

انعقد فى الخامس عشر من شباط الماضى فى بغداد موءتمر الادباء العرب الخامس الذى دعت اليه جمعية الكتاب والموءلفين وهيأت له اللجنة العليا للآداب في القاهرة ، في قاعة الخلد برعاية السيد رئيس الوزراء المشير الركن عبدالسلام محمد عارف باعتباره راعى الموءتمر ، واشترك فى فعالياته جميع وفود الدول العربية المدعوة ·

وتقرر فى الجلسة الاولى لروءساء الوفود العربية أن تكون رئاسة الموءتمر للعراق ، وان يكون روءساء الوفود العربية نوابا للرئيس ، وانتخب الدكتور عبدالعزيز الدورى رئيس جمعية الكتاب والموءلفين رئيسا للموءتمر والدكتور عبدالرزاق محى الدين وزير شوءون الوحدة نائبا للرئيس ، وتقرر ان تكون محاضرات الجلسات : فى المواضيع التالية :

١ ـ الادب والتوعية ·
٢ ـ الادب وفلسطين ·
٣ ـ الادب والبناء ·
٤ ـ الادب والتراث ·
٥ ـ قانون اتحاد الادباء العرب ·
٦ ـ حقوق التاليف واتحاد الناشرين ·

وقد افتتح السيد رئيس الجمهورية هذا الموءتمر بخطاب مسهب أكد فيه على أهمية دور الادب والادباء في بناء المجتمع ، وطالب الادباء بأن يكونوا العدة والوسيلة وحملة الامانة لتربية الاجيال الصاعدة المتحررة الثائرة ، وتمنى للموءتمر اينع الثمار له ولمهرجان الشعر الذى يتبعه ·

وقد استمر الموءتمر المذكور من ١٥ شباط الى ٢١ منه حسب جدوله ، وانعقدت جلسات اللجان المتفرعة من الموءتمر للدراسة والمناقشة فتوصل المؤتمر الى التوصيات التالية :

أولا ـ فيما يتعلق بالادب والتوعية أوصى المؤتمر بما يلي :

١ ـ ان يوجه الادباء عنايتهم الى القاعدة الشعبية وتعميق اغوارها

من الناحية الفكرية لايقاظ الوعي العربي على اوسع نطاق ، حتى يواجه الشعب العربي مشكلاته بفهم وصدق تأكيدا للكيان العربي الاشتراكي الوحدوي الجديد ٠

٢ ـ أن يواصل الادباء تأييدهم لحركات التحرر في جميع أجزاء الوطن العربي ، وبخاصة في الجنوب اليمني المحتل ، وفي عمان ، والخليج العربي ، وتأييدهم لحركات التحرر العربية في الاجزاء السليبة من الوطن العربي ٠

٣ ـ أن يولي الادباء عنايتهم بحركات التحرر خارج الوطن العربي وبخاصة في افريقيا ، باعتبار أن قضية الحرية في العالم كل لا يتجزأ ٠

٤ ـ ان يتعاون الباحثون العرب على وضع مؤلف شامل عن الحضارة العربية والاسلامية وعلى مراجعة الدراسات التى تناولت هذه الحضارة ، لتقدير النزيه منها ، والتحذير مما شابته الاغراض والاهواء ٠

٥ ـ ان تنقل الى العربية روائع الادب العالمى ، وان يكون بين اجزاء الامة العربية تعاون وتنسيق فى حركة الترجمة ، وذلك بانشاء جهاز مشترك ، حتى لا تتبدد الجهود وتتكرر الترجمات للنص الواحد فى غير ما يوجب ٠

٦ ـ ان تنقل الى العربية المؤلفات الادبية التى تخدم الاهداف القومية مما انتجه ادباء عرب بلغات اجنبية ، باعتبارها جزءا من الادب العربى ٠

ثانيا ـ فيما يتعلق بموضوع « الادب وفلسطين » كانت توصيات المؤتمر تتضمن ما يلى :

١ ـ ان تؤرخ فلسطين من جميع النواحى السياسية والفكرية والادبية والروحية والاثرية ، لاثبات عراقة العربية في هذه البقعة المقدسة ، وابراز شخصيتها من خلال الحضارة العربية ٠

٢ ـ ان يؤلف معجم شامل لبلدان فلسطين وخططها يكتب بأسلوب حديث وذلك بغية المحافظة على شخصيتها ٠

٣ ـ نشر النتاج الادبى لابناء فلسطين منذ بداية النهضة ٠

٤ ـ جمع التراث الشعبى (الفولكلور) الفلسطينى ٠

٥ ـ دراسة النتاج الادبى الذى وضعه ادباء العالم العربى فى موضوع فلسطين ٠

٦ ـ تشجيع الادب والفن الابداعيين اللذين يتناولان القضية الفلسطينية ٠

٧ ـ اختيار أجود ما في نتاج النكبة الشعري وترجمة ما كان انسانيا منه الى اللغات العالمية ٠

٨ ـ انشاء مركز رئيسى للبحوث الفلسطينية تتفرع منه مراكز فرعية

مهمتها جمع الوثائق المتعلقة بالقضية الفلسطينية وتنسيق العمل مع المراكز الموجودة حاليا ٠

٩ ـ تكليف من هو متمكن من اللغات الاجنبية بتاليف المؤلفات في القضية الفلسطينية والجوانب الانسانية منها ٠

١٠ ـ تشجيع التاليف في قضية فلسطين للقراء العرب وللاجانب من شرقيين وغربيين باللغات الاجنبية وذلك لاطلاعهم على حقيقة القضية وعلى الجوانب الخفية منها ، والرد على مزاعم اسرائيل ٠

١١ ـ تتبع القضايا التى تثار حول فلسطين فى المحافل الدينية والسياسية والصحفية وخاصة ما يخدم منها بنى اسرائيل لتنفيذها وابراز الحقائق المتعلقة بها والافادة من التراث الاسلامي والمسيحي فى هذا الصدد ٠

١٢ ـ دعم الادباء والمفكرين والصحفيين الاجانب المتعاطفين مع القضية الفلسطينية فى وجه انواع الضغط والاضطهاد التى يتعرضون لها فى المجالات التى تنشط فيها الصهيونية العالمية ٠

١٣ ـ مد الصحافة العربية والاجنبية بالمعلومات الموثوق بها عن فلسطين وتتبع ما تكتبه لتصحيحه والتعليق عليه ومساندتها ماديا اذا اقتضى الامر ذلك ٠

١٤ ـ انتاج الافلام السينمائية والتلفزيونية التي تدور موضوعاتها حول النواحي الانسانية لقضية فلسطين ، وينبغي ان يكون لهذه الافلام من القيمة ما يسمح لها بأن تعرض فى دول العالم ٠ وتذليل جميع العقبات وتيسير الوسائل بحيث يتيسر عرضها على اوسع نطاق ٠

١٥ ـ اصدار مجلة خاصة بفلسطين على مستوى عربى عال ٠

١٦ ـ العمل على رفع ركن فلسطين فى كل اذاعة عربية بشكل يجعله هادفا وموديا لرسالته والافادة من الفلسطينيين في هذا المضمار ما امكن ٠

١٧ ـ التوصية بادخال موضوع فلسطين فى صلب المناهج التعليمية فى جميع المدارس والمعاهد العالية ٠

١٨ ـ وضع الكتب المدرسية والوسائل الايضاحية الفنية فى قضية فلسطين حسب احدث وسائل التربية وعلى مختلف المستويات ٠

١٩ ـ الاهتمام بادخال الموضوعات الفلسطينية في كتب الاطفال ٠

٢٠ ـ مراقبة الاطالس والخرائط والكتب الجغرافية والتاريخية الاجنبية التى تستعمل فى المدارس الخاصة والحكومية لمنع تسرب ما فيها من معلومات مضللة او مشوهة عن القضية الفلسطينية ٠

٢١ ـ جمع نصوص مختارة من اجود ما قيل شعرا ونثرا فى النكبة لتكون مادة للمطالعة والمحفوظات ٠

٢٢ ـ وضع مسابقات كتابية وخطابية وفنية في المدارس عن قضية فلسطين والخطر الصهيوني ·

٢٣ ـ تأييد منظمة التحرير الفلسطينية في عملها الايجابي ·

٢٤ ـ تخصيص يوم ٢٨ ايار ليكون يوم فلسطين في جميع ارجاء الوطن العربي حسب اقتراح منظمة التحرير الفلسطينية ·

٢٥ ـ مطالبة الدول العربية بأن تعامل الفلسطينيين المقيمين فيها كما تعامل مواطنيها في الحقوق والواجبات الى أن تحل القضية الفلسطينية ·

ثالثا ـ بخصوص موضوع الادب والبناء اوصى الموءتمر بما يلي :

١ ـ تأييد رجال الفكر الذين يدافعون عن القومية العربية وعن الوحدة العربية والذين يدحضون ما يثار حولها من شكوك واضاليل ·

٢ ـ تأييد الخطوات التي تتخذها حكومات الدول العربية في بناء الاشتراكية وتحقيق العدالة الاجتماعية ·

٣ ـ توضيح الاطار الفكري للاشتراكية العربية ، والتأكيد على التراث العربي والاسلامي في بنائنا للاشتراكية العربية ، والتمييز بين اشتراكيتنا والاشتراكيات الاخرى ·

٤ ـ الطلب الى الحكومات العربية لتشجيع الانتاج الادبي والعلمي الذي يخدم القومية والاشتراكية والوحدة ·

٥ ـ الطلب الى رجال الفكر والادب بأن يعنوا بالادب العربي الذي يخدم فكرة القومية العربية والاشتراكية والوحدة في كل عصر وفي كل قطر جمعا ودراسة ·

٦ ـ الطلب الى رجال الفكر والادب تحاشي استعمال عبارة « شعوب عربية » في الدلالة على الامة العربية او الشعب العربي ·

٧ ـ دراسة الثقافة العربية والاسلامية دراسة توضح الصلة بين ماضينا وحاضرنا لتنير السبيل لمستقبلنا ·

٨ ـ الطلب الى الدول العربية أن تعمل على تنفيذ القرار الذى سبق أن اتخذ في عدة مؤتمرات بشأن تأليف دائرة معارف عربية شاملة تليق بالامة العربية ·

١٠ ـ تشجيع الانتاج الادبي والفني الذي يتجه اليه الشباب في موضوع الاشتراكية العربية والوحدة العربية ·

رابعا ـ في موضوع الادب والتراث اوصى الموءتمر بما يلي :

١ ـ أن تصدر الحكومات العربية تشريعات لحماية مصادر تراثنا المخطوطة من الضياع والتلف والسرقة تحتوى :

أ ـ انشاء مركز في كل قطر عربي لتسجيل المخطوطات التي تضمها جميع المكتبات الخاصة والعامة ومكتبة الاوقاف ·

ب ـ الزام اصحاب المكتبات الخاصة والقائمين على امور المكتبات

العامة ومكتبات الاوقاف والجامعات والمجامع وغيرها بتسجيل كل مخطوطة في مكتباتهم لدى الجهات الرسمية ٠

ج ـ تحدد مدة معينه يتم فيها هذا التسجيل ويتعرض المخالف بعدها لتطبيق العقوبات التى ينص عليها التشريع ، ومنها مصادرة المخطوط غير المسجل ٠

د ـ يتولى مركز تسجيل المخطوطات فى كل قطر عربى الاتصال بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الذى يقوم باصدار نشرات دورية مسلسلة بهذه المخطوطات مع الاوصاف الضرورية وذكر مكان وجود المخطوط ، وتعرض هذه النشرات الدورية للبيع على اوسع نطاق ممكن فى جميع البلاد العربية بسعر التكلفة ٠

هـ ـ يبذل مركز تسجيل المخطوطات فى كل قطر عربى بسخاء على شراء المخطوطات التي يقبل اصحابها بيعها دون الزام أو اكراه ٠

و ـ وضع التشريع المطلوب لمنع بيع أية مخطوطة الا بعد اخبار المركز كتابة باسم المشترى ومكان وجوده وعنوانه ، وينص على الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون ان يكون هذا البيع وسيلة لتسرب مخطوطات تراثنا الى خارج الوطن العربى ٠

٢ ـ توصية الامانة العامة لجامعة الدول العربية بمتابعة هذه التوصية بمجموعها الى أن يتم صدور هذا التشريع فى كل قطر عربى ، ثم تتابع اجراءات التنفيذ حتى تتحقق الغاية المقصودة ٠

٣ ـ توصية الحكومات العربية بأن تحشد فى هذا المركز عددا كافيا من العلماء الخبراء بهذا التراث ومن الفنيين بالفهرسة والتصوير ، وترصد المال الذى يمكن من النهوض بذلك ٠

٤ ـ توصية معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بانشاء مركز فيه للتدريب على اصول العمل في التراث فحصا وتدقيقا ٠

٥ ـ يوصى المؤتمر الامانة العامة بجامعة الدول العربية بأن تتابع مع الحكومات العربية اصدار « قانون الايداع » فى كل قطر عربى بحيث يلزم كل ناشر وطابع بتقديم خمس نسخ من كل كتاب يطبع في ذلك القطر لايداعها في مركز خاص ، مثل المكتبة الوطنية العامة ، وتوضع بطاقة خاصة وفق نموذج معين تتضمن جميع المعلومات اللازمة ، وترسل نسخة منها الى مركز تسجيل المطبوعات العربية في جامعة الدول العربية ، لاصدار نشرات دورية مسلسلة بجميع ما يطبع فى البلاد العربية ، ليكون ذلك وسيلة من وسائل تنسيق التحقيق والتاليف والترجمة والتعريف بتراثنا الذى ينشر ٠ وقد صدر مثل هذا القانون فى بعض البلاد العربية ، ويجب تعميم صدوره فى البلاد التى لم يصدر بها بعد ٠

٦ ـ توصية وزارات التربية فى البلاد العربية بأن تعيد النظر فى

مناهجها وانظمتها لتربية ناشئتنا فى مراحل التعليم المختلفة على اسس سليمة متينة من الدين والتراث ، ووصلهم بكل ما ينفع ثقافتهم من هذا التراث ٠

٧ ـ توصية الجامعات العربية بما يلي :

أ ـ العناية بتحقيق تراثنا تحقيقا علميا ، وتدريب فئة من طلابها وخاصة طلبة الدراسات العليا على ذلك ٠

ب ـ العناية بدراسة تراثنا دراسة عميقة محررة تحقق أمرين ٠

ـ تخليص هذا التراث من الشوائب الدخيلة التي دست عليه ٠

ـ تقديمه الى الناشئة وجمهور المعلمين والمثقفين على صورة تقربه اليهم وتحببهم فيه فيعتزون بأمتهم وتراثها الحضارى وتعيد اليهم ثقتهم بأنفسهم واملهم فى حاضرهم ومستقبلهم ٠

خامسا ـ فيما يتعلق بمشروع قانون اتحاد الادباء العرب ٠

يوصى المؤتمر الامانة العامة لجامعة الدول العربية بعرض مشروع قانون اتحاد الادباء العرب التالى نصه على مجلس جامعة الدول العربية لاقراره ٠

وتوصي حكومات الدول أعضاء الجامعة وحكومات الدول العربية غير الاعضاء بالعمل على تدعيم اتحاد الادباء العرب ولجانه المحلية التى ستنشأ فى كل بلد عربى بموجب قانون الاتحاد ٠

المادة الاولى

أ ـ تنشأ فى الوطن العربى منظمة للادباء العرب تدعى الاتحاد العام للادباء العرب ٠

ب ـ تنشأ فى كل قطر عربى لجنة محلية تضم ممثلين الاتحادات والجمعيات الادبية والادباء العرب فى ذلك القطر ، وتكون تلك اللجنة هي الممثلة الرسمية لادباء ذلك القطر امام الاتحاد على ان يتم هذا خلال سنة واحدة من تنفيذ هذا القانون ٠

ج ـ للاتحاد العام ان يعين مراسلين له فى البلاد الاجنبية التى فيها جاليات عربية ٠

المادة الثانية

الى أن يتم قيام اللجان المحلية ، يتألف اتحاد الادباء العرب من :ـ

أ ـ الاتحادات الادبية المحلية ٠

ب ـ الهيئات والجمعيات والنوادى الادبية فى حالة عدم وجود اتحاد محلي للادباء ٠

ج ـ الافراد الذين يضمهم الاتحاد العام من البلدان التى ليس فيها اتحادات محلية ، وذلك باقتراح المكتب الدائم ٠

المادة الثالثة

يباشر الاتحاد العام اختصاصاته بوساطة الهيئات الاتية :

أ ـ الامانة العامة ٠

ب ـ المكتب الدائم ٠

ج ـ المؤتمر ٠

وذلك على الوجه المبين فى النظام الداخلى ٠

المادة الرابعة

تعتبر وفود الادباء وممثلو الهيئات فى الاقطار العربية التالية موسسة لهذا الاتحاد ٠

الاردن ، تونس ، الجزائر ، السودان ، العربية السعودية ، العربية السورية ، العربية المتحدة ، العراق ، فلسطين ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، المغرب ، اليمن ، البحرين ، عمان ، قطر ٠

المادة الخامسة

اهداف الاتحاد :

أ ـ الدعوة الفكرية لتحرير الوطن العربى وتحقيق اهدافه القومية ودعم تراثه الثقافى والعلمى وايضاح دوره فى بناء الحضارة الانسانية ٠

ب ـ التعارف بين الأدباء العرب وتنمية روح الصداقة والتعاون بينهم ٠

ج ـ صيانة اللغة العربية ورفع مستواها بين ابناء الوطن العربى ٠

د ـ نشر الكنوز الادبية الدفينة من مخطوطات وكتب وتعميمها بين الجماهير ٠

هـ ـ عقد المؤتمرات الدورية واقامة المهرجانات والندوات الثقافية فى سائر ارجاء الوطن العربى ٠

و ـ وضع المقترحات التوجيهيه تيسيرا لمهمة الادباء فى انشاء مجتمع عربى تتعاون فيه القوى الانسانية المبدعة الخلاقة ٠

ز ـ العمل على حماية حق الاديب فى حرية التعبير ضمن حدود المثل القومية العربية والانسانية ٠

ح ـ العمل على حماية الاديب وحقه فى حياة كريمة ٠

ط ـ المشاركة فى المؤتمرات والحلقات الادبية الدولية او الاقليمية بارسال ممثلين عن الاتحاد ٠

ى ـ اقامة صلات بين الاتحاد وبين الهيئات المماثلة فى العالم وتنظيم التعاون معها في هذا السبيل ٠

ك ـ تعاون الاتحاد مع الجهات المعنية للعمل على نقل النتاج العربى الى اللغات الاجنبية وبالعكس ٠

المادة السادسة

مقر الاتحاد وموارده :

١ ـ مركز الاتحاد الدائم مدينة (القاهرة) وينتقل هذا المكتب او المركز اثناء انعقاد المؤتمر الدورى الى مكان انعقاده ٠

٢ ـ تتكون موارد الاتحاد العام مما يلى :

أ ـ مساهمة حكومات الدول او البلاد العربية التى لادبائها ممثلون فى الاتحاد العام بنسب تقرر على ضوء ما هو متبع فى توزيع انصبة الدول فى ميزانية الجامعة العربية ٠

ب ـ الهبات والتبرعات المقدمة من الدول او الهيئات او الاشخاص بشرط موافقة المكتب الدائم على قبولها ٠

ج ـ ايرادات المطبوعات والمنشورات ٠

المادة السابعة

يجوز تعديل هذا القانون بقرار من اغلبية ثلثي أعضاء مؤتمر اتحاد ادباء العرب بناء على اقتراح يتخده المكتب الدائم بأكثرية يبلغ عددها ثلثي الاصوات ٠

المادة الثامنة

ينفذ هذا النظام اعتبارا من تاريخ تصديق مجلس جامعة الدول العربية عليه ٠

ملاحظة ـ مرفق بهذا القانون الاساسى النظام الداخلى لاتحاد الادباء العرب ٠

سادسا ـ حقوق التأليف واتحاد الناشرين :

١ ـ يوصي المؤتمر أن تيسر للكتاب العربي وسائل النشر بالغاء القيود الجمركية على المواد اللازمة لنشر الكتاب ٠

٢ ـ يوصى المؤتمر بتيسير تداول الكتاب العربي بين الدول العربية

بالغاء القيود الجمركية بالنسبة للكتاب وتخفيض نفقات الشحن ، وتبسيط الاجراءات وسرعتها ٠

٣ ـ يوصى المؤتمر ان يعمل اتحاد الكتاب العربى على انشاء هيئة نشر عربية تتولى نشر الكتاب العربى فى اوسع نطاق بالاتفاق مع الجهات المعنية ٠

٤ ـ يوصى المؤتمر بضمان حقوق مؤلفى النصوص الادبية التى تستغل وتؤدى بالوسائل الفنية الاخرى كالغناء والتمثيل من الناحيتين المادية والادبية ٠

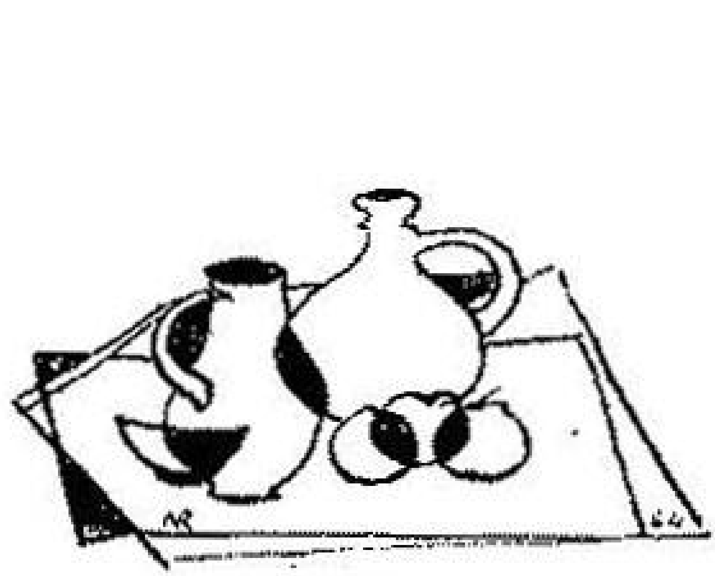
٥ ـ يوصي المؤتمر باعفاء الانتاج الادبي من الضرائب بجميع اشكالها ٠

مهرجان الشعر السادس

وأقيم مهرجان الشعر السادس فى اعقاب مؤتمر الادباء الخامس وفى اثنائه وتليت فيه درر من الشعر الذى اعاد الى الاذهان سوق عكاظ العربى القديم ، وساهم العراق بجزء كبير من هذا المهرجان وكانت مساهمته فعالة وملحوظة ٠

وقد القيت في هذا المهرجان قصائد من جميع الوفود العربية المشتركة فى مؤتمر الادباء الخامس ، فكان المهرجان حقا عرسا من اعراس العروبة٠

وقد انتهى هذا المهرجان فى مساء يوم ٢٤ شباط بعد ان اعلن الاستاذ محمد مهدى علام باسم اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب فى القاهرة تمنياته باقامة المهرجان المقبل فى احدى العواصم العربية الاخرى٠



اضواء على السياسة العالمية

السياسة الداخلية

الغاء مرسوم الاحكام العرفية

منذ اكثر من ثلث قرن صدر مرسوم الاحكام العرفيـة ، ومرسـوم الاحكام العرفية في معناه الحقيقي تقييد لحرية الناس وتعطيل للقوانين التي التي تحكم امورهم وأحوالهم ، وهو باختصار حالة استثنائية تمليها الظروف الشاذة غير الطبيعية ، يستتبعه دائما محاكم عرفية وتنحصر السلطة في ظله بالحاكم العسكري العام .

والثورة حين فكرت ان تلغي هذا المرسوم ـ الذي طبق بالفعل مدة تقرب من ربع قرن في فترات مختلفة ـ انما تثبت للناس امورا كثيرة تتصل باستقرارهم وامنهم وتعود بهم الى حياة الحرية والطمأنينة ، ان ثورة الثامن عشر من تشرين تضيف الى منجزاتها امرأ له دلالته وأهميته ، ولعل توفير الحرية ـ برفع الاحكام العرفية ـ يعد في مقدمة الاعمال المجيدة للثورة وهو يعني الحرية الكاملة التي قد تحجب الاحكام العرفية بعضها ، ومع كل ذلك فان ثورة الثامن عشر من تشرين وقد تسلمت مسؤولياتها في ظل الاحكام العرفية ، كانت مثلا رائعا من أمثلة الحكم الصالح الذي لم يسيء الى أحد بل العكس فقد عمدت هذه الثورة منذ أول امرها الى ان تتخذ شعار التسامح حتى مع المسيء واعتبرت التغرير سببا للاساءة وأعتبرت المواطنين سواسية بحيث وفرت لكل مواطن الفرصة ليثبت حسن نيته ووقوفه بجانب الصف الوطني الذي همه مصلحة المجموع لا مصلحة افراد قلائل يجمعهم حزب او تؤلف بينهم مصلحة خاصة .

ان المعنى الذي ينطوي عليه الغاء مرسوم الادارة العرفية هو المعنى الذى تتوفر معه الحرية لابناء الشعب يمارسونها في ظل القانون ويحاسبون عنها بموجبه .

مؤتمر الادباء العرب ومهرجان الشعر في بغـداد

عقد في بغداد في اليوم الخامس عشر من شباط المؤتمر الخامس للادباء العرب ، وقد شارك في هذا المؤتمر عدد كبير من ادباء العروبة ومن رجال الفكر والقلم على الصعيدين الرسمي والشعبي فقد حضرت الوفود من أقطار العروبة الى بغداد يجمعها هدف واحد وأمل واحد وامة واحدة ان بغداد تضيف الى مجدها العربي مجدا جديدا وليس غريبا على بغداد العروبة ذلك ، فقد ذكر الادباء والشعراء في خطبهم مجد بغداد العربي ونوهوا بتاريخها الحافل بالبطولة والمجد ٠ ان مؤتمر الادباء العرب هذا له أكثر من معنى واحد فهو ليس مجرد التقاء بين وفود عربية ولكنه لقاء الرأي العربي الواحد والفكر العربي المشترك ٠

ان بغداد احسنت صنعا حين تبنت موضوعات الساعة في الوطن العربي من زاوية الفكر وهي موضوعات الادب ومعركة التحرير « والادب ومعركة فلسطين والادب والاشتراكية والادب والغزو الفكري » ٠٠٠ وما الى ذلك من عناوين وردت في بحوث حملة القلم العربي الذي اضاء درب المواطن العربي في الرقعة الممتدة من الخليج الى المحيط من وطنه الواحد ٠

ولقد تظافرت الجهود لانجاح هذا المؤتمر في الصعيد الحكومي الرسمي والصعيد الاهلي ويتجلى اهتمام المسؤولين بما وجد المؤتمر من رعاية كاملة من قبل السيد رئيس الجمهورية فقد افتتح السيد الرئيس مؤتمر الادباء وافتتح مهرجان الشعر ودعا الوفود وتحدث اليهم ٠ فكانت عناية السيد الرئيس بالمؤتمر تتويجا لاعماله وتشجيعا كاملا لاهل الفكر والرأي في دنيا العرب ولم يقتصر ذلك على الرئيس وحده بل كانت مساهمة السيد رئيس الوزراء والسيد وزير الثقافة والارشاد في انجاح المؤتمر تتمثل في اسناد اللجنة التحضيرية التي أعدت له ويتضح ذلك في تذليل الصعوبات مادية ومعنوية ، من أجل توفير الجو الصالح للمؤتمر ، كما وان حضور السيد رئيس الوزراء لمهرجان الشعر في الكوفة كان دليلا كاملا لعنـاية الحكومة ورعايتها له ٠

أما السيد وزير الثقافة والارشاد فقد حضر جلسات المـؤتمر كلهـا وكذلك جلسات مهرجان الشعر ، كما وجعل السيد الوزير أجهزة الاعلام من اذاعة وتلفزيون وصحافة في خدمة أغراض المؤتمر فعاشت بغداد أيامـه وكان المؤتمر في كل بيت وفي كل ناحية ٠

ولقد استقبل الناس الوفود العربية بكثـير من الترحيب والتكريم وساهم كل فرد ــ في مجاله ــ ليكون المؤتمر ناجحا ٠ وقـد نجح المؤتمر فحقق لقاء الفكر وحقق اجتماع الكلمة ودلل بصـورة قاطعة في أن العرب أمة واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل انشاء الله ٠

السياسة العربية

أعياد الوحدة

مرت في هذا الشهر (شباط) الذكرى السابعة للوحدة بين مصر وسوريا باعلان الجمهورية العربية المتحدة وقد ساهم في أعياد الوحدة وفد رسمي من الجمهورية العراقية برياسة الدكتور شامل السامرائي حيث القى خطابا حيا فيه الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها ومما قاله الدكتور شامل « في هذا اليوم يشاركنا الشعب العربي في وطننا الكبير في الاحتفال بهذه الذكرى التي حققت للشعب العربي أروع حدث تاريخي فريد هو قيام الجمهورية العربية المتحدة ... أمل العرب ورجائهم لتكون دعامة للوحدة ولتقوض ركائز الاستعمار فتنادت ضفاف الرافدين بالثوار ، فسدد الشعب في العراق بقيادة الرئيس عبد السلام محمد عارف في ثورة ١٤ تموز الوحدوية ضربته القاتلة للاحلاف والعملاء ودكت قواعد حلف بغداد وكبرت دنيا العرب بنصر الله وردد السيد الرئيس عبد السلام ان لا حياة للعرب بدون وحدة واضاف يقول « ان وحدة العرب قائمة لانها ارادتهم ولان ارادة الشعب هي من ارادة الله ارادة الشعب التي آمن بها عن عقيدة وادراك ولن تقوى قوة على قهر العقيدة وما يؤمن به العقل » .

ومما ذكره الدكتور شامل السامرائي قول السيد الرئيس عبد السلام محمد عارف « اننا لا نريد ان تكون هناك فلسطين ثانية في الخليج العربي » .

وهنا يشير السيد الرئيس الى ما يبيته الاستعمار في الخليج العربي من هجرة غير مشروعة لاقوام ليست عربية لتدخل هذه المناطق العربية ولترسخ أقدامها فيها ولتصبح الاقلية أكثرية فيما بعد ويقوم وطن جديد داخل الوطن العربي كما قامت دويلة الاحتلال في فلسطين العربية ولعل الاقطار العربية في الخليج تدرك هذه الامور ادراكا كاملا ولها من النكبة في فلسطين درس لا ينسى .

أما خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فقد كان خطابا جامعا حيا فيه الشعب العربي بالعيد السابع للوحدة ورحب بضيف الجمهورية العربية الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية ورحب بوفد التهنئة العراقي الذي يمثل السيد الرئيس عبد السلام محمد عارف الذي قال عنه الرئيس عبد الناصر « اننا نكن له كل محبة وكل تقدير » .

استعرض السيد الرئيس جمال عبد الناصر أيام العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ وذكر حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ حين كان العرب سبعة جيوش لم تكن لها وحدة كلمة ، وكيف ان الاستعمار استطاع أن يفرق كلمة العرب

وخلقت اسرائيل في قلب هذه الامة ثم قارن بين حالة العرب اليوم وحالتهم بالامس وقال « ان الشعوب العربية مؤمنة بالوحدة وتشعر بحتميتها ولكن هناك قوى كبيرة تقف ضد هذه الوحدة وعلينا أن نستعد حين ننادي بالوحدة ٠٠ ان نستعد لتجابه كل هذه القوى » ٠

ثم قال الرئيس « ان مؤامرة الانفصال عمقت الشعور بالوحدة فقد بدأنا في مصر بعد الانتكاسة عملية التحول الاشتراكي لنقيم مجتمعنا الديمقراطي الاشتراكي وبناء قوة عسكرية ضخمة في الجمهورية العربية المتحدة لا تجعل اسرائيل تتصور ان العرب قد تأثروا بالنكسة » ٠

وأشار السيد الرئيس عبدالناصر الى الكفاح الذي تخوضه الجمهورية العربية اليمنية بوجه الاستعمار وقال « ان الجمهورية العربية المتحدة ستساند الجمهورية اليمنية ولا يمكن أن يعود التاريخ الى الوراء بأي حال من الاحوال » ٠

ثم تحدث عن المانيا الاتحادية وصفقة الاسلحة التي قدمتها سرا هدية لاسرائيل وقال « ان ادعاءات المانيا الغربية بأن الولايات المتحدة هي التي تدفعها الى اهداء الاسلحة الى اسرائيل وتساءل هل أن المانيا الغربية دولة ليست مستقلة !٠ وقال ان السلاح الذي يرسل الى اسرائيل موجه ضد العرب وعمل عدواني تقوم به المانيا الغربية » ٠

وقال « ان هذه السنة من أخطر سنوات النضال العربي ويجب أن نكون على أقصى درجات الاستعداد لمواجهة الاستعمار ومؤامرات الاستعمار واسرائيل » ٠

والحقيقة ان اشارة الرئيس الى هذه السنة بالذات أمر له أهميسة فهي سنة فلسطين في رأي العرب وهي سنة مياه نهر الاردن وسنة الاجماع العربي في رد العدوان ومؤامرات الصهيونية والاستعمار ٠

المانيا الغربية واسرائيل

كشفت في شهر شباط الاتفاقية السرية المعقودة بين المانيا الغربية واسرائيل بتزويد الاولى للثانية كمية كبيرة من الاسلحة المختلفة كالطائرات والدبابات والمدافع الامر الذي يجعل المانيا الغربية تقوم بعمل عدواني ضد العرب وتقف في صف أعداء العرب والمعتدين على أراضيهم ٠

ان الموقف الذي تقفه حكومة المانيا الغربية قوبل بسخط الشعوب جميعها فالشعب العربي تربطه بالشعب الالماني أواصر من الصداقة لم تعكرها علاقات استعمارية سابقة كما هو الحال مع بعض الدول الاستعمارية التي كان لها تاريخ غير مشرف مع الشعب العربي ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الشعب العربي ينظر بعين العطف الى مشاكل المانيا وصرح

المسؤولون دائما بأنهم ينظرون الى توحيد المانيا نظرة العطف التي تحتمها الصداقة العربية الالمانية .

ان حكومة المانيا الغربية تقوم بعمل من شأنه الاساءة البالغة لشعب المانيا ولمصالح الشعب الالماني ، فالشعب الالماني له علاقات اقتصادية مع العرب لا يمكن أن يفرط بها في سبيل سياسة مفروضة تمليها الولايات المتحدة على حكومة تحترم نفسها وشعب يفترض ان يتحكم بنفسه في أموره السياسية والاقتصادية .

ان التراجع الذي أعلنته الحكومة الالمانية عن موقفها لا يطمئن اليه العرب ومن واجبهم بعد الآن ان يضعوا علامات الاستفهام تجاه حكومة المستشار ايرهارد ومن وراءه من المصالح الاستعمارية والسياسية الغربية المفروضة .